مهرجان القراءة للجميع / مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

الأعمال الفكرية

نهب آثار وادى النيل ودور لصوص المقابر

تأليف: بريان م. فاجان

ترجمة: د. أحمد زهير أمين

مراجعة: د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

نهب آثار وادى النيل
ودور
لصوص المقابر

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: تابوت الملك توت عنخ آمون

التقنية: تابوت مصنوع من الذهب

صيغ هذا التابوت الذى يحوى مومياء الملك توت عنخ آمون من الذهب الخالص المطروق (وهو عيار ٢٢ قيراط حسب ما تدلنا المراجع)، وتحليه الأحجار نصف الكريمة وعجائن الزجاج. وقد شكل فى هيئة وصورة الملك المتوفى حيث يرقد مسجى على نعشه فى سنه الصغيرة، وقد اكتسب وجهه مسحة من الهدوء والسكينة.

محمود الهندى

نهب آثار وادى النيل

ودور

لصوص المقابر

المؤلف

بريان م. فاجان

المترجم

د. أحمد زهير أمين

المراجع

د. محمود ماهر طه



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

سلسلة الأعمال الفكرية

نهب آثار وادى النيل ودور لصوص المقابر

المؤلف: بريان م. فاجان
المترجم: أحمد زهير أمين
المراجع: د. محمود ماهر طه
الغلاف والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ :
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «**مكتبة الأسرة**».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

«بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابًا وتضعونها على بنيكم فتسلبون المصريين».

سفر الخروج ٣: ٢٢

ملحوظة بخصوص الصور

دفعنى بحثى عن الصور المناسبة لكتاب الغارة على النيل إلى التوسع فى البحث فى مصادر علم المصريات وتاريخ القرن التاسع عشر، حتى الكتب الثانوية، وقد حاولت موازنة الصور المعاصرة (لزمن الكتاب) مع أحدث المعلومات عن المواقع الأثرية ذاتها. ويضطر أى باحث على أي حال، إلى الاعتماد بشكل مكثف على كتاب «وصف مصر» عند اقتباس الصور، وما هى إلا تصورات وانطباعات ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، ويحتوى كتاب دافيد روبرتس «مصر والنوبة (١٨٤٦)» على مشاهد للحياة المصرية تتسم بالدفء والاهتمام بالتفاصيل، كذلك يحتوى كتاب ستانلى لين «الحياة الاجتماعية للشعب المصرى (لندن ١٨٨٤)» على صور شيقة للقاهرة، وهناك الكثير جدًا مما صوره السائحون عن النيل، لكن معظمها يتميز بالغثاثة وعدم الدقة، أما الصور الموجودة فى كتاب آميليا إدواردز «ألف ميل بطول النيل» فقد وجدتها مخيبة للآمال، ولكن الصور الموجودة فى مطبوعات جمعيات الكتاب المقدس (كتب وكراسات) أفادنى كثيرًا مثل كتاب صمويلماننج «أرض الفراعنة: مصر وسيناء - رسوم بالريشة والقلم (لندن ١٨٦٨). وتتميز بمسايرتها لنصوص الكتاب المقدس والسلوكيات الأخلاقية والصور الحجرية التى سجلها السائحون الذين زاروا مصر وكثير منها نجده فى ثنايا هذا الكتاب.

التقويم والأسرات والفراعنة والأحداث
الرئيسية والتطورات الثقافية فى مصر القديمة

التاريخ	الأسرات	كبار الفراعنة	الأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية
٣١٠٠ ق.م	اتحاد القطرين . العصر العتيق الأسرتان ١، ٢	نعرمر (مينا)	انبثاق حضارة الأسرات والمؤسسات الحكومية والدينية. تأسيس منف عاصمة مصر وإنشاء المقابر الملكية، بأبيدوس وسقارة.
٢٦٨٦ ق.م	الدولة القديمة الأسرتان ٣، ٤	زوسر، سنفرو، خوفو، خفرع، منكاورع.	المقابر الفرعونية الهرمية. تشييد أهرام الجيزة. الخلود حق ملكى.
٢١٨١ ق.م	عصر الاضمحلال الأول . الأسرات ٧ ـ ١١		انهيار الدولة . انقسامات داخلية . سيطرة طيبة . انتشار عبادتى أوزيريس وآمون رع.
٢٠٥٠ ق.م	الدولة الوسطى الأسرتان ١١، ١٢	الملوك منتوحتب، أمنمحات الأول، سنوسرت الأول والثانى	توغل نفوذ مصر فى آسيا والنوبة . ظهور آمون كإله رئيسى.
١٧٨٥ ق.م	عصر الاضمحلال الثانى الأسرات ١٣ ـ ١٧		حكام الهكسوس فى الوجه البحرى فى نزاع مستمر مع أمراء طيبة . ظهور الحصان والعربات فى وادى النيل

(*) بغرض الإيضاح لم نذكر بالاسم سوى أشهر الفراعنة. وقد أشرنا إلى مدد حكمهم فى ثنايا الكتاب، ويمكن فيما عدا ذلك الرجوع لأى مرجع عن مصر القديمة، والتواريخ بالجدول مستخلصة من عدة مصادر، وكلها فى الحقيقة تقريبية خصوصًا فى الأسرات الأولى.

(تابع) التقويم

التاريخ	الأسرات	كبار الفراعنة	الأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية
١٥٨٠ ق.م	الدولة الحديثة الأسرات ١٨ – ٢٠	فراعنة عظام منهم: أحمس، تحتمس (الأول والثانى والثالث) أمنحتب (الثانى والثالث والرابع)، الملكة حتشبسوت، سيتى الأول، رمسيس (الثانى والثالث)، توت عنخ آمون (فرعون ثانوى ذو شهرة حكم فترة قصيرة أثناء الدولة الحديثة).	ذروة عنفوان الدولة المصرية ورخائها . امتداد الإمبراطورية المصرية حتى حدود الفرات وبعمق النوبة . التوسع فى بناء المعابد بالأقصر والكرنك.
١٠٨٥ ق.م	العصر المتأخر الأسرات ٢٢ ـ ٣٠	كثرة تغير الفراعنة . ١٢ منهم حكموا أكثر من ٢٠ سنة.	معاناة البلاد بسبب الثورات السياسية . احتلال الفرس... وغيرهم . أحيانًا . للبلاد.
٥٢٥ ق.م		غزو قمبيز لمصر.	
٣٣٢ ق.م		غزو الإسكندر لمصر.	
٣٠٥ ق.م		عصر البطالمة	معابد دندرة وإدفو وكوم أمبو وفيلة . سيطرة ملوك مصر اليونانيين . مكتبة الإسكندرية تكتسب أهمية كبرى.
٣٠ ق.م		الاحتلال الرومانى لمصر.	مصر ولاية رومانية بعد موت أنطونيو وكليوباترا.

الجزء الأول

المقابر - السائحون - الكنوز

١.التخريب ينال الفراعنة

«فلنتصور مؤامرة تجرى على النحو التالى: اجتماع سرى وسط صخور الجبل والاتفاق على رشوة حراس المقابر، أو تخديرهم ثم الشروع فى نبش القبور فى الظلام والتسلل إلى حجرات الدفن والبحث عن كل ما خف حمله وغلا ثمنه فى ضوء الشموع الخافت، وأخيرًا الرجوع بالغنيمة».

هذه إحدى الفقرات التى كتبها الأثرى المعروف كارتر عند اكتشافه مقبرة توت عنخ آمون العظيمة سنة ١٩٢٢ وهو يروى كيف كان اللصوص القدماء يدبرون لنهب المقابر، ويعلق كارتر على ذلك قائلا: «مثل هذه الأمور مما يمكن تصوره، لأنه فى الواقع لا يمكن تلافيها» كان كارتر يقصد بهذا الكلام وادى الملوك - المنعزل فى الصحراء غرب طيبة، وقد اختاره الفراعنة منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، واستخدموه لمدة تزيد على أربعمائة سنة لدفن مومياوات موتاهم فى أعماق الصخور لإخفائها عن الأنظار، أما معابدهم الجنازية فقد شيدوها بجوار النهر قرب طيبة، وتكفل جو طيبة الجاف بأن يحفظ لنا - وللصوص كذلك - ما خلفته الدولة الحديثة من أثاث فاخر، وكراسى عرش وتماثيل أوشابتى جنازية عثر عليها بالآلاف مدفونة هناك، وهذا بالإضافة إلى التوابيت الحجرية والأوانى المرمرية، فإذا أضفنا إلى ذلك ما وجد من لعب الأطفال والمجوهرات وشعارات الدولة والأكفان الكتانية، لأدركنا ما وصل إليه هؤلاء الفراعنة من ترف فى

حياتهم اليومية، وجرت العادة فى الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين على دفن الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة فى وادى الملوك نفسه، أما باقى أعضاء الأسر الملكية فكانوا يدفنون فى التلال المجاورة والوديان القريبة، إما بحفر مقابرهم فى الصخور، وإما بتجهيزها فى أحد الكهوف فى التلال الصخرية، وقد اهتموا اهتمامًا بالغًا بحفظ جثثهم فى توابيت مزخرفة زاهية الألوان، لأنهم آمنوا بفكرة الخلود الأبدى.

كلف بالعمل فى المقابر الملكية مجموعة مستديمة من العمال توارثت إنشاء المقابر الفرعونية لأجيال عديدة، أقاموا فى مكان منعزل أنشئ خصيصًا لهم نعرفه اليوم باسم «قرية دير المدينة»، لدينا عنهم - الآن - ما يكفى لأن نحكم أن مجتمعهم كان مثل غيره من المجتمعات العادية الحية، فقد كان عمال القرية يضربون عن العمل أحيانًا، ورصدت لهم حالات تغيب عن العمل، وكانت بينهم نزاعات عائلية، وكان هناك عمال غير هؤلاء يقومون بالعمل فى مقابر النبلاء لا نعرف عنهم - الآن - شيئًا، ولم يبخل أحد، من هؤلاء فى الإنفاق على مقبرته، فالمصريون القدماء - بلا استثناء - كان لديهم إيمان راسخ بالخلود فى حياة أخروية؛ لذلك كانوا يزخرفون مقابرهم ويزينونها، لتكون آية من آيات الفن والعمارة.

رغم ذلك كان بعض هؤلاء العمال - يدفعهم الجشع - أول من انتهك حرمة موتاهم، لم يردعهم وازع ولا رحمة، فهم أنفسهم أول من سطوا على المقابر وخربوها، وأول من حطم مومياوات الفراعنة، وتكونت للسطو عصابات منظمة اعتادت انتهاك مقابر طيبة بصفة شبه مستمرة، وكان يعين هؤلاء بعض الكهنة معدومى الضمير، وبعض الموظفين المرتشين، ولم تكد تسلم مقبرة فى وادى الملوك من العبث والانتهاك بطريقة مخالفة للقانون، وفى أواخر الأسرة العشرين بلغ السطو والنهب درجة جعلت كثير من الكنوز الملكية تتبخر قبل أن يصل إليها المنقبون عن الكنوز فى الأزمنة الحديثة، ليكملوا عمل من سبقهم فى تبديد التراث الفرعونى، توفر الأمان النسبى للمقابر الملكية فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (١٥٧٠ - ١١٨٠ ق.م)، وهو العصر الذهبى للإمبراطورية

المصرية الذى حظى بعظماء الفراعنة مثل سيتى الأول ورمسيس الثانى، وهؤلاء وفروا لمقابرهم الحماية اللازمة، وعينوا لذلك الحراس والمراقبين الحاذقين، وكانوا يراقبونهم بأنفسهم، من أجل ذلك كان السطو على المقابر فى أيامهم شيئًا نادرًا وبسيطًا، فلما ضعفت قبضة الفراعنة على الحكم أثناء الأسرة العشرين أخذت حوادث السطو على المقابر الملكية تتزايد لضعف الحراسة عليها..ولقد حفظت لنا البرديات أنباء قضية سرقة المقابر الكبرى التى جرت وتائعها فى فترة حكم، رمسيس التاسع (١١٤٢ - ١١٢٣ ق.م)، وارتبط بها رجلان من كبار الموظفين هما «باسر» محافظ طيبة الشرقية، و«باورو» محافظ طيبة الغربية.

كان باسر رجلاً لا غبار عليه، ولكنه كان فضوليًا لجوجًا محبًا للظهور. وكان يحسد زميله محافظ طيبة الغربية، فما أن وصلته الوشايات حول سرقات مقابر الملوك بالبر الغربى حتى باشر التحقيق فيها بنفسه متجاوزًا اختصاصاته الرسمية، واستخدم فى ذلك كل الوسائل حتى الغير مشروعة منها مثل تعذيب المتهمين لانتزاع اعترافاتهم (التى منها):

«هناك عثرنا على مومياء الملك المبجلة... ووجدنا كثيرًا من الشارات والحلى حول رقبته، وكان على رأسه قناع ذهبى، وكانت المومياء نفسها مغطاة بالذهب بكثافة.. فنزعنا الذهب عن مومياء الملك المبجلة... كما استولينا على الشارات والحلى وكسوة التابوت».

لم يتردد باسر فى نقل الموضوع إلى خع ام واست - الوزير المحلى - وطالبه بمتابعة التحقيق فى سرقة المقابر بصورة رسمية، فشكل الوزير لذلك لجنة تفتيش رسمية، أسفر عملها عن العثور على مقبرة ملكية واحدة تم السطو عليها - وهى مقبرة الملك «سخم رع شد تاوى» بن «رع سويك ام ساف»، بالإضافة إلى بعض مقابر الكاهنات التى عبث بمحتوياتها؛ لذلك أعيد استجواب شهود باسر، لكنهم أصروا على براءتهم وأنكروا كل أقوالهم السابقة، وكانت النتيجة وبالاً على باسر الذى يبدو أنه لم يقدر مواهب «باورو» حق قدرها، ولم يدرك مدى قدرته على التستر على عمليات السطو على المقابر الملكية التى نشطت فى ذلك الوقت،

وأسقط الوزير التهم بعد إنكار الشهود، ومن يدرى لعله سر بذلك فقد كان هو الآخر غارقًا إلى أذنيه فى عمليات النهب.

أسعد باورو ما جرى واعتبره انتصارًا على منافسه لكنه التزم الصمت وظل ملازمًا لمحافظته يتدبر الأمر، وبعد مرور عدة أشهر جمع عددًا من العمال، ومراقبيهم، وبعض من رجال الأمن لديه، وأرسلهم إلى البر الشرقى فى مظاهرة صاخبة فى تحد ظاهر لغريمه، وتعمدت المظاهرة المرور أمام بيت باسر، وحاول باسر أن يحافظ على هيبته بتجاهل المظاهرة، لكن أعصابه لم تسعفه فتوجه إلى ساقى الملك ـ وكان بالصدفة فى معبد بتاح المجاور ـ وأعاد فتح الموضوع وكرر قدرته على إثبات اتهاماته السابقة، وأثناء الكلام أفلت لسانه فهدد بالتظلم إلى الفرعون مباشرة إذا لم يحسم الأمر، وحسب التقاليد المرعية كان هذا التصرف من باسر يعتبر خطأ جسيمًا؛ لأنه بذلك يريد تجاهل التدرج الوظيفى، بالإضافة إلى ما فى التهديد من اتهام ضمنى للوزير نفسه؛ لذلك عندما أبلغ الساقى بذلك لم يتأخر الوزير عن تعنيف باسر واتهامه بتلفيق التهم وطلب منه الكف عن إثارة المشاكل.

لكن باسر اللحوح لم يسكت وظل وراء الموضوع حتى أعيد فتح التحقيق فيه بمعرفة الوزير الجديد «نب ماعت رع ناخت» نخت واستدعت المحكمة المشكلة خمسًا وأربعين متهمًا للاستجواب، ووقائع هذه المحاكمة سجلت على برديات، ولحسن الحظ عثر على هذه البرديات وبيعت فى سوق الآثار فى أواخر القرن التاسع عشر بطريقة غير شرعية، ويستخلص مما جاء بالبرديات أن الشهود قد جرى تحليفهم وضربهم ليعترفوا، وكانت الأدلة دامغة، وشهد حامل مبخرة معبد آمون بأن إحدى عصابات السطو فاجأته ليلاً وهو نائم، فأيقظوه وقالوا له: اخرج ودعنا نسرق؛ لأننا جوعى، «وصاحبونى فى فتح مقبرة أخرجنا منها تابوتًا من الذهب والفضة.. فحطمناه ووضعناه فى سلة خرجنا بها، ثم قسمناه إلى ستة أجزاء»، وبعد ذلك أحضر من ورد ذكرهم فى اعترافه، فضربوا حتى اعترفوا بدورهم بما قرره زميلهم، ومما جاء فى إحدى البرديات:

«ضرب كاتب الجبانة بالعصا حتى قال: «كفى سأعترف، هذه الفضة هى كل ما أخذناه، وخلاف ذلك لم أر شيئًا» ثم أعيد تعذيبه بالمد والجلد. وقال له «نسى امنمؤبى - كاتب الجبانة الآخر: إذن فالمقبرة التى اعترفت بأن الأوانى الفضية سرقت منها مقبرة أخرى، يعنى أنكم سطوتم على مقبرتين بخلاف الكنز الأصلى». فقال: «غير صحيح فالأوانى من الكنز نفسه وقد ذكرتها من قبل، لقد فتحنا مقبرة واحدة، فقط، وأعيد تعذيبه بالعصا والجلد والمد، لكنه أصر على أقواله».

وكانت العقوبات التى وقعت على هؤلاء قاسية، فحدت من سرقة المقابر إلى حين - وإن لم توقفها تمامًا، فلم تكن هناك - فى الواقع - وسيلة فعالة يمكن بها ردع لصوص المقابر.

حتى مقابر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة العظام، لم تسلم من العبث بها وسلبها فيما بعد، رغم جهود الكهنة والموظفين المكلفين بحمايتها، وتكررت الانتهاكات - وفى كل مرة - كانت جثث الملوك تنقل إلى توابيت ومقابر أخرى، ولما أعيت الكهنة الحيل نقلوا مومياوات الفراعنة جميعًا، وكدسوها فى مخبأين سريين - أحدهما فى وادى الملوك نفسه، والآخر فى المرتفعات المطلة على طيبة، وهناك استقرت فى سلام بعيدًا عن عبث اللصوص لمدة ثلاث آلاف سنة، حتى عثر عليها بالصدفة سنة ١٨٧٠، فكأنما شاءت الأقدار أن تحفظها لنا خدمة للعلم.

اشتهرت مصر فى عصر الفراعنة العظام بالثراء والاستقرار بين دول البحر المتوسط، وهؤلاء نعرفهم اليوم بأسمائهم وسماتهم، وبعض كنوزهم موجودة فى متاحفنا، فليس منا من يجهل رمسيس الثانى أو توت عنخ آمون، ورغم عمليات السطو والتخريب قديمًا وحديثًا فقد بقى الكثير من آثارهم، ولدينا من النقوش والبرديات ما يصف لنا حياتهم اليومية، وقد أشرنا - آنفًا - إلى قضية السطو الكبرى وما أثارته وقتها من انفعالات، ورغم أن ما نهب كان أعظم إلا إن ما تبقى من آثار هذه المدينة القديمة - أقدم المدنيات عمرًا - يعتبر كافيًا للدارسين والمشاهدين.

لم تتقطع موجات العبث بمقابر مصر القديمة وآثارها العظيمة، ومن المؤسف أن بعض المصريين كانوا هم أنفسهم عاملاً فى تدمير تلك الآثار على مر العصور سواء بدافع البحث عن الذهب أو بوازع دينى باعتبارها آثارًا وثنية[1]. وأخيرًا، أتى الأثريون والسائحون بحثًا عن الآثار والعاديات وكان كل منهم له هدف، فقد قام البعض بقياس الأهرام، واشترى البعض مومياوات، ونقب آخرون مقابر سقارة وتسللوا إليها، وعندما غادر نابليون مصر بعد فشل حملته المعروفة كان معه سجلاً ضخمًا عن مصر القديمة أشعل حماس أوربا نحو مصر، فلما زار الأب جيرامب مصر سنة ١٨٣٣ قال لمحمد على باشا: « لم يكن من يزور مصر يحوز الشرف إلا إذا كان يحمل مومياء فى إحدى يديه، وتمساحًا فى الأخرى» والواقع أنه فى زمن الأب جيرامب هبت موجة عارمة من التنافس وشملت الجميع - من دبلوماسيين ونبلاء وسائحين وتجار - بهدف جمع أكبر عدد من المومياوات وغيرها من الآثار المصرية، وأصبحت الموضة. نماذج مصرية حتى فى المعمار، وفى الوقت الذى كان فيه شمبليون عاكفًا على فك شفرة الأبجدية الهيروغليفية، كان السائحون غارقين إلى أذقانهم فى نهب كنوز المدينة التى لا يعرفون عنها إلا أقل من القليل.

الخلاصة: أن إتلاف الآثار المصرية ونهبها لم تهدأ منذ أكثر من ألفى سنة - سواء أكانت على يد الأهالى أم الأجانب وكل له حجته مهما كانت واهية، وكانت خسارة علم الآثار فادحة، وأفدح منها ما ضاع من تاريخ مصر.

والآن، نجد ما بقى من آثار مصر مبعثرًا فى أرجاء المعمورة، وأجملها موجود فى أماكن تبعد آلاف الأميال عن وطنها الأصلى، ومن حسن الطالع أن بعض هذا التراث أمكن إنقاذه بجهود الحكومة المصرية والأثريين الملتزمين فى المائة سنة الأخيرة، ومن العسير علينا، على أى حال أن نلوم من نهبوا وخربوا الآثار المصرية، فقد كانت الأخلاقيات السائدة والحالة الثقافية فى وقتهم تسمح بذلك العبث - الأهالى تحت ضغط الحاجة، والأجانب تحت إلحاح التطلع للثراء أو الحصول على الطرائف الأجنبية الغريبة، وهؤلاء لم يخل عملهم من بعض الإيجابيات، فهم الذين لفتوا أنظار العالم إلى أهمية التراث المصرى العظيم، ولم

يخل فى الوقت الحاضر أى متحف أوربى أو أمريكى من الآثار المصرية، من موميا‌وات ونقوش وتماثيل وغيرها، وفى عصر النفاثات أصبح من اليسير زيارة آثار مصر قد يكون سببها زيارة متحف محلى أو قراءة كتاب ممتع عن مصر القديمة.

ومن عجائب القدر أن تكون غالبية الآثار التى تعتز بها متاحف أوروبا وأمريكا قد جلبها مغامرون تملكهم الفضول، فلم يتورعوا عن استخدام وسائل مخربة كالبارود والحفارات، دون أدنى إحساس بالمسئولية، ومن مآسى التاريخ أن معظم معلوماتنا عن مصر القديمة حصلنا عليها بمثل هذه الوسائل.

هوامش

(١) من المؤسف أن البعض فى عصرنا هذا مازال يخلط خلطًا معيبًا بين الاهتمام بالآثار من واقع الشغف بالمعرفة والولع بالفنون، وبين عبادة الأقدمين للأصنام. فعلم الآثار، وهو من أجل العلوم الحديثة، يهتم بدراسة تلك الآثار للتعرف على ماضى الإنسان وأحداثه التاريخية، ويؤصل الأفكار وتطور العادات والتقاليد. فضلاً عما يكشفه لنا من روائع الكنوز الفنية التى ترقى بالذوق وتهذب النفس. وعلماء الدين هم أولى الناس بالاهتمام بدراسة الآثار، لا لأنها تلقى الضوء فحسب عن الكثير من الأحداث التاريخية التى أشارت لها الكتب السماوية، والتى تثبت صحتها، بل لأن معرفة طرق وأساليب الحياة وثقافة الأقدمين وسيلة لتعميق فهم الرسالات السماوية التى ظهرت فى ذلك الحين والتى جاءت لتخاطب تلك الأقوام أو معاصريها. فضلاً عن أن علم الآثار قد أمدنا بثروة هائلة من الحكم والنصائح الأخلاقية الرفيعة التى شرعها الحكماء الأقدمون والتى تتوافق مع التعاليم الخلقية للديانات السماوية، مما يثبت أن تعاليم تلك الديانات هى مما يوافق الفطرة الإنسانية السليمة.

(المحـرر)

٢ـ أبو التاريخ
والسائحون الأوائل

منذ مائة سنة كتبت الرحالة المشهورة لوسى داف جوردون (من العصر الفيكتورى) وكانت تزور الأقصر: «هذا البلد (مصر) أشبه بقرطاس قديم دونت عليه كتابات تلو الكتابات، فخط عليه الزمان أسفار الكتاب المقدس فوق فصول هيرودوت وفوقهما خط آيات القرآن الكريم... وتعنى العبارة أن مصر تعاقبت عليها الحضارات.

والعبارة لا شك جامعة مانعة وفقت فى تلخيص ما مرت به مصر من أحداث، وفى العبارة ما يوحى بما أحدثته موجات السائحين المتتالية منذ أقدم العصور، ثم المنقبون عن الكنوز فى الأزمنة الحديثة من إتلاف لتراث مصر الحضارى.

كان المصريون القدماء مؤمنين بتفوق حضارتهم على غيرها، ويعتبرونها أعرق الحضارات، وأثبت التاريخ صحة هذا الاعتقاد، إذ كانت مصر الفرعونية دولة مستقرة قوية، وكانت دولة بناءة انبهر اليونانيون ثم الرومان بمعابدها العظيمة وأهرامها الضخمة، وآثارها المنتشرة على ضفاف النيل - وهى آثار لم ينل منها الزمن على مر العصور.

كان الإغريق يؤمنون بأن مصر أصل كل شيء: الدين، النظام، والحكم والعلم ـ وكل ما هو عجيب، ويقول المؤرخ هيرودوت (أبو التاريخ) في ذلك: «ليس هناك قطر به من العجائب ما يوجد بمصر، وليس هناك بلد فيه من الصنائع ما هو موجود بمصر». كان هيرودوت عاشقًا لمصر، عاش فيها خمس سنوات (٤٦٠ ـ ٤٥٥ ق.م)، وجاءت زيارته في وقت كانت مصر العظمى الفرعونية قد تدهورت منذ قرون (قليلة)، فشاهد الكثير من آثارها قبل أن ينالها التخريب. وهيرودوت ـ كما نعرف ـ صاحب «التاريخ الكبير» الذى انبهر به الباحثون وعلماء الآثار لمدة قرون.

ويدل ما كتبه هيرودوت على سعة اطلاعه على أحوال زمانه، لكن مادته التاريخية كان ينقصها الدقة والتحرى، وكان في زمانه العديد من الرجال المشهورين المبجلين، وقد بلغ من إعجاب اليونانيين به أن طالبوه بتلاوة كتبه على الملأ. في أثينا، وتاريخ هيرودوت الكبير يحتوى على حشد من المشاهدات الواقعية، والحكايات الشعبية والخرافيات والأساطير الدينية، مختلطة مع التاريخ الحقيقي في مزيج ممتع، لا يمل من يقرؤه.

والظاهر أن هيرودوت كان يتساهل في تصديق ما يروى له دون تمحيص يذكر، لكنه كان دقيق الملاحظة جم النشاط دائم السياحة والترحال، من أجل ذلك رأى ما لم يره أحد غيره، ويقع تاريخ هيرودوت في تسع مجلدات، ومادته التاريخية تحتوى على مبالغات كثيرة وتساهل في قبول الروايات مما أثر على قيمة الكتاب إلى حد ما، لكن حدسه وصدقه في أمور الأنثروبولوجيا أثبتته الدراسات الحديثة بصفة عامة.

ساح هيرودوت في صعيد مصر سياحة طويلة في النيل، وفي ذلك الوقت، كان الطريق النيلي هو شريان المواصلات الرئيسي وأكثر الطرق أمنا يسلكه المسافر، وكانت الحكومة تستعمله، وكذلك التجارة والسياحة، وكذلك كان القرويون يرتادونه في زوارق البردى الخفيفة، أما الطرق الصحراوية فلم يألفها السائحون لوعورتها وخلوها من المعالم التى تسترعى الانتباه.

جمع هيرودوت فى رحلته حصيلة ضخمة من المعلومات - بعضها غث وبعضها ثمين - وضمن هذا كله الجزء الذى كتبه عن مصر، هذا الجزء هو أقدم ما كتب فى وصف مصر وتاريخها على الإطلاق، وفيه اختلط التاريخ الصحيح بالخرافات والأساطير بصورة تجعل من العسير التمييز بينهما، لكن جغرافية هيرودوت كانت فوق مستوى الشبهات، ولما تحدث عن النيل وفيضانه اعترف فى البداية بأنه لا يدرى من أين يأتى: «يقول الناس أن الفيضان سببه ذوبان الثلوج»، وقد ثبتت صحة ذلك، إلا أن هيرودوت كان يتشكك فيه.

كان هيرودوت مثل غيره من الزوار الكلاسيكيين يجل المؤسسات المصرية - الدين والآلهة المتعددة وجمهور المؤمنين، ونظام الحكم، والثقافة.. إلخ، وظهر ذلك فى إيمانه بأن الإغريق أنفسهم اقتبسوا بعض الآلهة المصرية وساووها بآلهة يونانية، ومما لاحظه هيرودوت أن المصريين قدسوا بعض الحيوانات كالقطط، واهتموا عند دفنها بإجراء طقوس واحتفالات خاصة، واهتم هيرودوت بشرح كيفية تحنيط الجثث ومراحله المختلفة: استخراج المخ من فتحتى الأنف بخطاف معدنى، ثم تنظيف الجسد وحفظه بعد استخراج الأحشاء لمدة سبعين يومًا قبل الدفن، ثم شرح كيف يتسلم أهل الميت الجثة المحنطة، ليضعوها فى تابوت خشبى على هيئة إنسان ثم يُحكَم إغلاقه ويوضع فى قبر الميت منتصبًا ومسنودًا إلى الحائط، وقد تأيد ما ذكره هيرودوت فى هذا الصدد، ولعله يكون قد عاين ذلك بنفسه.

تكلم هيرودوت فى تاريخه عن الزراعة وصيد السمك والتماسيح، ووصف السفن والزوارق، ولم يترك فى مصر شاردة ولا واردة إلا تناولها، فهو فى الوصف لا يعلى عليه، أما عند كتابة التاريخ فنجده قليل التروى، غير دقيق فى سرده؛ لذلك فعندما تكلم عن الدولة المصرية أورد كل ما سمعه من أساطير دون تمحيص قبل أن يذكر الملك مينا موحد القطرين، وادعى هيرودوت أن الكهنة أطلعوه على قوائم مسجل فيها أسماء ٣٥٠ فرعونًا - وهى الموجودة فى تاريخ مانيثون، وظل تاريخ هيرودوت يشوبه الاضطراب، واعترف هو نفسه بذلك، ولسوء الحظ صدق من جاء بعده كل ما قال بدون تمحيص، وسجلوا أساطيره

ونشروها كأنها حقائق تاريخية، فرسخت فى الأذهان على مر العصور، لكن ميزة هيرودوت التى لا ينازعه فيها أحدمن قرب عهده بالفراعنة العظام، كذلك اتصاله ومشافهته للكهنة وجماهير المصريين بكل ما حملوه معهم من تراث مصر وطقوس عباداتهم التى ترسخت منذ القِدَم، ولا شك فى أن آثار مصر فى عصر هيرودوت كانت أحسن حالاً منها الآن؛ لأنها لم تتعرض للتخريب المتعمد الذى حدث فيما بعد على أيدى المسيحيين ثم الأثريين على التعاقب، لذلك اتسم تاريخ الرجل بالحيوية والمعاصرة، والإمتاع. فقد كتبه واحد من أكبر مثقفى عصره، ومن أشد المؤمنين بحضارة مصر وعراقتها، ومن أمتع ما سجله هيرودوت وصفه الحى للمصريين ومجالس شرابهم واحتفالاتهم الدينية، وحتى سرقاتهم.

ومما يثير العجب أن هيرودوت الذى يحذرنا من أخذ ما يرويه علماء مصر من روايات كقضية مسلم بها ينسى أو يتناسى هو نفسه أن يعمل بذلك، فكانت النتيجة أنه جر المؤرخين بعده إلى هذا الشَرَك. التصديق بلا تدقيق.

وهيرودوت من الشخصيات المثيرة للجدل ما بين معجب به وساخط عليه، فمن العلماء من أزرى به وحط من قدره مثل مربيت حين يقول: «إنى أزدرى هذا السائح الجوَّال، فقد زار هيرودوت مصر فى وقت كانت اللغة المصرية القديمة مازالت معروفة، وكان بإمكانه الحصول على حقائق تاريخية أساسية، لكنه لم يتعد قوله إن إحدى بنات خوفو بنت هرمًا من كسب البغايا.. فإذا أضفنا إلى هذا الأخطاء الفاحشة التى وقع فيها، ألم يكن من الأفضل لعلم المصريات ألا يكون هيرودوت قد وجد أصلاً؟».

وكلام مربيت فيه ظل من الحقيقة، لأن قبول هيرودوت المرويات دون تمحيص تسبب فى تصديقها وتناقلها لعدة قرون، ولكن ذلك لا يعفى مربيت من التحامل على أبى التاريخ، وعلى أى حال هناك من قدر الرجل حق قدره فقد وصفه عالم المصريات الشهير الان جاردنر بأنه «أبو التاريخ.. وأحد العبقريات الفذة»، والحقيقة أن هيرودوت ركب الصعب وارتاد حقلاً لم يسبقه إليه أحد، فكان كمن يحفر فى الصخور؛ ولذلك لا يصح عند الحكم عليه أن نطبق مقاييس عصرنا بعد أن تطور التاريخ إلى علم له أصول لم تكن معروفة فى زمنه؟».

عندما غزا الرومان مصر جعلوها ولاية ممتازة تابعة للأباطرة مباشرة يحكمها باسمه والٍ لا يرأسه سوى الإمبراطور، وكان أهم ما مكن الرومان من السيطرة على إمبراطوريتهم الشاسعة شبكة المواصلات السهلة السريعة؛ لذلك تطورت فى عصرهم وسائل النقل البرية والبحرية السريعة، وأصبح نقل البضائع والمسافرين آمنًا ميسورًا لمدة ثلاثمائة سنة متتالية، ومع توفر الأمن والثراء وجدت طبقة من الناس لديهم من المال والفراغ ما يسمح لها بالسياحة فى ربوع الإمبراطورية بيسر وسهولة، وأخذ السائحون يتدفقون على مصر بالآلاف ينشدون العلم والثقافة والتسلية، وهذا فى حد ذاته كان سببًا فى العبث بآثار مصر وإتلافها.

كان السائح فى ذلك الوقت يسلك أحد طريقين، الأول طريق البحر من بونزوليز Ponzzolez، إلى الإسكندرية مباشرة، والثانى الإبحار إلى قرطاجنة ثم التوجه إلى مصر بالطريق البرى الساحلى وكلا الطريقين كان من طرق الإمبراطورية الآمنة، وكانت الانتقالات عبر البحر المتوسط قد صارت آمنة مستقرة، وحركة السفن فيها نشطة تحمل البضائع والمسافرين إلى شتى المرافئ، وبنيت سفن تصل حمولتها إلى ألفى طن يزيد طولها على ٥٣ مترًا تمخر عباب البحر المتوسط إلى الإسكندرية، ومنها كان يتيسر للسائحين الإبحار فى النيل حتى الحدود الأثيوبية بلا عوائق، ومن شاء كان يجد الطريق البرى المحاذى لمجرى النيل حتى قفط حيث يجد الطريق البريدى على المسار القديم نفسه عبر الصحراء حتى ميناترى برنيس وميوشورم Myoshormos على البحر الأحمر، وهما مركزان تجاريان لهما أهميتهما فى تجارة الجزيرة العربية والمحيط الهندى.

لم يحدث فى مصر ما حدث فى أوروبا من اقتباس شعوبها لعادات فاتحيها ومؤسساتها والتشبه بالرومان (فرنسا وإنجلترا مثلاً)، فقد تشبثت مصر بتراثها وعاداتها وتقاليدها وأساليبها فى الزراعة وكتابتها الهيروغليفية كما توارثته منذ القدم، فاستقرت أحوالها فى العصر الرومانى استقرارًا فريدًا، وكان السائح الرومانى يتجول فيها بحرية، ويعاين آثارها العريقة الموغلة فى القدم.

أدى انتظام السفر وأمنه - كما ذكرنا - إلى نشاط السياحة، فكانت تفد إلى مصر البعوث الدبلوماسية والسفراء والعسكريون وراغبو النزهة والتسلية وطالبو العلم والثقافة، وكان بمصر عدد من كبار الأطباء، والمصحات المشهورة وبيوت النقاهة، ناهيك عن دور اللهو والترفيه، وقد اشتهر معبد بطلميوس سوتر فى سيرابيس بقفط فى العالم القديم بطقوسه الماجنة بعد إدماج عبادة سيرابيس بعبادتى أوزيريس وأبيس. (العجل المقدس). فأصبح من ا لمعالم المحببة لدى السائحين.

كان سترابو الجغرافى اليونانى (٦٤ ق.م - ٢٢م) معاصرًا للمؤرخ ديودور الصقلى، وحدث أنه رافق الوالى الرومانى على مصر، إليوس جالوس سنة ٢٥ق.م فى رحلة إلى الوجه القبلى؛ لذلك عندما ألف كتابه «الجغرافيا» حرص على جعله موسوعة حافلة بالمعلومات الواقعية عن العالم الرومانى فى زمنه، وكتب عن مصر قدرًا لا بأس به شغل الجانب الأكبر من الكتاب السابع عشر من الجغرافيا، وذكر فيه أسماء المدن المصرية ومواردها (أى الجانب الاقتصادى)، وأهم معالمها الأثرية والطبيعية، فقال عن منف: تجد فيها معبد السيرابيوم فى بقعة تتراكم فيها الرمال بفعل الرياح، وقد شاهدنا تحت الرمال الكثير من تماثيل أبى الهول بعضها غطاه الردم كلية وبعضها غطاه جزئيًا، «هذا الوصف هو الذى مكن مرييت بعد ألفى عام من إعادة الكشف عن السيرابيوم، وأعجب الجغرافى ومرافقوه بتماثيل معبد الرمسيوم فى زيارتهم لطيبة، وعاينوا نقوش المسلات فى الأقصر والكرنك (واحدة منها - الآن - بميدان الكونكورد بباريس)، وذكر سترابو أنه «فوق المنونيوم (أى الرمسيوم) توجد مقابر الملوك، المنحوتة فى الصخر وعددها حوالى ٤٠ مقبرة رائعة البناء وجديرة بالمشاهدة» هذه الإشارة من أقدم ما كتب عن وادى الملوك، الذى لم يسلم من السلب والنهب منذ دفن فيه الفراعنة، وفى آخر كلامه عن مصر يلقى سترابو اللوم على هيرودوت وأقرانه «الذين يقولون الكثير المحتوى على فضول القول والهذر لمجرد التشويق»، وهكذا لم يكن سترابو أول من زار مصر فوجد فيها الحقيقة تخالف التاريخ (أى ما كتبه المؤرخون).

كانت رحلة السائح الرومانى - عادة - تبدأ بالأهرام فى الجيزة، وكانت الكسوة الهرمية فى ذلك الوقت سليمة أغرت الكثير منهم بتسجيل أسمائهم عليها فأتلفوها. وأقدم هذه التوقيعات يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٧٥م ولعل هناك ما هو أقدم إلا أنه نزع مع ما أزيل من الكسوة إذ يذكر الرحالة «ردولف فون سوخم» - قس زار الهرم سنة ١٣٣٦م - أن نقوشًا أقدم عهدًا من وقت زيارته كانت موجودة على كسوة الأهرام.

فى ذلك الوقت كان أبو الهول الشامخ رابضًا فى مكانه بجوار الأهرام مردومًا بالرمال؛ حيث زاره بلينى Pliny الأكبر - أول من وصف الأهرام من العلماء الكبار، ومن الآثار التى كانت تجذب السائحين معبد أبيس بمنف، ومعبد أمنمحات الثالث (١٨٥٠ - ١٨٠٠ ق.م) الذى اشتهر باسم اللابيرانت (على اسم شبيهه بكريت)، ويذكر هيرودوت عن اللابيرانت أنه: «كان يحتوى على ١٢ بهوًا كلها مسقوفة... وله ممرات بين الحجرات، وممرات بين الأبهاء: «وقد دهشت عندما مررت من الأبهاء إلى الحجرات، ثم من الحجرات إلى صفوف الأساطين، ثم من هذه إلى أبهاء أخرى جديدة، «وكان هيرودوت يعتقد أن اللابيرانت أعظم من الأهرام، وأن آثار القصر فاقت الجميع فى الروعة. وكانت التماسيح المقدسة تربى فى البحيرة المجاورة للقصر، ويتعهدها الكهنة لجذب السائحين، وقد تلاشى - الآن - اللابيرانت تمامًا. وعندما نجح بترى عندما قام بحفائره سنة ١٨٨٩ فى تحديد موقعه لم يكن قد بقى منه سوى بعض الأعمدة والأعتاب والفتات. فقد استخدم القرويون أطلال القصر فى صنع الجير لعدة قرون.

كان السائح بعد اللابيرانت يصعد فى النيل حتى الأقصر حيث يزور الكرنك ويشاهد بهو الأساطين الضخم به، ومن ثم يتوجه إلى وادى الملوك المنعزل حيث مقابر فراعنة مصر العظام، وعند وصول الرومان كانت معظم مقابر وادى الملوك قد فتحت ونهبت، وقد تسلل بعض السائحين إلى حجرات دفن الفراعنة المنحوتة فى الصخور - حبًا فى المغامرة، وقد سجل بعض هؤلاء أسماءهم على جدرانها فى ضوء الشموع فانتهجوها وأتلفوها، حتى أن ديودور الصقلى أشار إلى أنه لم

يجد «سوى ما نتج عن السلب والتخريب»، فى إشارة واضحة إلى عمليات السطو السابقة على هذه المقابر.

كانت وجهة السائح بعد ذلك تمثالى ممنون العملاقين فى أرض الوادى بجوار وادى الملوك، والتمثالان جالسان، وقد شبههما اليونانيون بملك أثيوبيا الأسطورى ـ ابن ربة الفَجْر ـ الذى أعان أهل طروادة على أخيلوس، فأطلقوا عليها اسمًا من الميثولوجيا كما فعلوا بالنسبة للأبيرانت، وهى مسميات لا علاقة بينها وبين آلهة مصر وفراعنتها ـ والتمثالان فى الحقيقة يصوران الملك أمنحتب الثالث حيث أقيما أمام معبده الجنازى الكبير، فزال المعبد من الوجود ـ على عهد الرومان ـ وبقى التمثالان، وظلت عوامل التعرية تؤثر عليهما حتى أتى زلزال مدمر سنة ٢٧ ق.م فخربهما تخريبًا شديدًا، ورغم ذلك فقد ظل تمثال ممنون الشمالى يصدر أصواتًا غامضة كل صباح، بصورة كانت تجذب السائحين ليروا التمثال «وهو يتكلم» ولكن استرابو استخف بهذا الأمر وأرجعه إلى ألاعيب الكهنة، وربما كان الصوت الصادر من التمثال فيما يشبه النواح فى حقيقته ظاهرة طبيعية سببها تمدد الحجارة بالحرارة فى الصباح، ولما زار الإمبراطور هادريان هذا التمثال ظل صامتًا فى اليوم الأول لكنه «تكلم» أمام الإمبراطور والإمبراطورة فى اليوم الثانى، كانت هذه الزيارة سنة ١٣٠م وخلدتها شاعرة الإمبراطور فنقشت على التمثال شعرًا فى مديح الإمبراطور مع ممنون، وفى سنة ٢٠٢م أبى التمثال أن يتكلم أمام الإمبراطور سبتميوس سفيرس، وكى ينال رضا التمثال أمر بترميم رأسه ووسطه، فكانت النتيجة أن سكت التمثال عن الكلام إلى الأبد.

لا يمكننا تحديد ما أتلفه الرومان من آثار مصر، فليس هناك ما يدل على وجود سوق رائجة لتجارة الآثار فى ذلك الوقت، وليس هناك ما يثبت اعتقادهم بمزايا المومياوات الطبية، أما ما استهوى الرومان حقًا فهو المسلات الجرانيتية برشاقتها ونقوشها الهيروغليفية. فالمسلتان اللتان أطلق عليهما اسم سترابو ما هما إلا مسلتان من مسلات عدة استولى عليها الرومان، فقد كان قسطنطين الأكبر (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) مثلاً أكبر مغتصب للمسلات فى عصره، ومن المعروف أنه

استولى على مسلة للملك تحتمس الثالث كانت فى طيبة فنقلها إلى الإسكندرية، لكن نقلها إلى القسطنطينية تعطل حتى وفاته، ثم نقلت بعد ذلك إلى هناك وأقيمت بجوار مسجد أياصوفيا الحالى فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٠م، والمسلة مازالت هناك حتى اليوم، ونقلت مسلة أخرى إلى روما ونصبت فى حلبة سيرك الإمبراطور ماكسيموس بروما ولكنها سقطت ثم أعيد نصبها مرة أخرى فى عهد البابا سيكستوس الخامس سنة ١٥٨٧م.

وحاول الرومان أن يقلدوا المسلات لكن التقليد جاء ساذجًا لا قيمة له، وحاول الرومان تصور ما ترمز إليه المسلات، فكان رأى بلينى الأكبر (٢٣ ـ ٧٩م) أنها ترمز لأشعة الشمس، وأن نقوشها الهيروغليفية ملخص «العلم الطبيعى كما يراه حكماء مصر»، ومن المفيد أن نذكر أن بلينى كان من علماء الطبيعة الأفذاذ فى عصره، لكن بلينى لم تستهوه الأهرام ورأى فيها «إسراف زائد، واستعراض غبى للثروة قام به الفراعنة» وتوجد فى كامبوس مارتيوس مسلة ثالثة، حاول القيصر أكتافيوس أن يستخدمها كمزولة: «فعبّد طريقًا طويلاً يتناسب مع ارتفاع المسلة، ومع طول أطول ظل للمسلة فى أقصر أيام السنة، وزود الطريق بحبال برونزية لقياس الظل يوميًا حتى يبلغ أقصر طول له، وبعدها يأخذ فى الامتداد مرة أخرى»، وقد فشل المشروع لأن نتائجه ـ حسب قول بلينى ـ «لم تتطابق مع القياسات التى سجلت لمدة ٣٠ سنة مع التقويم (الحقيقى)».

اهتم الرومان منذ دخولهم مصر اهتمامًا حقيقيًا بفلسفتها وحضارتها العريقة، لكن ذلك لم يمنع الإمبراطور هادريان، ومن جاراه من عظماء الرومان، من شراء آثار مصر لتجميل حدائقهم فى مجاورة لآثار الفن الإغريقى، أما فى طيبة فقد استمر لصوص المقابر فى السلب والنهب والتخريب بدون وازع ولا رادع، وكم من سائح رومانى أثارت أشجانه ما كان يقرأ على أحد معابد فيلة عبارة تقول: «كل من يصلى لإيزيس تأتيه السعادة والغنى وينعم بالعمر الطويل».

٣ـ عندما أصبحت المومياوات تجارة

بعدما استولى قسطنطين الأكبر على مسلتى طيبة بنحو خمسين سنة زارت مصر راهبة غالية تدعى ليدى ايثريا، زارت الإسكندرية، ثم الأهرام وعاينت قلايا الرهبان، ثم توجهت إلى طيبة حيث شاهدت تمثالى ممنون فقالت: لم يبق بالمكان ـ الآن ـ سوى صخرة واحدة نحت عليها تمثالان لرجلين مقدسين ـ ربما كانا موسى وهارون ـ ولعل من نحتهما بنو إسرائيل تخليداً لهما»، وواضح أنها كانت تحت تأثير التوراة وهى تقول هذا الكلام.

كان الزمن الذى زارت فيه الليدى ايثريا مصر زمن اضطرابات، بدأ فيه تدهور السلطة الرومانية بظهور المسيحية مما أثر على الأحوال الاقتصادية والدينية، وقد دخلت المسيحية مصر فى القرن الأول الميلادى، على يدى القديس مرقص كما يقال، فانتشرت بسرعة وكثر أتباعها. ولم يستسغ المسيحيون مبدأ تأليه الأباطرة فرفضوه بشدة وقاوموا عبادة الإمبراطور بلا هوادة، وكان هذا سبب اضطهاد المسيحيين فى مصر واستشهاد الكثيرين منهم، وحينما أقر قسطنطين الأكبر المسيحية كإحدى العبادات الرسمية أخذت الكنيسة السكندرية فى توسيع نفوذها فى القطر المصرى كله.

كانت المسيحية فى بادئ أمرها محصورة فى المدن المصرية، فلما ترجم الكتاب المقدس إلى القبطية فى القرن الرابع الميلادى انتشرت المسيحية فى

القطر كله بواسطة الرهبان، وربما كان اعتناق عامة الشعب للمسيحية فى حقيقته حركة احتجاج صامتة على سوء أحوالهم الاقتصادية فى مقابل الترف الذى يحظى به سكان المدن.

رفض اقباط مصر كل العبادات القديمة وطقوسها واعتبروها من الهرطقة، وشد من أزرهم فى موقفهم هذا ما قام به الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى من إغلاق لمعبد إيزيس بفيلة ونقل تماثيله إلى القسطنطينية، بذلك أصبح مجمع الآلهة الفرعونية غير قانونى، وبناء على ذلك اعتبرت نقوش المعابد من الشرور التى تجر إلى الخطيئة، مما أدى إلى التخريب المتعمد لآثار مصر انتصارًا للديانة الجديدة، وفى سنة ٣٩٧م جرى تخريب متعمد للسيرابيوم بمنف على يدى البطريق (القائد) المتعصب سيريل وجنوده، ثم أهمل حتى غطته الرمال، فلم ير النور مرة أخرى إلا فى القرن التاسع عشر.

وهكذا أصبحت آثار مصر تنعى من بناها، والأدهى أن أحجارها الجاهزة استخدمت فى أعمال البناء باعتبارها أقل كلفة من تقطيع أحجار جديدة من المحاجر البعيدة - وهى عملية قديمة الجذور منذ العهود الفرعونية، أما الآثار التى لم يمسسها البشر فقد تكفلت الطبيعة وعوامل التعرية بدفنها أو إتلافها، ومما زاد الأمر سوءًا أن الفلاحين محافظة منهم على كل شبر من الأرض الزراعية استخدموا المعابد - التى لم تردم - مثل معبد إدفو (معبد حورس) فى السكنى وبنوا فوقه أكواخًا، واستمر الوضع كذلك قرونًا عديدة، والفلاحون يجهلون على أى كنز يبنون، وهكذا كانت زيارة الراهبة ايثريا إيذانًا بدخول مصر فى عصر سبات عميق انقطعت فيه صلاتها بأوروبا زمنًا طويلاً.

بعد ذلك جاء العرب وهزموا البيزنطيين، ولما دخل القائد العربى عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية وصفها وصفًا شاعريًا بأنها مدينة بها «أربعة آلاف حمام، وأربعة آلاف قصر، أربعمائة مسرح، وألف ومائتى بائع خضار.. وأربعين ألف يهودى»، علمًا بأن المدينة كانت قد أصبحت مجرد ظل للإسكندرية التى كانت فى عنفوانها قلعة اقتصادية، ومنارة للعلم والمعرفة، وكانت مكتبتها الشهيرة قد زالت فى الحروب الأهلية التى سبقت الفتح العربى، وانتشر الدين الإسلامى

تدريجيًا فى مصر بعد الفتح العربى عن طريق من استوطنها من الصحابة والعلماء، والقبائل العربية التى استقرت بها واختلطت بالأهالى.

اندهش الفاتحون العرب عندما شاهدوا المعابد والأهرام، ولكنهم لم يأبهوا كثيرًا بثقافة مصر القديمة وتاريخها، ويبدو أن السبب فى ذلك أنها مغايرة لما ألفوه، كما أن قبط مصر بعد أن هجروا لغتهم القديمة ونسوا كتابة الهيروغليفية لم يفلحوا فى إثارة فضول الفاتحين واهتمامهم بآثار مصر؛ لذلك ادعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المردة والشياطين فى الماضى السحيق، وظن بعضهم أن الأهرام صوامع اختزن فيها يوسف الصديق الحبوب والغلال فى سنوات الرخاء تحوطًا من سنوات القحط التى حلت فيما بعد (حسب القصة المشهورة)(*)، والنظرية ليست جديدة فقد سبق أن نادى بها يوليوس هورونيوس فى القرن الخامس الميلادى، وشطح الخيال بالبعض فظنها تحوى كنوز الفراعين القدامى، ويقول الجغرافى العربى الكبير المسعودى إن الهرم الأكبر داخله «تمثال شيخ كبير من الحجر الأخضر، جالسًا على أريكة، متدثرًا بعباءة، «وأبدى المسعودى أسفه؛ لأن التمثال يستحيل تحريكه، على أى حال تسلل العرب بعد ذلك إلى الهرم بحثًا عن الكنز المزعوم، ثم استخدموا المعابد والأهرام كمحاجر باعتبارها موردًا سهلاً للحجارة المطلوبة للبناء، وحطموا بعض المعابد للبحث عن كنوز مزعومة.

وفى بناء الفسطاط استخدموا كسوة الأهرام وحجارة المعابد والمقابر القريبة، لتأسيس العاصمة الجديدة.

كان صيد الكنوز فى القرن الخامس عشر عملاً مشروعًا خاضعًا للضريبة، واستخدمت وسائل سحرية للكشف عن الكنوز، لو أفلحت لأغنت عن طرق التنقيب الحديثة، وصنفت فى ذلك كتب ذكر فى أحدها أن كنوز إحدى الجبانات فى هليوبوليس «تتكشف» للباحث إذا استخدم «البخور» فى مكان معين منها.

لكن حكماء الرجال لم ينطل عليهم ذلك. فنجد عالمًا جليلاً مثل ابن خلدون (القرن الخامس عشر) يتعجب من غفلة العامة وظنهم بأن من يسعى لاستخدام السحر لإخفاء الكنوز سوف يترك دليلاً يكشف إمكانية إبطال ذلك السحر. لكن

السطو لم يتوقف حتى القرن التاسع عشر، ولم يتورع صائدو الكنوز حتى عن القتل ونهب بعضهم بعضًا، رغم فشلهم المتكرر. والمدهش أن مدير دار الآثار المصرية سنة ١٩٠٧ نشر أحد هذه الكتيبات (السحرية) «اسمه كتاب الدر المكمون» وبيع بسعر زهيد ساعد على انتشار مثل هذه الأباطيل(*).

بعد انتشار الإسلام فى مصر لم يجد المسيحيون الأجانب ترحيبًا فيها، ويقول القس برنار الحكيم سنة ١٨٠٧ بأنه اضطر هو ومن رافقه إلى رشوة قبطان السفينة ليقبل إنزالهم بالإسكندرية، وأنهم ما أن نزلوا حتى تم ترحيلهم إلى القاهرة ووضعهم المتولى (المحافظ) فى المطبق (السجن) ويستطرد فيقول: «وألهمنا الله بعد ستة أيام أن نرشوه (ليطلقنا) فتقاضى ثلاثمائة دينار من كل منا»، وشاهد القس صوامع غلال يوسف (الأهرام) ثم رحل مباشرة إلى أورشليم (القدس)، دون أن يرى آثارًا أخرى، هذا المرور العابر كان السمة الغالبة لحجاج بيت المقدس المتأثرين بنصوص التوراة، لكن العرب كانوا أكثر تعقلاً ونضجًا، فعندما قدم الطبيب العربى المعروف عبداللطيف البغدادى إلى مصر سنة ١٢٠٠، وزار الهرم الأكبر وصعده حتى ثلثيه، شاهد بعض الباحثين عن الكنوز مع تعازيمهم وكتيباتهم السحرية، ووجد أن أكثر الممرات ارتيادًا تملؤها الخفافيش وتنبعث منها روائح كريهة، ويقول طبيبنا إنه أصيب بالغثيان لكنه أعجب بالنقوش الهيروغليفية على كسوة أبى الهول الجرانيتية فقال: «هذا التمثال بديع جدًا، وعلى فمه سيماء النبل والترفع، وتدل ابتسامته على السمو»، وتجول طبيبنا فى منف ووصف أطلالها الرومانية: «يسير الرجل فيها نصف يوم فى كل إتجاه حتى يحيط علمًا بهذه الأطلال»، وكل ما وصفه البغدادى زال من الوجود بعده بستمائة سنة، ولم يبق منه سوى الحطام.

لم يكن المثقفون الأوربيون منذ خمسمائة سنة يعرفون عن مصر إلا اليسير الذى يسمعونه من جنود الحملات الصليبية، أو الذى يقرأونه فى كتب الجوالين. وراج فى ذلك الوقت كتاب يسمى «رحلة وعمل الفارس السير جون ماندفيل» وهو مؤلف لإرشاد الحجاج إلى بيت المقدس، وقول المؤلف إن كتابه يضم خبرته الشخصية، ولكنه حافل بالخرافات والحكايات الشعبية التى جمعها من مصادر

كلاسيكية مختلفة، مختلطة بروايات مشكوك فيها لبعض السائحين، والحقيقة أن هذا الفارس لم يكن شخصية حقيقية بل من اختلاق جين دوترموس J.d'Autermeuse منتصف الكتاب وكل ما فيه مختلق، ورغم ذلك يعد من المراجع الهامة التى لا يشك فى صحتها ونقلت منه نصوص كثيرة منها قوله عن الأهرام: يقول البعض إنها قبور بعض الملوك العظام، ويقول غيرهم - وهو غير صحيح - إنها كانت صوامع غلال يوسف (الصديق)».

زار مصر فى القرن السادس عشر الكاتب العظيم «ليون الأفريقى» - وهو كاثوليكى مثقف - وذلك أثناء رحلته إلى شمال أفريقيا، وسافر «ليون» فى النيل من الإسكندرية إلى أسوان حتى بلغ الشلال الأول، وشاهد فى رحلته مظاهر الحياة المصرية والآثار على ضفاف النيل، لكن مشاهداته كانت عابرة ليس فيها عمق، كما ألف كتابه «تاريخ ووصف أفريقيا» الذى لا تقل شهرته عن شهرة كتاب ماندفيل، جاء وصفه لآثار مصر سطحيًا باهتًا. فكان وصفه للأهرام ساذجًا، ووصف منف بأنها «مدينة يبدو أنها كانت كبيرة جدًا فى الأيام الخالية»، وفى منفلوط يقول إن هناك: «بجوار النيل مبنى حكومى يبدو أنه يمثل معبدًا قديمًا، يعثر فيه المواطنون - أحيانًا - على عملات من الذهب والفضة والرصاص، على أحد وجهيها نقوش هيروغليفية وعلى الوجه الآخر صورة لأحد الملوك القدماء».

كانت الرحلة إلى مصر فى ذلك الوقت شاقة، تستغرق أسابيع عبر المتوسط بالسفن، وفى رحلة من هذه الرحلات شكا الأخ فيكيلس فابرى من تدنيس يوم الأحد (المقدس) بسكر المسافرين وصخبهم، ومن قذارة البحارة، والعمل الكريه الذى يعملونه «التفلية من القمل».

اكتشف البرتغاليون خط رأس الرجاء الصالح الملاحى سنة ١٥١٧ فتمكنوا من احتكار تجارة التوابل، وفى السنة نفسها احتل العثمانيون مصر وأبرم السلطان سليم الأول معاهدتين بينه وبين فرنسا وأسبانيا تعهد فيهما بحماية غير المسلمين فى إمبراطوريته، بذلك أصبح السفر إلى مصر أكثر أمانًا، وكانت النتيجة انتظام السياحة وتدفق الحجاج والتجار والدبلوماسيين إلى مصر، وكان معظم هؤلاء يتطلعون إلى التجارة؛ لذلك لم يهتموا بتسجيل أى ملاحظات علمية،

لكن البعض مثل عالم النبات الفرنسى الدكتور بيير بيلون سنة ١٥٥٣ حرص على زيارة الأهرام وأبى الهول ودخل هرم خوفو.

كان أهم ما استرعى انتباه الأوروبيين فى مصر المومياوات، إذ كانت الكتابة عن تحنيط الجثث منتشرة فى الأدبيات الكلاسيكية، فى الوقت نفسه كان الأهالى فى مصر قد اعتادوا على سرقتها من التوابيت لاستخدامها فى العلاج، وفى القرن السادس عشر كانت المومياوات ومستحضراتها تستخدم ضمن العقاقير الطبية، وأصل كلمة مومياء فارسية مشتقة من ماميا أى الزفت، وكان القار (القطران) الشرقى مشهورًا فى علاج الجروح والكدمات والغثيان والكسور وغيرها وهو فى مظهره يشبه ذلك الذى كان يستخدمه المصريون القدماء فى تحنيط الجثث، وعند شحة القطران كانوا يستخدمون ما يجدون منه داخل الجثث، ثم وجدوا أنه من الأسهل استخدام لحم الجثث نفسها للغرض نفسه.

كان استخدام المومياوات فى الطب معروفًا موقرًا منذ القدم، ثم استخدمه العرب فى العلاج منذ القرن الحادى عشر، ويعدد طبيبنا البغدادى - المشار إليه آنفًا - فوائد المومياوات: «المومياء (أى القطران) فى تجاويف الجثث لا يختلف عن المومياء (أى القار) المعدنى، ويمكن اتخاذه بديلاً عنه»؛ لذلك كانت تجارة المومياوات رائجة، وتصدر إما كمومياوات كاملة (جثث محنطة) أو فتاتها بعد تعبئته ليباع فى أوروبا، وكان الأهالى ينتهكون المقابر القديمة للحصول عليها. ويقول عبداللطيف البغدادى سنة ١٢٠٣: «كان سعرها زهيدًا كل ثلاثة رؤوس محشوة بمادة التحنيط بدرهم واحد... وهذا القطران فى سواد الزفت، وإذا تعرض للشمس أو الحرارة فإنه يذوب».

ويقول مؤرخ عربى آخر عن عملية السطو على المومياوات:

«قبض على من جمع كثيرًا من الجثث، ومثلوا أمام العمدة، وضربوا حتى اعترفوا بأنهم تعودوا الاستيلاء على الجثث من المقابر ثم غليها فى الماء على نار حامية حتى يقطع لحمها. بعدها يجمعون الزيت الطافى (القطران) على سطح الماء ويبيعوه للفرنجة الذين كانوا يدفعون ٢٥ قطعة ذهبية لكل مائة وزنة منه».

اشتغل الكثير من التجار الأجانب فى تجارة المومياوات لأنها كانت مربحة، ولقد زار الرحالة الألمانى جوهان هلفريخ J. Helfrich مصر سنة ١٥٦٥ بغرض الحصول على المومياوات لدرجة أنه نبش عدة قبور لكنه فشل، لكن جون شانديش وكيل الشركة التركية بالإسكندرية (١٥٨٥ ـ ١٥٨٦) كان أكثر توفيقًا، فرغم أن عمله الأساسى يتعلق بالتجارة إلا أنه كان يقضى جانبًا كبيرًا من وقته فى مواضع المومياوات بمنف، ثم انغمس فى تجارة المومياوات فاشترى بحوالى ٦٠٠ جنيه من المنتجات المحنطة ـ لحومًا وجثثًا ـ لتصديرها إلى إنجلترا، ولجأ إلى الرشوة لتسهيل تهريبها، وغادر مصر ومعه بضاعة «كثير من الرءوس والأيدى والأذرع والأقدام للمقايضة»، وكان سعر رطل المومياء فى اسكتلندا سنة ١٦١٢ حوالى ثمانية شلنات، مما حقق لساندرز ربحًا جزيلاً.

بحث الطبيب الفرنسى «جى دالافونتين» ـ من مواطنى نافار ـ موضوع تجارة المومياوات سنة ١٥٦٤، فوجد الغش فاشيًا فيها وكثيرًا ما كانت الجثث الحديثة تباع باعتبارها مومياوات، ولم يكن التجار يتحرون مصدر المومياوات، ويستغربون إقبال الأوروبيين على لحوم المومياوات طلبًا للعلاج، وكان هناك اعتقاد أن المومياء عقار مضمون لدرجة أن فرنسيس الأول ملك فرنسا كان يحرص باستمرار على حمل لفافة صغيرة من المومياء للطوارئ، لكن هناك من استهجن التكالب على المومياء التى هجاها أحد الكُتَّاب فقال: «هذا النوع الحقير من الدواء لا يفيد المرضى، وتنتج عنه بعض أعراض ضارة مثل خفقان القلب وتقلص المعدة والتقيؤ واصطكاك الأسنان».

حاولت الحكومة المصرية الحد من تجارة المومياء ففرضت عليها ضريبة باهظة، وحظرت تصديرها للخارج. وكانت مراكب شحنها تتعرض للعواصف والتقلبات البحرية، وكان البحارة البسطاء يعزون ذلك لهذه «البضاعة»، ورغم ذلك استمرت تجارة المومياء رائجة، وظلت تستخدم فى الطب حتى القرن التاسع عشر، ويقول الفيلسوف سير توماس براون: «أصبحت المومياء سلعة تشفى الجروح، وصار الفرعون يباع للحصول على البلسم»، وأما مارك توين فيقول بأسلوبه الهزلى المعروف: «تستخدم القطارات (المصرية) مومياوات عمرها ثلاثة

آلاف سنة كوقود يشترى بالطن وربما بمحتويات المقابر كاملة، وقد يصيح سائق القطار: ... «رفات السوقة لا تحترق ولا تساوى مليمًا. ابغ لنا ملكًا»، وحتى فى سبعينيات القرن العشرين (الحالى) مازالت هناك سوق منظمة للمومياء وإن كانت محدودة، وهى تستعمل - الآن - فى السحر والشعوذة. وبعض صيدليات نيويورك يقال إنها تبيع مسحوق ا لمومياء المصرى الأصلى بسعر أربعين دولارًا للأوقية.

هوامش

(*) كان اهتمام العرب بعلم التاريخ عظيمًا، ويسبق حتى ظهور الإسلام، وقد اهتم المؤرخون العرب بدراسة تاريخ الأمم القديمة، بل ودياناتها وعاداتها وتقاليدها، وصنفوا فى ذلك الكثير من الكتب، ولم يكن اهتمامهم بمعرفة تاريخ مصر أقل من غيره، ويدل على ذلك اهتمام الخليفة المأمون نفسه، كما يروى المؤرخون، بالنقوش الهيروغليفية، مما دعاه للبحث والتنقيب عمن يعرف تلك الكتابة. ولكن الكتابة الهيروغليفية كانت قد اندثرت بالفعل قبل الفتح العربى بزمن طويل.
وقد كف الناس عن محاولة تعلمها خوفًا من الاتهام بالوثنية. ومن ثم، فإن نكوص المؤرخين العرب عن دراسة الآثار القديمة، لم يكن بدافع عدم الاهتمام، فهم اهتموا، كما فعل المقريزى مثلاً، بوصف الكثير منها رتسجيلها وتدوين ما توصلوا لجمعه من معلومات عنها، ولكنه كان بدافع العجز عن قراءة الكتابة المصرية القديمة، التى لم يكشف عن سرها إلا منذ زمن قريب نسبيًا (المحرر).

(*) يشير الكاتب إلى المرحوم أحمد كمال باشا الذى عنى بطبع هذا الكتاب. ومن المؤسف حقًا أن الكاتب لم يفطن إلى ما فطن إليه ذلك العالم المصرى الجليل من أهمية تلك الكتب كمصادر علمية لدراسة الآثار، فهى رغم أنها مليئة بالخرافات، إلا أن من كتبوها وصفوا آثارًا حقيقية شاهدوها، وحددوا موقعها، ومنها الكثير قد زال اليوم، ولذا يجب الاهتمام بدراسة تلك الكتب من الناحية الطوبوغرافية، وقد تثبت بالفعل أنها مصدر هام لتحديد مواقع تلك الآثار القديمة الإسلامية والقبطية والفرعونية (المحرر).

٤ـ كل يسعى وراء مجموعة أثرية

«حيث أن أجمل الآثار القديمة قد صانت نفسها من عوادى الزمن قرونًا عديدة، ليتسنى لنيافتكم اختيار ما تشاءون منها لتزيين مكاتبكم أو الحفظ فى خزائن نفائسكم، أتشرف بإخطاركم أننى كى أوفر لها ما تستحق من الحماية والصيانة.. فقد وزعت منشورًا فى المشرق على كل القنصليات الفرنسية ينبه إلى ضرورة اتخاذ ما يلزم لتحقيق هذا الهدف النبيل».

هذا نص الرسالة الموجهة من السفير دى هوساى بالقاهرة سنة ١٦٣٨ إلى الكردينال «ريشيليو» بفرنسا، وتظهر فيها الروح السائدة فى تلك الأيام بين ملوك فرنسا ونبلائها، ومدى تلهفهم إلى اقتناء كل ما هو طريف وغريب، وهو اتجاه ظهر حديثًا فى عصر النهضة، عندما عاد المثقفون إلى الاهتمام بجمع المخطوطات القديمة للحصول على المعرفة والثقافة من منابعها الأصلية، مما دفع الكتاب إلى معالجة المسائل والمشاكل بأسلوب عصرى.

كانت الآثار المصرية نادرة فى أوروبا فى ذلك الوقت وتكاد تقتصر على مسلتى القسطنطينية وروما، وكان لدى الأوربيين إلمام لا بأس به بعادات الدفن لدى المصريين القدامى، كنتيجة لنشاط تجارة المومياوات فى أوروبا فى ذلك الوقت، وفى ١٦١٥، عندما عاد الرحالة الشهير بترو ديلا فالى من العراق كان فى حوزته أول ألواح مسمارية تعرفها أوروبا، بالإضافة إلى مومياوات سليمة اشتراها من

سقارة، وما لبثت هذه التحف وأمثالها أن راج سوقها وبدأت تعرض فى متاحف الأفراد والملوك.

واتخذت عملية اقتناء الآثار شكلاً أكثر جدية فى القرن السادس عشر نتيجة لاهتمام بعض الكرادلة بإيطاليا والأمير كوسيمى من آل ميديتشى بجمع التحف وكان بينها القليل من الآثار المصرية، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر شاعت ظاهرة الرحلات الطويلة إلى بلدان البحر المتوسط بين أوساط المثقفين، وهؤلاء كانوا يعودون ومعهم تماثيل ونقوش من معابد اليونان وروما ليزينوا بها حدائقهم أو ليعرضوها فى متاحفهم الخاصة، وفى البداية لم يهتم هؤلاء بتصنيف مقتنياتهم على أسس علمية، فكانوا يكدسونها بلا نظام معين، لذلك حوت خزائنهم خليطًا عجيبًا من العملات والمومياوات وفراء الرءوس الهندية والسلال والفئوس البولينيزية والبرديات... وغيرها.

وكانت بعض المجموعات غنية بالتماثيل الأجنبية، ولم يبخل أصحابها على الجمهور بمشاهدتها، ومن ثم راجت تجارة الآثار وأصبح لها تجارها وعملاؤها، وكالعادة، كان هناك من يحط من قدر مثل هذه الآثار، مثل المستكشف الإسكتلندى بروس، فعندما زار القاهرة سنة ١٧٦٨ يبدو أنها لم تعجبه فقال: «لم أكره مكانًا أكثر منها.. إن فرص الثقافة والاستمتاع فيها أدنى كثيرًا من غيرها، وآثارها غير مطابقة لأوصافها»، لكن أثرياء السائحين المتطلعين كان لهم رأى مخالف»، وما أن انقضى القرن السادس عشر حتى بدأ هؤلاء يكونون الرعيل الأول من الأثريين، وأخذوا يسيحون فى النيل سعيًا وراء الثقافة والمعرفة ودراسة الآثار، لا يشغلهم عنها شاغل.

فى عهد الاحتلال العثمانى ازدهر النشاط السياسى فى مصر، وكان بها عدد غفير من الدبلوماسيين بين مقيم وعابر، وكلهم لديه من ا لوقت والفراغ ما يمكنه من ترتيب رحلات فى القاهرة إلى الأهرام وسقارة ثم ارتياد أسواق القاهرة الشعبية، حيث تعرض المومياوات للفرجة أو البيع، وكان تجار العاديات يتكفلون ببيع التحف والآثار لهؤلاء الزوار الأجانب، ومن هذه الآثار التمائم والجعارين والبرديات حتى المومياوات الكاملة، وكان الزوار يقبلون على الشراء بنهم للحصول

على هذه التحف، فمهما كان الثمن فقد كان يسهل تصريفها فى أوروبا وتحقيق مكاسب كبيرة من ورائها.

أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر كان الملوك والنبلاء الفرنسيون من أكثر أهل أوروبا اهتمامًا بجمع الآثار، فكانوا أول من أرسل البعثات المتخصصة إلى بلاد البحر المتوسط للبحث عن العملات والمخطوطات وغيرها من الآثار،وكان اهتمامهم شديدًا بالتفاصيل وأول مبادئ البحوث الأثرية، من ذلك أن الأب «فانسلب» - من أتباع لويس الرابع عشر - تلقى من هذا العاهل المستتير تعليمات بتحقيق هدف محدد: «الحصول على أكبر عدد من المخطوطات «الجيدة»، والعملات القديمة (الأثرية) للحفظ فى متاحفنا». كما طلب منه «وصف سكان مصر و"شرح" طريق الدفن عند كل فصيل منهم».

كانت رحلة الأب فانسلب حافلة بالأحداث، ومن الطريف أنه كان يحمل معه برميلاً من النبيذ ويحرص على حراسته، وفى البدء حاول قياس الهرم مستخدمًا أسلاكًا طويلة لكن الرمال أعاقته، وفى سقارة هبط فى بعض القبور الجماعية وحصل على بعض جثث الطيور المحنطة من أوانٍ فخارية، وأرسلها إلى باريس مع مخطوطات «عربية» بينها واحدة ترشد إلى «الأماكن السرية، لكل الكنوز المصرية»، ثم تنكر فى زى تركى مزمعًا السفر فى النيل من القاهرة إلى الصعيد، لكنه أحجم خوفًا على حياته، فقد كان الأتراك يعرفون أنه وكيل لويس الرابع عشر فارتابوا فى نواياه، وألغى فانسلب رحلته إلى أثيوبيا بدعوى عنف الأهالى وشدة الحكام الأتراك، بعد ذلك اختصر رحلته سنة ١٦٧٢ فقد كاد يفقد حياته أثناء زيارته لدير القديس مكاريوس القبطية فى الوجه البحرى، وكان السبب «رفيق سفره» برميل النبيذ، وتتلخص القصة فى أن أحد القضاة أرسل إليه رسولاً للحصول على بعض النبيذ، فأبى لأن «الخمر حرام على المسلمين»، وفى اليوم الثانى فوجئ بثلاثة من البلطجية يريدون نزع البرميل منه وإلقائه فى النيل، لكن فانسلب دافع عن «رفيقه» ببسالة، وأفلح خادمه النوبى «الرابط الجأش» فى إلقاء أحد البلطجية فى النيل، وسويت العملية فى النهاية بتغريمه عشرة قروش «لتعاطى المسكرات»، وطلب فانسلب من الكاشف أن يخصص له

حارسًا، لكن الكاشف رفض وعرض أن يرافقه بنفسه حتى ينتهى من زيارة الدير ويعود لداره، وتوجس فانسلب لما عرف عن الكاشف من ضلوع فى عمليات الاغتيال. ووافاه واحد من أتباع الكاشف سبق أن أكرمه فانسلب ليحذره ويطلب منه الفرار على الفور، «فطار النوم من عينيه» وتسلل من القرية هاربًا، وأخيرًا رشا ريس أحد المراكب فابتعد به عن المكان بينما كان الكاشف يحاول اللحاق به راكضًا يتميز من الغيظ فى ثلاثين من خيالته، وتخوف الرجل من مخدومه ملك فرنسا فاعتكف فى القسطنطينية ليكمل كتابه «تاريخ الكنيسة بالإسكندرية»، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٦٧٦؛ وتعرض للعقوبات لعدم قيامه بالرحلة التى كلف بها إلى أثيوبيا.

كان الدبلوماسيون المقيمون أكثر الجميع حماسًا فى جمع الآثار، فقد كانت أعباؤهم الوظيفية فى القاهرة والإسكندرية هينة، فكان جمع الآثار بالنسبة لهم هواية وعملاً إضافيًا مربحًا معًا، وكانت الوظيفة مع العلاقات الشخصية تسهل لهم كل عسير، ومن هؤلاء قنصل فرنسا فى مصر بنوا داماى (١٦٩٢ - ١٧٠٨)، الذى زار الأهرام ودخلها أكثر من أربعين مرة، وكان يراسل علماء فرنسا، ووضع مشروعًا لاستكشاف آثار مصر الفرعونية استرشدت به حملة نابليون بعد مائة سنة، وذكر فى تقريره: «قيل لى إنه يوجد فى الصعيد معابد مازالت سقوفها الزرقاء أو المموهة محتفظة بجمالها كأنها جديدة، وهناك تماثيل عملاقة، وأساطين لا حصر لها»، وأوصى برسم خريطة دقيقة لمصر، وبتكليف شخصيات تتميز بالحكمة وحب الاستطلاع والبراعة»، لاستكشاف وادى النيل على مهل - وهو ما عملته حملة نابليون بعد ذلك بمائة سنة.

وخلف داماى القنصل مير Maire وكان مثله فى اهتمامه بالآثار، كما اهتم بها بول لوكا P. Lucas ابن أحد الصياغ حضر فى بدء أمره لشراء مجوهرات وعملات وتحف، ثم أوكله لويس الرابع عشر كى: «يحاول فتح أى هرم ويحصى ما بداخله»، لكن لوكا بدلاً من ذلك اشترى طيورًا محنطة من سقارة ثم قام برحلة بطيئة إلى الوجه القبلى حيث أعجبته «القصور الواسعة، والمعابد العجيبة، والمسلات والأساطين الكثيرة التى مازالت قائمة».

ورد ذكر أسماء كثيرة من رواد السياحة الذين زاروا مصر فى الأدبيات الكلاسيكية، ممن وفدوا على مصر وزاروا القاهرة، حيث تفقدوا الأهرام وتسللوا داخلها حتى غرف الدفن، ومعظمهم تأذى من ارتفاع الحرارة ورائحة العطن داخل الهرم، فمنهم من أغشى عليه، ومنهم من انحشر فى ممرات ضيقة لبدانته مما أزعج رفاقه وأربكهم عند تخليصه، وكانوا يستعينون بالأدلاء لتسلق الأهرام من الخارج، وقد كانوا يزورون الصعيد فى جماعات مستخدمين «الدهبيات» - وهى مراكب كلاسيكية مريحة يمكنها الوصول إلى الشلال الأول، وربما أبعد، وكان المنفرد منهم يركب زورقًا عاديًا لعدم وجود وسائل برية فى ذلك الوقت (القرن الثامن عشر).

كانت أسواق القاهرة الشعبية ودكاكينها تعج بالسائحين ومكدسة بالبضائع من كل أنحاء العالم العربى والغربى والأفريقى، وهذه الدكاكين لها شهرة عريقة فى بيع الآثار والتحف والمجوهرات ذات الأصل الفرعونى، كذلك كانت المومياوات وما يتصل بها متوفرة بهذه الأسواق، وكان كل سائح يعود إلى بلده حاملاً تذكارًا مصريًا - جعرانًا أو تمثالاً صغيرًا أو تميمة مثلاً، أما جمع الآثار جديًا فكان نادرًا، مقصورًا على وكلاء الملوك والأغنياء القادرين، أما الطلب على المومياوات فكان كبيرًا لدرجة تكفى لشغل وقت القرويين بسقارة فى فتح المقابر القديمة، واستمر تحطيم الآثار للاستيلاء على الحجارة كما كان، مما حدا بالسائح البريطانى ريتشارد بوكوك الذى زار مصر سنة ١٧٣٧ إلى التعبير عن حسرته: «إنهم يحطمون كل يوم بقايا آثار مصر الجميلة، ورأيت بعينى أعمدة (أثرية) تقطع لتستخدم كأحجار رحا (طواحين)».

كانت معلومات الأوروبيين عن مصر القديمة فى القرن الثامن عشر ساذجة، تكاد تنحصر فى أن الفراعنة أعداء بنى إسرائيل، وكانت التوراة تحدثهم عن قصة خروج بنى إسرائيل بقيادة نبيهم موسى - ﷺ - فرارًا من فرعون، ثم أخذ سوق الآثار المصرية ينتعش تدريجيًا حتى أصبح سوقها رائجًا، وفى سنة ١٧٢٣، عرض توماس سرجنت «صندوقًا به آلهة مصرية، ورد من القاهرة حديثًا» فى اجتماع لجميعة الآثار بلندن، وشد انتباه الأعضاء «تمثال نحاسى لأوزيريس،

وآخر للإله حريوقراط، وصولجان، وتمثال فريد عار، وتمثال لإيزيس وابنها، وتمثال صغير لأحد الكهنة، وقطة، وجعران مجنح غريب الشكل ذو طلاء أزرق عليه كتابة هيروغليفية»، وزاد العرض من الإقبال على شراء الآثار فارتفعت أسعارها، ودخلت سوق شرائها فئات جديدة جعلتها أكثر رواجًا، وتفرغ عدد من هواة الآثار لجمعها ـ إما لامتلاكها وإما لبيعها، كذلك أخذت الدول تهتم بتطوير متاحفها القومية التى تعرض التراث الوطنى والأجنبى، ومن أعرق هذه المتاحف المتحف البريطانى الذى قرر البرلمان الإنجليزى إنشاءه سنة ١٧٥٦، ودعم الدكتور هانز سلون ـ الطبيب المعروف، وأحد مؤسسى المتحف ـ هذا المشروع بمجموعة كبيرة من القطع الأثرية كانت بحوزته؛ منها آثار مصرية: مصابيح وبرديات وبعض الأدوات وآثار أخرى.

وراود بعض السائحين فكرة التنقيب عن الآثار بأنفسهم، وحصلوا من السلطات التركية على تصاريح بنقل محتويات بعض المقابر، والبحث عن الآثار والتماثيل والنقوش بالحفر حول المعابد، ونجحت بعض هذه الأعمال وأدرت على أصحابها الكثير من الموميا‌وات والمتاع المقبرى الجميل، رغم المخاطر التى تعرضوا لها.

اعتقد العرب أن الأوروبيين يملكون وسائل سحرية ترشدهم إلى مخابئ الكنوز والجواهر الأثرية، وأنبأنا الرحالة الإنجليزى الكبير وليام جورج برونى أن مغربيًا ويونانيًا قد قتلا فى أحد المعابد بطيبة؛ لأن الأهالى ظنوا أن معهما تعاويذ سحرية ترشد إلى كنوز طيبة، فإذا انكشف كنز فقد كان الكل يهب مطالبًا بنصيبه: الحكومة والمحليات وجامعو التحف والتجار، ولما شرع نائب القنصل الفرنسى بالإسكندرية فى شحن ثلاثة تماثيل سنة ١٧٥١، جابه معارضة شديدة، وادعت السلطات أن لها فى ذلك حقوقًا، واضطر القنصل لحل المشكلة إلى استعمال «الحيلة والصبر والرشوة»، واتسع نطاق البحث عن الآثار عندما اعتاد الأهالى التعامل بالنقد، فتوسعوا فى انتهاك المعابد والمقابر، مفتقدين للحس التاريخى، بغية الحصول على الأموال من الأجانب الذين لم يكفوا بدورهم عن الضغط عليهم للحصول على الآثار.

من السائحين من كان هدفهم أكثر نبلاً، فمنهم من أولى اهتمامه التمتع بمشاهدة الآثار المصرية القديمة، دون الالتفات لأى شىء آخر، ومنهم من اهتم بنسخ النقوش واللوحات الجصية التى على جدران المعابد، وأمضى فى ذلك أوقاتًا طويلة، واهتم ملك الدانمارك المستنير كرستيان الخامس بتسجيل الآثار المصرية، وعهد إلى المهندس البحرى الفنان فردريك لويس نوردون برئاسة بعثة أرسلها لمصر لهذا الغرض، وحاولت البعثة التوغل حتى الشلال الثانى، لكنها اضطرت للعودة بعد وصولها للدر بالنوبة، وكان من مميزات نوردون الصبر وقوة الملاحظة؛ لذلك عندما عاد إلى وطنه وألف كتابه «سياحة» الذى طبع سنة ١٧٥٥، لاقى من الجمهور والمثقفين قبولاً شديدًا، والكتاب هو المحاولة الأولى فى أوروبا لعرض صور ومخططات عن آثار مصر القديمة اتسمت بالدقة والحيوية.

ومن مآثر نوردون اهتمامه بالأحوال الاجتماعية وحياة الناس اليومية فى مصر القديمة، وهى طفرة كبيرة بالنسبة لما كان يحدث من تكالب الباحثين على جمع الغرائب وتدريج الأساطير، وقد أعجب صاحبنا بالنقوش التى تصور موقعة قادش الشهيرة بمعبد الأقصر للملك رمسيس الثانى، كذلك أعجبته الصور الجدارية فى المقابر، إذ ساعد جو مصر الجاف على احتفاظها بمحتوياتها كل تلك المدة ونعى على العرب اقتصارهم على الاهتمام بالكنوز الأثرية والسحر: «يجب أن يسعد ويتمتع بمشاهدة الصروح القديمة وتأملها - دون لمس أو تحريك أى شىء - ولن أنسى ما حييت الجمهور الحاشد الذى جاء ليشاهدنا ونحن نتجول فى أسوان ليروا بأعينهم السحرة الماهرين يمارسون سحرهم الأسود»، ويستطرد لينصح السائحين: «تزى بزى تركى وألصق (مثلهم) شاربين كثيفين، وتجهم للأهالى وسوف تنجح»، كذلك يحذر السائح الواعى من العاهرات وإلا وهبنه تذكارًا «لا يزول بالوقت ولا بالمكان ولا بالزئبق»، والمعنى أنهن سيصيبونه بمرض سرى.

كانت صور نوردون جميلة ودقيقة لكنها لم تضف جديدًا لتاريخ مصر القديمة، واقتصرت المعلومات على ما فهموه من مشاهدة الآثار الباقية، أو قراءاتهم لهيرودوت وأقرانه وهى كتابات عفى عليها الزمن، وكان السبب

الحقيقى وراء ذلك استغلاق الكتابة الهيروغليفية على الدارسين حتى ذلك الوقت، وجرت محاولات لاستجلاء الحروف الهيروغليفية لكنها فشلت؛ لأن الدارسين أضلهم ما ذكره اليونانيين من أن اللغة الهيروغليفية لغة تصويرية تعبر عن مفاهيم غامضة.

روى عن الهيروغليفية روايات عجيبة، منها ما قاله أحد العلماء الأفذاذ وهو أن المصريين القدماء وصلوا إلى الصين وأنشأوا بها مستعمرة، ومن ثم فالهيروغليفية قد تطورت عن الحروف الصينية. أما أسقف جلوستر الحصيف وليام واربورتون فلاحظ أن الهيروغليفية كانت مستعملة فى المعاملات الجارية، فلا يمكن أن يكون لها مغزى سحرى؛ ونادى بأن الهيروغليفية تطورت عن رموز سحرية لتلائم الاستخدامات الجارية، ولكن الهيروغليفية ظلت مستعصية على ا لفهم، رغم تعدد زيارات العلماء لمواقع الآثار ومعاينتها من الخارج والداخل، والحقيقة أن مثل هذا العمل كان فوق طاقة الأفراد، ولم تكن الحكومات قد أولت اهتمامًا كبيرًا بالبحوث الأثرية، واستمرت الأحوال كما هى ولم يوجه الاهتمام إلا إلى نهب الآثار، بينما وقف أجلة العلماء حائرين.

ووسط هذا الجو الكثيب نشط الفلاسفة، ومن هؤلاء الكونت دا قسطنطين فرانسوا ساسيبوف فولنى F. S. Volney، الذى أمضى فى مصر وسوريا أربع سنوات، وقد عنى بدراسة النظم السياسية والاجتماعية، كما زار الأهرام وأعجب بها، إلا أنه استنكر جبروت وإسراف من بنوا هذه الصروح العظيمة، واستعبدوا شعوبهم وسخروها: « إذا كان هواة الفنون يستنكرون اقتلاع أعمدة القصور البديعة للحصول على الحجارة، فإن الفيلسوف يعجب لتصاريف القدر التى ردت للشعب ما بناه بجهده وعرقه تحت وطأة البؤس، فالحاجة التى دفعتهم لتحطيم ما بنوه لإرضاء غرور الترف الذى لا يغنى ولا يسمن من جوع»، وعلينا أن نحتاط من مثل هذه العبارات الطنانة فنظن أنفسنا أمام رجل ثورى أو أخلاقى الميول، فعلى العكس من ذلك كان كتابه برفقة كثير من القادة العسكريين، وأشهرهم نابليون بونابرت الذى أقر أسلوب السطو المنظم لآثار مصر القديمة.

٥- لغة ميتة غير مفهومة

كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر حافلاً بالأحداث، ففيه بدأت الثورة الصناعية، وفيه قامت الثورتين الأمريكية والفرنسية، وبدأ الساسة يهتمون بطرفى المحيط الأطلسى، وفى مصر، حيث كان العثمانيون يحكمونها اسماً والمماليك فعلاً، كانت أسوار العزلة تمنع أهل البلاد من متابعة الأحداث العالمية وتطوراتها، ولم تكن أوروبا فى هذا العصر تعطى مصر وزناً سياسياً، رغم أنها كانت تنظر إليها باحترام باعتبارها دولة ذات حضارة عريقة تشهد آثارها على عظمتها السابقة، ذات مؤسسات فى الحكم والاجتماع تعد أقدم ما عرفه التاريخ، ولم يكن الأوروبيون غافلين عن أهمية موقع مصر الجغرافى، التى هى مفتاح الشرق كله، من يملكها يهدد الهند درة التاج البريطانى وقمة الأهمية والنشاط الاقتصادى بالنسبة لإنجلترا.

كان بونابرت رجل الأقدار الذى جذب مصر إلى بؤرة الاهتمام على المسرح الدولى، فقد تزايد اهتمام فرنسا بمصر حتى بلغ مداه فى سبعينيات القرن الثامن عشر، ومن أسباب ذلك ضغط التجار الفرنسيين الموجودين على حكومتهم لكى تتدخل لحمايتهم، وإيمان الحكومة الفرنسية بتوافر فرص الاستثمار فى مصر، وخوفهم من أن يسبقهم الإنجليز إليها، والتصور الأخير كان مبنياً على حقائق أهمها أن الإمبراطورية العثمانية اعتراها الضعف والفساد لدرجة أن

أطلق عليها لقلب رجل أوروبا المريض وبدأت الدول بالفعل فى قص أطرافها، وكانت مصر التى ضعفت قبضة العثمانيين عليها ثمرة قد أينعت وحان قطافها، وكان الفرنسيون منذ فترة يخططون لأخذها لكن حالت الظروف وقلة الموارد دون ذلك، لكن الظروف تغيرت بنجاح حملة نابليون على إيطاليا، إذ تطلع بعدها إلى تحقيق مجد حربى جديد، ووجد ضالته فى مصر - وهى مبادرة خلبت لب كثيرين فيما بعد منهم دزرائيلى ونابليون الثالث، وكان هدفها البعيدالارتكاز فى مصر للاستيلاء على الهند، فهو لم ينس أن الإنجليز أبعدوا الفرنسيين عنها فى منتصف القرن الثامن عشر.

كلف نابليون فى أبريل سنة ١٧٩٨ بقيادة حملة تستهدف مالطة ومصر، وأبحرت الحملة من طولون فى ١٩ من مايو سنة ١٧٩٨، على ظهرها ٣٢٨ قطعة بحرية تحمل ٣٨ ألف جندى، ووصلت الحملة إلى الإسكندرية فى أول يوليو من السنة نفسها، وصحب نابليون ١٦٧ عالماً من مختلف التخصصات لمعاونته، وهذه المجموعة من العلماء، والحق يقال، تشكلت بمبادرة فردية من نابليون نفسه، فقد حضر القائد اجتماعاً للجمعية العلمية فى خريف ١٧٩٧، وألقى خطبة حماسية موضحاً أهمية مصر، وأهمية الاعتماد على البحث العلمى فى مواكبة الأحداث وطالب بإمداد الحملة بالعلماء المناسبين، لأنه لا نجاح للحملة بدون ذلك.

أوكل «نابليون» أمر اختيار البعثة إلى العالم الفيزيائى «لويس برتوليه»، فاختار علماء بارزين منهم جين ميشيل فنتور Venture المستشرق المعروف، وسان هيلار Hilaire عالم فى علم الحيوان له آراء فى التطور تسبق «دارون»، وجاسبار مونج Monge الكيماوى الرياضى الخبير فى صناعة البارود، وكان مونج فى ذلك الوقت يشغل وظيفة مندوب الحكومة (حكومة الإدارة) للبحث عن الأشياء الفنية والعلمية فى البلاد المفتوحة»، وكان ضمن حملة نابليون الإيطالية، واختار ما يناسب من الأعمال الفنية والتحف والكتب كى تستولى عليه فرنسا حسب معاهدة الصلح، ويكفى التجول فى متحف اللوفر لنستدل على مدى توفيقه فى مهمته، ويكفى الإشارة إلى أن الموناليزا كانت من اختياره والخلاصة أن مونج كان ألمع أعضاء البعثة العلمية.

وممن يستحقون التنويه دومينيك فيفان دينون، وهو فنان من طراز فريد كان أميناً لمتحف لويس الخامس عشر، ومقرباً من مدام بومبادور خليلة الملك ـ حسب ما كان يشاع، وعمل بعض الوقت في السفارة الفرنسية في بطرسبرج، وكانت القيصرة كاترين العظمى معجبة به، ووسع العمل في السلك الدبلوماسي مداركه حتى أصبح من الخبراء في فنون القرن الثامن عشر، وكان صاحبنا متحدثاً لبقاً شغوفاً بالنساء وعضواً في الأكاديمية الفرنسية، وعند قيام الثورة كان في فلورنسا يتمتع بحياة البطالة والترف، فلما بلغته أنباءها عاد مسرعاً ليجد نفسه وقد صودرت أملاكه وأضيف اسمه للقائمة السوداء، وأصبح بعدها يتخبط حتى انتزعه من بؤسه الرسام الشهير لويس دافيد، إذ كلفه بعمل ثانوي في مرسمه، ثم تمكن من الاتصال ببعض رجال الثورة ويبدو أنهم اقتنعوا بخبرته الدبلوماسية، فأعاد روبسبيير إليه ممتلكاته بالأمر المباشر، وبعد ذلك تعرف على نابليون وجوزفين ثم اتصل بالعلماء البارزين، وكان رغم ذلك له نشاط خاص، فقد أصدر ألبوما يسمى «المجموعة الكاملة» يحتوي على صور وأكليشيهات متحررة أدانها المحافظون وقرظها المثقفون، وهذا الرجل الموهوب قام بمعظم المهام التصويرية بالبعثة، هذا بالإضافة إلى أنه كان من هواة الآثار المصرية، وعاشقاً لكل ما هو مصري، وذلك من حسن حظ علوم المصريات.

ورغم فشل الحملة العسكرية، نجحت البعثة العلمية نجاحاً مذهلاً، وأنجزت في ثلاث سنوات ما يحتاج إنجازه لعشرات من السنين، وكان تجهيز البعثة أهم مقومات نجاحها، فقد أتت ومعها ما يلزم من المراجع عن وادي النيل، بالإضافة إلى الأجهزة العلمية وأدوات القياس والمسح، كذلك كان دعم نابليون لها بلا حدود، فبعد دخوله القاهرة في ٢١ من يوليه ١٧٨٩ بادر بتأسيس «المؤسسة العلمية المصرية» وخصص لها أحد القصور الضخمة، وكان يهتم بالبعثة ويحضر الكثير من اجتماعاتها ـ التي كانت تعقد بانتظام.

استمر نشاط أعضاء البعثة ثلاث سنوات مثمرة، وكان بينهم ترابط وانسجام، وكان هدفهم استكشاف حضارة مصر المجهولة لهم، وفوق النشاط العلمي كان للعلماء نشاط إداري وساهموا في مختلف اللجان، والقومسيون الطبي، وتلبية

احتياجات نابليون وقواده، وشمل نشاطهم العلمى أحوال مصر الصناعية والزراعية والتعدينية وغيرها، وكان أهم ما شغلهم تنفيذ ما اقترحه عالم التعدين ديوديه جارتى دولوميكو: «اختيار وحفظ ونقل الآثار المصرية القديمة» ـ وتأمين وصولها إلى فرنسا سالمة.

أثناء أحد اجتماعات اللجنة العلمية فى ١٩ من يوليه سنة ١٧٩٩ اشتعل حماس الأعضاء لوصول رسالة من لانكريه ـ العالم الرياضى ـ تفيد باكتشاف حجر بازلتى عليه «نقوش قد يكون فى منتهى الأهمية ـ عثر عليها جندى مجهول أثناء تحصين قلعة رشيد. ومن محاسن الصدف أن الكابتن بوشارد ـ المشرف على التحصينات ـ أدرك أهمية الحجر فأرسله إلى الجمعية العلمية، وهو من البازلت الناعم، وعليه نقوش من ثلاثة أنواع فى سطور: السطور العلوية بالهيروغليفية، والوسطى بالديموطيقية (المصرية الدارجة)، والسفلية باليونانية القديمة، كان من السهل ترجمة النص اليونانى، فوجد أنه مرسوم خاص بالنظام الكهنوتى المصرى تاريخه سنة ١٩٦ ق.م، وأدرك العلماء على الفور أن الحجر يحمل مفتاح حل الكتابة الهيروغليفية، ويفتح الباب للكشف عن تاريخ مصر القديمة.

كان أعظم إنجازات المؤسسة العلمية فى حقلى الجغرافيا والمصريات، ورسمت خريطة تفصيلية لمصر لم تنشر إلا بعد تولية نابليون إمبراطوراً، وفى أغسطس سنة ١٨٩٨ قام الجنرال ديزية بتعقب مراد بك فى الصعيد، وكان بصحبته فيفان دينون، فقام باستكشاف وتصوير كثير من المبانى الأثرية والتماثيل بدقة تحسب له، وخلاف ذلك كان مهتماً بنسخ المخطوطات ورسم المناظر الطبيعية، كما كان يواظب على حضورجلسات المؤسسة العلمية، وكان يسجل بعض خواطره فعندما شاهد الأهرام قال: «يمكن مشاهدتها عن بعد فتبدو كأنها شفافة، تعكس عليها السماء، زرقة صافية لطيفة؛ تظهر كمال ونقاء أركانها التى لم تفسد بمضى العصور»، أما رحلته الخطرة مع ديزية فقال عنها: «أوشكت أن أطأ أرضاً غطاها قناع من الغموض منذ دهور.. فقد اكتفى السائحون منذ هيرودوت بالرحلة السريعة فى النيل، وبالكاد يبرحون سفنهم، وربما للمحة عابرة لمشاهدة الآثار القريبة من الشاطىء»، حقا لقد وصل إلى مصر الرجل المناسب فى الوقت

المناسب، كان أداء دينون جيداً حسب المتاح، فقد كانت الحملة مضطرة للسير الحثيث لتقطع ما بين ٢٥ ـ ٣٥ ميلاً كل يوم، وأن تتجنب أخطار قطاع الطرق والغارات المفاجئة، لذلك لم يتسن له سوى وقت قصير فى هرموبوليس رسم فيه أحد المعابد القديمة، وكان أسعد حظاً فى دندرة، لأن الجيش انتشر فى ربوع المعبد الجميل يوماً كاملاً ليشاهدوه، وانبهر دينون بالمكان: «أمسكت بالقلم فى يدى، وتنقلت من مكان إلى مكان، لا أترك شيئاً إلا لما هو أروع، وإنى لمستاء لأن ما رسمته دون الواقع»، واستمر دينون يرسم حتى مغرب الشمس، لم يوقفه سوى حضور الجنرال بليار قائد القوة بنفسه ليصحبه ركضاً على جواديهما حتى مكان المعسكر البعيد.

واستمرت الحملة فى سيرها حول النيل حتى بدا لهم معبد الأقصر والكرنك، وانبهر جنود القوة بما رأوا فهللوا، وقال أحد أفرادها «اصطف الجنود، بدون أى أوامر، ومعهم أسلحتهم بمصاحبة الطبول والموسيقى» (يعنى أدوا التحية)، وقد سجل دينون ما رآه من آثار ولو على ضوء شمعة، وحتى فى أخطر الأوقات، ووصلت حملة ديزيه حتى أسوان وهناك قام دينون بزيارة جزيرتى فيلة والفنتين.

وأعمال دينون جديرة بالتنويه، لأنها أشعلت الحماس لدراسة الآثار، وكان من أشد المتحمسين مهندسو الرى بالحملة فتهاونوا فى عملهم، وأقبلوا على تسجيل المعابد والمقابر والنقوش الهيروغليفية والآلهة القديمة، واستغرقوا فى العمل لدرجة أنه عندما نفدت أقلامهم تحولوا إلى رصاص البنادق ليذيبوه ويرسموا به، وبذلك سجلوا للأجيال كثيراً من المعلومات النادرة، وفى هذه الأثناء كانت الآثار الصغيرة الخفيفة يجرى نقلها من المعابد والمقابر.

كان فشل حملة نابليون على مصر متوقعاً بسبب مواصلاتها البحرية المكشوفة، وتمكن أمير البحر نلسون من تحطيم معظم الأسطول الفرنسى المرابط فى خليج أبى قير، فى أول أغسطس سنة ١٧٩٨. ورغم ذلك كسب نابليون عدة معارك برية، إلا أن الجوع والمرض فتّا فى عضد الجيش الفرنسى، وفى ١٩ من أغسطس سنة ١٧٩٩ عاد نابليون إلى فرنسا على متن سفينة سريعة، وبعد فترة وجيزة استسلم الفرنسيون للجيش البريطانى، ودخلوا معهم

فى مفاوضات انتهت على أثرها الحملة، وفشل الحملة الظاهرى كان وراءه إنجاز عظيم لم يظهر على الفور، فمن جهة أيقظت الحملة الوعى القومى لدى المصريين ونبهتهم لأهميتها فى السياسة الدولية الحديثة، ومن جهة أخرى أدت عملاً جليلاً بما حققته لجنتها العلمية من إنجازات تناولت أوضاع مصر وآثارها.

استقبل دينون لدى عودته بالترحيب، ثم كلف بإنشاء متحف اللوفر، فخصص به أول جناح للآثار المصرية، وظل يمده بالتحف والآثار حتى نهاية حُكم نابليون، بعد ذلك أصدر كتابه «رحلات فى مصر السفلى والعليا» سنة ١٨٠١، فذاع أمره وترجم إلى عدة لغات.

كان من الطبيعى أن يستغرق تنسيق المعلومات التى حصلت عليها اللجنة العلمية وتبويبها عدة سنوات، وظهر أول مجلد من الموسوعة بعد ثمانى سنوات وسميت «وصف مصر» وقد صدرت فى أربعة وعشرين جزءاً بين سنتى ١٨٠٩ ـ ١٨١٣ فى طباعة فاخرة مزينة بالصور والرسوم التوضيحية، ونالت الموسوعة ما هى جديرة به من التقدير فى كافة أنحاء أوروبا، وأظهرت الموسوعة مدى ثراء الآثار المصرية بشكل غير مسبوق، وساعدت الطباعة ومقاييس الرسم المناسبة على إبراز التفاصيل الدقيقة، ولكى ندرك أهمية هذا الإنجاز لا يجب الحكم عليه فى ظروفنا الحالية بعد أن انفتحت آفاق الطباعة الحديثة وانكشف لنا الكثير عن تاريخ مصر القديمة، ويكفى أن «موسوعة وصف مصر» عند ظهورها أول مرة صورت حضارة مصر العريقة، وآثارها العظيمة التى صمدت فى وجه الأحداث والسنين، ولم تنل منها عوادى الزمن ولا الحروب كل تلك السنين.

ورغم روعة ما صوره دينون ورفاقه وسجلوه فى الموسوعة عن المعابد والأهرام والآثار، إلا أن عملهم هذا كان ينقصه شىء ما ـ فهم الكتابة الهيروغليفية وترجمتها للغات الحية، وكان أعضاء اللجنة واثقين أن مفتاح الحل فى أيديهم ـ إنه حجر رشيد.

كانت معروضات البعثة الأثرية (فى اللوفر) ثمينة جداً من الوجهة المتحفية، ففى ذلك الوقت لم يكن بالمتحف البريطانى سوى قطع أثرية مصرية محدودة من

المومياوات والجعارين والتحف الصغيرة، أما ما نقله أعضاء البعثة فكان وفيراً وجميلاً، لكن إنجاز اللجنة فى المجال المعرفى فاق ذلك كله، فقد لفتت الموسوعة نظر الناس إلى عظمة آثار مصر وتنوعها، فزاد اهتمامهم بمصر القديمة ـ تاريخها ولغتها وآثارها، وزاد الطلب على كل ما هو غريب أجنبى، فى وقت بدأت معرفة السياسيين والعسكريين بمصر تزداد توثقا.

بدأ الإقبال على الآثار المصرية بالحملة الفرنسية ذاتها، فقد جمع علماء البعثة كثيراً من الآثار وكدسوها بالإسكندرية حيث ضرب عليهم الحصار، وبدأ الجنرال «مينو» فى التفاوض مع الفريق «هتشنسون» لتسليم المدينة، وكان من طبع مينو الجدل والمساومة، وعند إبرام معاهدة الصلح بدأ يساوم فى وضع أعضاء البعثة العلمية وما تحمله، وادعى الإنجليز الحق فى حيازة الآثار، فأعلن «مينو» أن حجر رشيد بالذات ملك شخصى له، وكان موقف علماء البعثة وعلى رأسهم عالم الحيوان «جوفرى سان هيلير»، واضحاً حازماً: «إذا سلمت الآثار سنرافقها إلى لندن»، فاضطر «مينو» للرضوخ وكتب للقائد الإنجليزى: «أبلغنى العلماء أنهم لن يتركوا ما جمعوه من بذور ومعادن وطيور وفراشات وزواحف لمن تختاره لشحنها، ولا أعلم إن كانوا مصرين على مرافقتها ولكنى أؤكد لك أنهم لو أصروا فلن أمنعهم»، وبلغ من إصرار العلماء على موقفهم أن هددوا بإحراق ما معهم من نماذج إذا ما أحسوا أنهم سوف يفقدونها كما وضح سان هيلير: «بدوننا اعتبروا أن ما معنا لغة ميتة، لن تستطيعوا مع علمائكم فهما، فإذا سولت لكم أنفسكم سلب ما معنا بهذه الطريقة الهمجية الظالمة، فسنقوم بدفنها فى رمال ليبيا أو إغراقها فى اليم.. بل سوف نحرق ما معنا بأنفسنا.. إنكم تسعون إلى المجد والشهرة.. عظيم! لكن عليكم أن تتذكروا أن التاريخ سيذكر لكم: «أنكم أحرقتم مكتبة الإسكندرية الثانية».

لم يرغب الفريق «هتشنسن» الحصيف أن يزيد الأمر تعقيداً فترك لهم ما جمعوه، إلا حجر رشيد أصر على مصادرته، ولم يسع مينو سوى الإذعان وقال: «هيه مادمت مُصراً خذه، فأنت أقوى الرجلين»، ولم يكن هذا أمراً ذا بال فقد كان علماء البعثة قد نسخوا من قبل صوراً شمعية للمكتوب على الحجر،

وأرسلوها إلى فرنسا حيث أخذ المختصون يدرسونها للكشف عن أسرار الكتابة الهيروغليفية، وكان أبرز هؤلاء العلامة اللامع فرنسوا شمبليون الذى يرجع إليه الفضل فى كشف غموضها بعد جهود استمرت ثلاثا وعشرين سنة، وبذلك استعدنا تاريخ مصر القديمة الذى كان مستغلقا حتى ذلك الوقت.

بعد الحملة الفرنسية عادت مصر ولاية عثمانية، لكن السلطان أهملها، ولم يهمه من أمرها سوى جباية الجزية منها بانتظام، لذلك اجتاحت الفوضى البلد وأصبحت فى حاجة إلى قيادة رشيدة، وحكومة قوية حازمة.

فى هذه الظروف بزغ نجم محمد على - شاب ألبانى رفعته مواهبه الشخصية ليتبوأ مركزاً قيادياً فى ا لجيش التركى بمصر، وبعد سلسلة من الأحداث تمكن من توطيد مركزه فى البلاد سنة ١٨٠٥، واستمر فى حكمها حتى سنة ١٨٤٩ وتمكن بقوته ودهائه وذكائه من تشكيل حكومة قوية لم تشهد مصر لها مثيلاً منذ قرون، وكان محمد على يتطلع لتوطيد مركزه الدولى، وتطوير اقتصادات مصر على النمط الغربى، وكان به ثلاثة أهداف: جيش وطنى قوى، وزراعة متطورة، وإدخال الصناعة الحديثة، لذلك استعان بكثير من الأجانب، خصوصاً فى تطوير الصناعة، ومشاريع الرى، وفشل كثير من مشاريعه لتفشى البيروقراطية والرجعية، أما آثار مصر فقد كانت فترة حكم محمد على وبالاً عليها بسبب السياسة.

كان الباشا يتودد للأجانب، ويحرص على إرضائهم لحاجة مصر للأموال الأجنبية لتنفيذ مشاريعه الطموحة، لذلك فتح البلد فى وجه الأوربيين - دبلوماسيين وتجار وسائحين - ولم يهتم بآثار مصر إلا فى حدود استخدامها كوسيلة لجذب انتباه الشخصيات العالمية المؤثرة، لذلك تسربت آلاف القطع الأثرية الخفيفة من مصر عن طريق هواة جمع الآثار وتجارها والسائحين، وكل من لا هم له إلا الإثراء السريع من تجارة التحف والآثار.

عندما دخل الإنجليز الإسكندرية أعجب «إيرل كافان» قائد هذه القوات بإحدى المسلات بها، وحصل على موافقة السلطات التركية بنقلها إلى لندن

كهدية تذكارية بمناسبة فشل الحملة الفرنسية، وكان جنوده فى مثل حماسه لنقل المسلة، فتبرعوا لاستئجار سفينة لنقلها، وأبدوا استعدادهم لتحميلها على ظهر السفينة، لكن لندن لم تكن بمثل حماسهم فتعطل المشروع حتى سنة ١٨٧٧، حيث نقلت إلى لندن على نفقة رجل الأعمال الثرى «أراسموس ويلسون»، والعجيب فى الأمر أن تأخير نقلها سبعين سنة كان سببه الوحيد تراخى الحكومة البريطانية، رغم إلحاح محمد على والخديو إسماعيل من بعده، والأعجب أن الذى حرك الموضوع كان اليونانى صاحب الأرض التى رقدت فيها المسلة، فقد هدد بتقطيعها واستعمال حجارتها فى البناء ما لم تنقل بسرعة، فقام ويلسون بمبادرة فردية منه بإنقاذ المسلة من التخريب، هذه المسلة تزين ميداناً شهيراً من ميادين لندن ـ الآن ـ حيث أطلق عليها اسم الشهرة: «إبرة كليوباترا».

فى ذلك الوقت، كان عدد القناصل وممثلى الدول كثيراً فى القاهرة والإسكندرية، ففى ذلك الوقت ـ أوائل القرن التاسع عشر،وبداية حكم محمد على ـ كانت أعباء السلك الدبلوماسى قليلة وهينة، ولذلك وجد القناصل والدبلوماسيين لديهم من الفراغ والراحة ما مكنهم من الرحلة لجمع الآثار.

كان أول قنصل عام لفرنسا عقب حملة نابليون هو «برناردينو دروفيتى»، من مواليد برباريا ببدمونت سنة ١٧٧٦، ثم تجنس بالجنسية الفرنسية وأدى خدمته بامتياز فى الحملة الفرنسية برتبة مقدم، وعقب الحملة مباشرة عين قنصلاً عاماً بمصر حتى سنة ١٨١٤، ثم أبعد، ثم أعيد مرة أخرى فى عهد الإصلاح من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٢٩، بعد ذلك استقال لأسباب صحية بعد أن حقق من تجارة الآثار ثروة طائلة، وكان «دروفيتى» ذا تأثير داخل الحكومة المصرية، وعلى اتصال مع كثير من الشخصيات المصرية المرموقة، وكان اهتمامه بالاثار المصرية مبنياً على أسباب تجارية محضة، وكان يتسم بالطمع لذلك كرهه منافسوه.

أما قنصل بريطانيا ـ فى الفترة نفسها ـ فكان الكولونيل «ميسيت» الذى تقاعد لأسباب صحية سنة ١٨١٦، ولم يكن من المهتمين بالآثار، وخلفه فى منصبه «هنرى سولت Salt» الذى اهتم بالآثار اهتماماً بالغاً، لم يتلق سولت فى صغره تعليماً نظامياً، وفى سن المراهقة رحل إلى لندن ليتعلم الرسم (المناظر

الطبيعية والبورتريه)، وتكسب من ذلك بعض الوقت، لكنه أثناء عمله تعرف على بعض علية القوم، ومنهم اللورد «فالنتيا» ـ اللورد «مونت نوريس» فيما بعد، وهذا اللورد ارستقراطى من هواة الرحلات الطويلة إلى البلاد البعيدة، وفى سنة ١٨٠٢ قام برحلة طويلة إلى الهند والمشرق، مصطحبا معه «سولت» كسكرتير ورسام. واستغرقت الرحلة أربع سنوات ونصفاً، وتضمنت الرحلة عملية استكشافية فرعية بطول ساحل البحر الأحمر على ظهر الطراد «بانثر» من ذلك الوقت أصبح سولت مولعاً بالرحلات.

كان «سولت» قد قضى فترة من سنة ١٨٠٧ فى مصر، أهتم فيها كثيراً بالآثار، وزاده فضولاً اكتشافه لنقش يونانى فى أكسوم بأثيوبيا، ويبدو أنه منذ ذلك الوقت كان يتطلع للعودة إلى مصز، فلما علم باعتزال قنصل بريطانيا بالإسكندرية سنة ١٨١٦، أخذ يسعى للحصول على الوظيفة، فوافق وزير خارجية بريطانيا ـ فى ذلك الوقت ـ اللورد «كاسلرى»، ومنذ ذلك الحين، وهو فى سن الخامسة والثلاثين أصبح «سولت» أحد الشخصيات المؤثرة فى السياسة المصرية.

هيأ العمل الدبلوماسى للسفيرين ـ البريطانى والفرنسى ـ الفرص السهلة للاتصال بالمسئولين المصريين، وكان العمل الدبلوماسى ـ فى ذلك الوقت ـ هيناً لا يحتاج لمجهود كبير، فكانت الحكومة البريطانية تشغل وقت قنصلها بمصر بمهام أخرى إضافية، فى ذلك الوقت كان السير «جوزيف بانكس» الأكبر ـ من مرافقى كابتن «كوك» فى رحلته إلى تاهيتى سنة ١٧٩٦ ـ قد صار من العلماء وأصبح أميناً للمتحف البريطانى، ووجد «بانكس» فى وجود «سولت» فى مصر فرصة ثمينة للحصول على آثار مصرية يضمها للمتحف القومى البريطانى، وأصدر وكيل الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت تعليمات إلى «سولت» تكلفه صراحة بجمع ما يستطيع من آثار والبحث عن حجر يضارع حجر رشيد، وأنه «مهما كانت التكاليف فسوف يجد التمويل، من شعب مثقف، متشوق للتفوق على الشعوب الأخرى فى إظهار اهتمامه بالعلوم والآداب (والثقافة)».

كان سولت يثق بنفسه ومعرفته بالمصريات، وكان من المهتمين بالهيروغليفية، لكنه كان ذا شخصية مهتزة، فتارة تراه متفائلاً سهلاً، وتارة تراه يائساً، لذلك كان - أحياناً - ما يتردد فى المواقف التى تحتاج للحسم، وهذه الصفات لها عيوبها فى مواجهة قرينه الفرنسى دروفيتى الزئبقى، أو الوالى المتقلب المزاج، لكن نفوذ الرجل فى دوائر الحكومة سهل له الحصول على كثير من الحقوق والامتيازات، لذلك اشتدت المنافسة بين الطرفين: «دروفيتى» الفرنسى بحيويته وعلاقاته الحميمة بالسلطة والأهالى، و«سولت» ذى الشخصية الجادة بأمواله ونفوذه السياسى.

كان الباشا رسمياً المسيطر على الكشوف الأثرية فى مصر، وكان البحث عن الآثار يحتاج إلى تصريح أو فرمان يسمح بالتنقيب عنها ونقلها للخارج، ولم يكن هذا عائقاً بالنسبة لهذين الرجلين، فما أسهل حصولهما على التصريح،، وقد مشط الرجلان القطر كله من أجل «مناطق الامتياز» وتجاهلاً تماماً الأصول الدبلوماسية فى تعاملهما بهذا الصدد، أما المنافسين الآخرين فكان من السهل عليهما إزاحتهم من الطريق، وإبطال مفعول الفرمانات التى تصدر لصالحهم.

على أى حال كان للقناصل الفضل فى تنشيط البحث عن الآثار، واستقر بعض الرجال المعروفين بمصر، ومن هؤلاء جان جاك ريفو، وهو فرنسى من مرسيليا أقام بالقاهرة منذ سنة ١٨٠٥ للتنقيب عن الاثار والتجارة فى التحف الخفيفة، ثم انضم إلى العاملين مع دروفيتى لبضع سنين، رافق القنصل خلالها فى رحلة أثناءها سنة ١٨١٦ إلى الشلال الثانى، ومنهم التاجر الأرمنى جوفانى انستاسى، وكان والده من موردى التموين لجيش نابليون ثم أفلس بعد انتهاء الحملة، لكن الابن كافح حتى أصبح صاحب تجارة ناجحة، بعد ذلك أصبح قنصلاً عاماً للسويد والنرويج فى مصر، وواحداً من أنجح تجار الآثار وبالأخص البرديات التى اعتاد الحصول عليها من لصوص المقابر بسقارة، وفى ذلك الوقت لم تكن تجارة الآثار بحاجة إلى مؤهلات خاصة، بل تعتمد على مجرد «الشطارة» والرشوة والواسطة.. إلخ. والأهم الشد والجذب ثم التراضى بين المتنافسين. ومما قاله هوارد كارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون فى ذلك: «كانت هذه الأيام

أمجد أيام الاستكشاف والبحث عن الآثار، كان كل شيء موجوداً من الجعران إلى المسلة، وإذا حدث خلاف بين الأخوة (الأعداء) من المستكشفين فقد كان يمكن للبندقية أن تحسم الأمر».

فى هذه الفترة، برزت شخصية عجيبة طاغية فى عالم النهب والتخريب، ففى ذلك الزمن العجيب، ظهر رجل غريب من مردة شياطين السيرك دخل عالم البحث عن الاثار بطريقة مريبة، هذا الرجل هو «بلزونى» العجيب، لكن ذلك له قصة طويلة.

الجزء الثانى

المهرب الأكبر
الذى طغى على الجميع

٦ـ شمشون البتاجونى

ولد «جيوفانى باتستا بلزونى» فى بادوا بإيطاليا فى ٥ من نوفمبر سنة ١٧٧٨، وهو الابن الرابع لحلاق متواضع يسمى جياكومو بلزونى، كان كل أمله أن يصبح ابنه حلاقاً مثله، لم يبرح بلزونى بلدته حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره، ومنها تلقى تعليماً هامشياً ثم انتقل إلى روما ليبدأ مغامراته التى استغرقت كل عمره، وفى روما درس شيئاً من اللاهوت وبعض أساسيات الهيدروليكا لكنه ظل طوال عمره نصف أمى.

وفى شبابه كانت أحوال إيطاليا السياسية غير مستقرة، فقد احتلتها جيوش نابليون باسم الجمهورية الفرنسية ودخلت روما منتصرة سنة ١٧٩٨، لذلك فر بلزونى خوفا من الأسر متجهاً نحو الشمال وليس معه سوى حقيبة من حقائب الباعة المتجولين بها بعض المسابح والصور الدينية والقطع الأثرية.

والظاهر أن بلزونى نجح كبائع متجول، فنراه بعد ثلاث سنوات يصطحب أخاه فرانسسكو إلى أمستردام للمتاجرة على نطاق محدود، ولفتت متانة بنيانهما إليهما الأنظار، ولا نعرف أقدما هناك بعض الاستعراضات أم لا، لأنه تجاهل هذه الفترة عند كتابة سيرته الذاتية، وهذه كما نرى بداية متواضعة لا توحى بأن صاحبها سيكون له شأن يذكر فى التاريخ.

ظهر بلزونى للجمهور أول مرة سنة ١٨٠٣، بعد عبوره إلى لندن مع أخيه، وبصرف النظر عن سبب حضوره، فقد كان استقرار بلزونى فى لندن نقطة تحول فى حياة هذه الشخصية المتقلبة، وكانت لندن فى ذلك الوقت عاصمة صاخبة بها كثير من المسارح «وجمهورها متعطش للترويج» لذلك كان الجو فيها مهيأ لذوى المواهب فى الألعاب البهلوانية والسحرية، أو فى التمثيل، وكان جمهور المسرح الإنجليزى يرغب باستمرار فى التغيير وتنويع العروض، فكان لابد من تلبية رغباته، لذلك لجأ المنتجون إلى تغيير البرامج والممثلين بكثرة لجذب الجمهور وكانت العروض تزداد تألقاً وتنوعاً فى أشهر الصيف خاصة، والخلاصة أن التنافس بين المسارح فى ذلك الوقت كان على أشده.

كان شارلز دبدن الأصفر من أهم المنتجين فى مسارح لندن فى أوائل القرن التاسع عشر، وفى سنة ١٨٠٣ كان يمتلك مسرح سادلر ويلز، وكان يجمع فى عمله بين التأليف والإنتاج وإدارة المسرح، وكان يستعين بمجموعة من الممثلين تعمل باليومية أو بالموسم حسب الظروف.

كان المتعهد الذى يتعامل معه دبدن إيطاليا يسمى موريللى، وكان هو نفسه ممثلاً ناجحاً، وتذكر مذكرات دبدن أن: «كل ممثلى الكوميديا ولاعبى الأكروبات الإيطاليين يقصدونه لدى وصولهم إلى إنجلترا»، وعن طريقه تقدم بلزونى بطلب للعمل بمسرح ساولر ويلز، ولا ندرى على أى أساس رشح نفسه ولكن نستطيع أن نفترض أنه اكتسب بعض الخبرة المسرحية أثناء تجواله فى أوروبا.

ويبدو أنه لفت نظر دبدن بمتانة بنيانه، فطوله حوالى مترين وقوته خارقة ويتميز بوسامة ظاهره (صور بلزونى المتوفرة تثبت ذلك)، وكان أن كلف دبدن بلزونى بأداء فقرات فى رفع الأثقال وتمثيل بعض الأدوار الثانوية.

استهل بلزونى عمله المسرحى فى ربيع سنة ١٨٠٣، وكانت أهم فقراته عنوانها «شمشون البتاجونى»، وهى فقرة مثيرة تبدأ بعرض فى رفع الأثقال، وتنتهى باستعراض للقوة يحمل فيه بلزونى على كتفيه هرماً من الآدميين، وفيه يحمل صاحب هرم العضلات الشمشونى قضيباً حديدياً ثقيلاً يزيد وزنه على ١٢٧

رطلاً فوق كتفيه، وبه ركائز يتعلق بها اثناعشر شخصاً، ويتجول بلزونى بحمله فوق خشبة المسرح بيسر وسهولة ملوحاً للجمهور بعلمين فى يديه.

نجحت الفقرة نجاحاً باهراً واستمر عرضها ثلاثة شهور متصلة، كذلك أدى بلزونى أدواراً ثانوية وفقرات فردية بين الفصول مثل، أسطورة فيليب كورال وهى تروى قصة خيالية بطلها «رجل إنجليزى يعيش فى عزلة فى جزيرة لا يسكنها إلا القرود».

ومن الغريب أن عقد بلزونى الذى كانت مدته ثلاثة شهور قد ألغى بلا سبب ظاهر، رغم نجاح عروضه لدرجة أنها أدرت إقبالا على المسرح، وربما لم يتحقق له بعد ذلك لسنوات، وكان إلغاء العقد فى يولية سنة ١٨٠٣.

بعد شهرين ظهر بلزونى فى جو مخالف تماماً، فأخذ يقدم عرضاً يمثل هرماً آدمياً فى سوق بارثولوميو السنوى الصاخب فى لندن، وكانت تقام فيه مهرجانات صاخبة تعرض على الزائرين عروضاً فى الفروسية والاستعراضات الأخرى.

وكانت الاستعراضات فى السوق تقام فى أكشاك أو خيم، وتتنوع من العزف على الأرغن إلى استعراض القردة الكاتبة، وفى إحدى هذه الخيم كان بلزونى يقدم استعراضات تحت اسم «هرقل الفرنسى».

شهد جون توماس سميث ـ أمين الصور والمطبوعات بالمتحف البريطانى ـ العرض المذكور، وكان ناقداً ومعلقاً معروفاً فى مسارح لندن، وقد زار المعرض متردداً، لأن الزوار فيه كانوا يتعرضون للنشل والسلب، لذلك جاء وصفه للعرض وصف شاهد عيان متمكن.

دخل الصديقان فشاهدا عرض بلزونى فى رفع الأوزان الثقيلة داخل خيمته، بعد ذلك طلب «هرقل الفرنسى» متطوعين من الجمهور ليحملهم فوق كتفيه على هيئة هرم بشرى، وتطوع سميث مع أربعة آخرين، وصعدوا فوق الكراسى ليتسلقوا فوق كتفى بلزونى المكتظين، ويقول سميث: «وأدى بلزونى عمله ببساطة وسهولة وثبات» وكان الحمل فوق كتفى بلزونى ثقيلاً خصوصاً وأن أحد أعضاء

الهرم كان «سميناً ثقيل الوزن، مكتنز الخدين، سمك أدراجه أكبر من عرض زقاق سوق العسل المشهور».

ظل بلزونى وجهاً معروفاً فى لندن وإنجلترا لسنوات عدة، يستعرض قوته بين أسواق الجزر البريطانية، وقد ذكرت مجلة جنتلمان أن بلزونى كان يستطيع «أن يحمل على قضيبه الثقيل - ما لم نخطئ - أكثر من ٢٠ رجلا (وربما) ٢٢ ... يجول بهم فى يسر وسهولة كأنه أحد أفيال الفرس»، ثم طور بلزونى عروضه فأدخل فيها بعض الحيل الهيدروليكية، وذاع أمر بلزونى ولقبوه بلقب «بلزونى الأكبر»، واستمر نجاحه ثمانى سنوات متصلة، أكسبته خبرة واسعة فى حمل الأثقال واستخدام الروافع وتقنيات التوازن، ويا لها من مهارات تفيد من يرغب فى السطو على المقابر.

فى هذه الفترة التقى بلزونى بسارة وسرعان ما تزوجا، وكل ما نعرفه عن سارة أنها كانت عندما التقت بزوجها فى العشرين من عمرها، وأنها إما إنجليزية أو إيرلندية، وكان زواجها غير مستقر، غلبت عليه الأسفار والترحال المستمر فى أوروبا ومصر، فلم يستقرا فى مكان طوال مدة زواجهما الذى استمر عشرين عاما، لذلك لم تكن تربطهما رابطة أسرية قوية، لكن زواجهما على أى حال كان هانئاً سعيداً، وذلك لأن سارة كانت تتمتع أثناءه بحرية كبيرة فى التصرف فكانت ترافق زوجها أو تتخلف عنه حسبما يروق لها، وكان من صفات سارة الجديرة بالتنويه قوة الاحتمال للمتاعب والمشاق، وعدم الشكوى من طول الفراق، وكانت تواجه المصاعب برصانة تدعو إلى الإعجاب، ومن القليل الذى ذكره بلزونى عنها فى سيرته نستخلص أنها كانت قوية الملاحظة تحب الفكاهة والمرح والسخرية، وقد أحبها الأتراك والمصريون، وعاشت بعد بلزونى خمسين سنة، ثم ماتت فى عزلة مهيبة فى جزر القناة، بعد أن نسى الناس أمرها.

اصطحب بلزونى عروسه، وكان أمره قد اشتهر، ليقدم عروضه فى اسكتلندا وايرلندا ولندن وغيرها، وظلا يجوبان الجزر البريطانية لأن حروب نابليون عطلتهما عن السفر إلى الخارج، فلما حرر ولينتجون موانئ أسبانيا بما فيها

مدريد سنة ١٨١٢، سنحت لبلزونى فرصة السفر، ومن بطاقة سفره نجد أنه اصطحب معه تابعه الإيرلندى المخلص جيمس كيرتن بينما تخلفت سارة.

زار بلزونى فى رحلته لشبونة ويبدو أنه مثل على مسرح ساو كارلوس، ثم توجه مع تابعه إلى جبل طارق ومجالا، ثم عادا إلى لندن فى الوقت المناسب ليقدم عروضه التى سبقتها دعاية واسعة فى أكسفورد، وكانت هذه أخر العروض التى قدمها فى لندن، ونفذت العروض على مسرح البلوبور تافرن فى سانت ألديت بأكسفورد، وكان العرض يوم ٢٢ من فبراير سنة ١٨١٣ مثيراً حقاً يحتوى على: فقرة سحرية، ثم فاصل فى العزف على الزجاجات الموسيقية، ثم تشخيص لبعض أوضاع الملاكمة يحاكى فيها تماثيل مشهورة.، ثم استعراض «هرقل الفرنسى»، وفى النهاية يختتم العرض بفقرة اسمها الأجرسكوبيوس من عروض الخداع البصرى الجذابة.

بعد ذلك أخطر بلزونى دبدن بأنه سوف يغادر إنجلترا لتقديم استعراضاته بلشبونة، ولا نعلم أرافقه فى رحلته ممثلون آخرون أم لا؟ لكن المؤكد أن بلزونى وعائلته زاروا مدريد ولشبونة فى منتصف سنة ١٨١٣، وما لبثوا أن اتجهوا إلى صقلية حيث بعثوا برسائل إلى العائلة فى بادوا فى نوفمبر سنة ١٨١٤.

لم يعد بلزونى لوطنه، لأنه كان يخطط للذهاب إلى القسطنطينية، التى كانت من المراكز الترفيهية العالمية، وكان السلطان العثمانى يشجع المهرجانات الطويلة الفاخرة التى تمتد لعدة أسابيع، لذلك كان الطلب على السحرة والمصارعين والأكروبات وأصحاب الحيل لا يكاد ينقطع، وتخصص أهل بولونيا بإيطاليا فى عروض الألعاب النارية، والحيل الضوئية، وهم جيران بلزونى.

وكان من عادة السلطان العثمانى أن يعتمد على الأجانب فى الترفيه، ربما كان ذلك السبب الذى دفع بلزونى كى يجرب حظه فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، والخلاصة أن البلزونيين قرروا ـ بدلا من العودة للوطن ـ أن يعبروا مالطة متمهلين ليتوجهوا للعاصمة التركية، ولبثوا طويلاً فى فاليتا ـ حوالى ستة أشهر ـ وربما كان السبب كثرة التجوال، وفى فاليتا قام بلزونى بالتمثيل فى

أماكن غريبة، وتشاء الصدف أن يلتقى هناك بالقبطان إسماعيل الجبلطار، وكيل الباشا محمد على والى مصر، وكانت هذه نقطة التحول فى حياة بلزونى.

حكم محمد على مصر ثلاثين عاماً حفلت بتغيرات غير عادية، وكان الكثير من إصلاحاته يعتمد عليه شخصياً، وقد قال فى إحدى المرات: «كانت مصر بدائية إلى أقصى حد.. ومازالت إلى اليوم،وأرجو أن تكون جهودى قد أسهمت فى تحسين أوضاع البلد، ولو قليلاً، وعلى العموم فليس من الغريب أن تتخلف عن أوروبا»، كان العمل الحكومى يسيطر عليه الأتراك، ولكن محمد على حرص على أن تخضع الشئون المالية لسيطرته الشخصية، وكان منفذ سياسته المالية وموضع ثقته الوزير الأرمنى باغوص بك، وحرص محمد على على توازن الميزانية تجنباً للاقتراض من الخارج، لكنه استعان بالخبرة الأجنبية فى تطوير الزراعة والصناعة والنهوض بالاقتصاد.

ولسوء الحظ تعرقل الكثير من مشاريعه الطموحة، فقد صمم المهندس الفرنسى لينانت قناطر عبر النيل لتسهيل رى الدلتا حتى فى الفيضانات المنخفضة لكن المياه كانت تتسرب تحت الأساس لسوء التنفيذ، واستثمرت أموال كثيرة فى إنشاء محالج للقطن، ومدبغة، وفى بعض المشاريع التجارية، لكن الإهمال وسوء الإدارة كانتا سبباً فى تعطل المصانع، كذلك لم يكن الأهالى قد اعتادوا على العمل بالمصانع، فجرى تسخيرهم للعمل بها على غير رغبتهم. ومع ذلك فقد تمكن محمد على من تغيير الكثير من مظاهر الحياة فى مصر، مستعيناً بالخبراء الأجانب، وبالطبع، فإن هؤلاء كان منهم الصالح ومنهم الطالح.

كان التعاقد مع الخبراء عن طريق وكلاء الباشا، وكان من وكلائه أمير البحر إسماعيل الجبلطار، الذى كلفه الوالى بالبحث عن المهندسين، والخبراء الصالحين للمساهمة فى إدخال صناعات جديدة أو تحديث أساليب الزراعة التى لم تتغير منذ العصور الفرعونية.

التقى أمير البحر الجيلطار مع بلزونى أثناء وجود الأخير بمالطة، وتصادق الرجلان بسرعة، وفى إحدى المناسبات أخذ بلزونى يتكلم بإسهاب عن إمكان

صنع ساقية تؤدى إلى إحداث ثورة زراعية، إذ تعتمد فى إدارتها على ثور واحد، بالإضافة إلى أنها سهلة التركيب وعالية الكفاءة وتكاليف صنعها زهيدة، أعجب الجبلطار بحماس بلزونى وبما عرضه عليه واقتنع بخبرته فى هذا المجال، فكان أن رتب له زيارة للقاهرة كى يبنى نموذجاً تجريبياً للساقية يختص به الباشا، وغادر بلزونى وسارة وكيرتن مالطة إلى الإسكندرية بطريق البحر فى ١٩ من مايو سنة ١٨١٥، فوصلوها بعد ثلاثة أسابيع، وعندما وصلوا كان وباء الطاعون منتشراً فى المدينة، فلما نزل البلزونيون إلى البر ساروا بحذر فى شوارع المدينة وسط أكوام النفايات حتى استقروا فى بيت فرنسى، وهناك حددت إقامتهم حسب قواعد الحجر الصحى، الذى كان الوسيلة الوحيدة فى ذلك الوقت لمكافحة الوباء والحد من استفحاله.

كانت هذه البداية كئيبة بالنسبة للبلزونيين، خصوصاً أنهم أصيبوا بنزلة معوية اضطروا لإخفاء أمرها عن النزلاء حتى لا يشتبهوا فى إصابتهم بالوباء، كذلك ضايقهم العزل الصحى الاضطرارى، مع الغربة، لكن الوباء بدأ ينحسر فى يونيو فأمكن لبلزونى أن يتجول فى الإسكندرية، وتمكن من الاتصال بقنصلى بريطانيا وفرنسا اللذين أولياه اهتمامهما، وكان اهتمام القنصل البريطانى الكولونيل ميسيت محدوداً؛ لأنه كان معتل الصحة وعلى وشك ا لاستقالة من منصبه، أما قرينه الفرنسى برناردينو دروفيتى «ذو الأصل الإيطالى» فلم يتردد فى تقديم العون لبلزونى.

زود القنصل الفرنسى بلزونى بخطابات توصية لبعض ذوى الشأن فى القاهرة، واهتم دروفيتى بتصميمات بلزونى الهيدروليكية لكن يبدو أن جانباً من اهتمامه كان ينطوى على بعد سياسى، إذ نما إلى علمه أن البريطانيين على وشك إهداء الباشا آلة بخارية ومضخة مائية، وعند ظهور بلزونى كانت هذه الهدية قد وصلت فى رفقة خبير ميكانيكى إلى ميناء الإسكندرية، أما من جهة بلزونى فالظاهر أنه شاهد بعض التحف الأثرية التى يحتفظ بها دروفيتى، وسمع منه مباشرة حكايات عن مدى الإثارة والأرباح التى يمكن تحقيقها عن طريق الكشوف الأثرية.

كان بيت ميسيت - قنصل إنجلترا - ملتقى للسائحين الذين يزورون مصر - حتى فى أوقات الوباء، وعندما زار بلزونى بيت القنصل تعرف على دبلوماسى شاب اسمه وليم تيرنر كان يقوم برحلة بطيئة فى الشرق الأدنى، انتهى - تقريباً - من نصفها وأعجب ذلك الشاب اللطيف بالبلزونيين، وشرح لهم بإيجاز مسار رحلة نيلية ينوى القيام بها للقاهرة ودعاهم إلى مرافقته على ظهر زورق نيلى أجره لهذا الغرض.

وكانت تجربة الرحلة ممتعة، خصوصاً وأنها كانت أول رحلاتهم فى النيل، واستغرقت الرحلة خمسة أيام بدءًا من رشيد بحذاء الريف الغنى، وبعد حر الإسكندرية استمتع هؤلاء المسافرين بواحة رشيد، وبالنيل، وبمشاهدة مظاهر الحياة التى ظلت على ما هى عليه منذ قرون، وفى صباح اليوم الخامس من بدء الرحلة وصل زورقهم إلى - بولاق ميناء القاهرة الرئيسى، أما تيرنر فنزل ضيفا على أحد الأديرة وأما البلزونيين فتوجهوا إلى منزل هيأه لهم باغوص بك.

٧- الخبير الفهامة فى الرى

بعد الرحلة النيلية الرتيبة بحذاء سهل الدلتا المنبسط، لابد للمسافر أن يحس أن القاهرة مدينة حية عظيمة، ذات قباب ومآذن وترتفع لتظهر فوق الضباب الكثيف المتصاعد من مطابخ المساكن، وهى ـ حقًا ـ مدينة عالمية صاخبة، تبعد قليلاً عن بر النيل الأيمن تحت تلال المقطم، كانت القاهرة ـ فى ذلك الوقت ـ تحيطها الحقول وأشجار النخيل، يمكن مشاهدة الأهرام منها على البعد، وعمرها ـ الآن ـ ألف عام، وقد جددت أسوارها وقلاعها مرارًا على مر العصور، وممن جددها القائد المعروف صلاح الدين الأيوبى وقد قدر تيرنر ـ فى أوائل القرن التاسع عشر ـ سكان القاهرة بحوالى ربع ميلون نسمة، وكانت المدينة أهم المدن فى الشرق الأدنى، بعد القسطنطينية، كما كانت أكبر المراكز السياسية والتجارية فى المنطقة.

كانت القاهرة ـ كمركز تجارى ـ ملتقى للقوافل التجارية الوافدة من بلاد بعيدة فى شمال أفريقيا والشرق الأدنى، وتصل حتى تمبكتو والنيجر وحلب والهند، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، ولم يكن هناك ـ فى ذلك الوقت ـ من يخاطر باجتياز طرق القوافل منفرداً، فالصحراء الشاسعة كانت حاشدة بكمائن اللصوص، والجماعات السياسية المتصارعة، لدرجة أن القوافل نفسها كانت تتعطل فى سيرها لعدة أسابيع أو شهور أحياناً، وكان آلاف البشر يصحبون القوافل مع عائلاتهم للتجارة، ومنهم من أمضى عمره كله على هذه الوتيرة ـ

التجارة ومبادلة السلع، وكانت هذه القوافل تنعش أسواق القاهرة، فكان أصحاب السلع من قطن وكتان وحبوب.. إلخ يقفون على جانبى طرق القوافل ليقايضوها بخامات وسلع أجنبية من أفريقيا وآسيا مثل الذهب والعاج والملح والتوابل وقرن الخرتيت (منشط جنسى) وبيض النعام والمنسوجات الرقيقة والصينى وحتى العبيد.

كانت شوارع المدينة ضيقة وبيوتها متراكبة، تموج بالمارة والباعة المتجولين الذين ينادون على بضاعتهم بأصوات عالية، وكانت بها أحياء صناعية مشهورة بها دكاكين صغيرة ذائعة الصيت، من هذه الأحياء حى الصاغة حيث صياغ الذهب والفضة، ومنها حى الفخار وحى الجلود.. وغيرها، وكان من يشاء يستطيع شراء أى سلعة مادام قادراً على دفع الثمن، وفى المساء، كان الهدوء يسود المدينة، لأن الأحياء كانت تغلق أبوابها، والعنصر الغالب على معمارالقاهرة هو جوامعها الكبرى مثل الجامع الأزهر ـ منار العلم الإسلامى منذ ألف عام، ومثل جامع ابن طولون أقدم جوامع القاهرة الذى بنى فى القرن التاسع الميلادى.

كانت أفخم المبانى والجوامع مبنية بحجر الجرانيت المأخوذ من الأهرام والمعابد المصرية القديمة، وكانت مياه الفيضان تغرق ميدان الأزبكية الكبير فى شهر أغسطس كل سنة عندما يرتفع منسوب المياه فوق مستوى الشاطئ، وكان يلى الميدان مناطق شاغرة، وعموماً، كانت معظم مناطق القاهرة متداعية فقيرة أغلب مساكنها عشش وأكواخ مبنية على مثلها أقدم منها، وكانت أكوام القمامة ملقاة فى الشوارع وأفنية البيوت، ترتع فيها وتعيش عليها الحيوانات الضالة.

كان عدد الأجانب ـ فى مطلع القرن التاسع عشر ـ قليلاً معظمهم دبلوماسيون وتجار من أيام حملة نابليون ثم عدد محدود من الخبراء والسائحين، وكان هؤلاء يسكنون الحى الغربى المعزول عن باقى المدينة، وتحرسه بوابات خشبية ضخمة تغلق على السكان يومياً عند المغرب، وعند انتشار الطاعون والأوبئة وتفاقم الاضطرابات والقلاقل، وكان الذى لا يجد لنفسه مكانًا بالحى يلجأ إلى الإقامة فى بولاق التى تبعد عن القاهرة شمالاً ميلاً واحداً، فى ذلك الوقت كانت بولاق ضاحية جميلة هواؤها عليل وبها قصور غناء من أملاك والى مصر.

نزل آل بلزونى فى بيت من بيوت بولاق وفره لهم باغوص بك، ورغم الترحيب الذى قوبلوا به كانت إقامتهم غير مريحة، فقد كانت نوافذ الدار مخلوعة وبابه الأمامى بدون قفل وسقفه هش على وشك الانهيار، وقامت سارة بتهيئة الوسائد والفرش للمبيت فى أحسن بقعة وجدتها بالدار، وكانوا يأكلون وهم جلوس على الأرض، وهكذا، أخذوا يتدبرون أمرهم حتى يأتى إليهم الفرج ويتشرفون بمقابلة الباشا.

كان فى تقدير باغوص بك أن المقابلة مع الباشا سوف تتم بعد أسبوع واحد من وصولهم ولكن الأقدار شاءت أن تتعطل الزيارة، فعندما توجه بلزونى للقلعة تعرض للاعتداء من أحد الجنود الأتراك الساخطين، فأصيب فى رجله إصابة بالغة اضطرته لملازمة الفراش عدة أسابيع، وبعد شفائه تمكن من مقابلة الباشا، وتميزت المقابلة بالود، وفى هذه المقابلة شرح بلزونى اختراعه وتعهد ببناء النموذج الأول للساقية التى وصفها بأنها: «ترفع كثيراً من المياه ويديرها ثور واحد، فى مقابل السواقى المحلية التى تحتاج لأربعة ثيران». ويذكر بلزونى فى مذكراته أن «محمد على قد سره المشروع سروراً بالغاً لأنه سوف يوفر العمال وآلاف الثيران لمصر».

تأخر صنع النموذج عن موعده، وفى أثناء المهلة ثار المعسكر التركى على الوالى فاحتجب الوالى شهراً حتى أمكنه قمع الفتنة، وأثناء العصيان لم يسلم بلزونى من الاعتداء ومن تجريده من جواز سفره، وانتظر بلزونى حتى هدأت الأحوال ثم انتقل مع العائلة إلى بيت صغير فى شبرا بجوار سراى محمد على وكان البلزونيون يعتمدون فى معاشهم على معونة حكومية بسيطة، أما الساقية فقد قضى العقد على إقامتها فى حديقة الباشا بجوار قصره بشبرا.

كان وليام تيرنر فى هذه الأثناء مشغولاً بزيارة الشخصيات البارزة فى القاهرة، وفى ترتيب رحلات مختلفة داخل المدينة وخارجها، وكان ضمن البرنامج زيارة الأهرام. ودعى بلزونى لمرافقة المجموعة، التى توجهت للجيزة على ظهر الحمير فى ضوء القمر، وبعد الشروق بقليل كانوا قد اعتلوا قمة الهرم الباردة، وأخذوا ينظرون بإعجاب لمنظر القاهرة والنيل يجرى من تحتهم، وبعد الإفطار

دخلوا إلى جوف الهرم الأكبر (هرم خوفو) للاستكشاف، وفى حجرة دفن الملك أطلقوا غداراتهم، فى تسلية وتزجية لوقت الفراغ لابد أنها صمت آذانهم وأزعجتهم، ويبدو أن بلزونى فى هذه الرحلة كان مجرد زائر استهواه ما يستهوى غيره من اهتمام بالأهرام.

تأخر وصول الخامات اللازمة لتصنيع الساقية، فوجد بلزونى نفسه خالياً فترة طويلة، لذلك انضم إلى تيرنر فى رحلة أخرى زار فيها سقارة ليشاهد المقابر الأثرية المشهورة الزاخرة بالمومياوات، وزار أعضاء الرحلة الهرم المدرج وتسلقوه وهناك تناولوا الإفطار، ولم تكن معهم معدات مناسبة للحفر والبحث عن المومياوات، كذلك طلبوا من أحد الأدلاء من الأعراب أن يبحث عن مومياء لأحد عجول أبيس المشهورة، وعاد الدليل بعد نصف ساعة حاملاً جرة ضيقة مغلقة بسداده من الطين، وأكد الدليل أن الجرة بها مومياء حقيقية لطائر أثرى، فسخروا منه لأن الكثير من أمثالها وجدت فارغة قبل ذلك، وثار الأعرابى فطرح الجرة أرضاً فانكسرت وتناثر منها فتات مومياء تأكد أنها لطائر محنط، فى هذه المرة كان الأعرابى صادقاً.

كانت هذه الرحلات القصيرة أشبه بالاستراحة بالنسبة لبلزونى أثناء تعطل مشروع الساقية، وكانت أسباب التأجيل متعددة، فقد مرض كبير مهندسى الوالى، كذلك لم يتوفر الخشب الجيد المناسب لصنع الساقية، ومن جهة أخرى تأخر صدور التصريح ببناء الساقية، وكان وراء ذلك بعض البيروقراطيين الرجعيين المعارضين للمشروع، فقد كانوا يقفون فى وجه كل جديد، بخلاف الوالى نفسه الذى كان يقدر الأساليب الغربية فى تنفيذ المشروعات.

بعد الأعطال والأعذار أمكن تصنيع الساقية فى ظرف أربعة أشهر، وأخيراً، استقر الرأى على تجربة الساقية فى منتصف سنة ١٨١٦، وحضر بلزونى أمام الباشا وخبرائه فى شئون الرى ليشرف على التجربة فى حدائق القصر حسب الاتفاق، وركبت الساقية بجوار ست سواق من الطراز المعتاد، وربط الثور بالساقية الجديدة وتحرك لإدارة عجلة الساقية، وسال الماء غزيراً يروى حديقة الباشا بصورة لم تستطع السواقى العادية مجاراتها، وشهد الوالى ومن معه من

الخبـراء أن مـضـخـة بلزونى ذات كـفـاءة تعـادل كفـاءة أربع من السـواقى العـادية، ولسـبـب مـا خطر للوالـى أن يجـرب وضـع أحـد الـرجـال مكان الثـور فـى سـاقـيـة بلزونى، فتطوع لذلك بعض الأعراب المتحمسين وكيرتن الأمـين تابع بلزونى، وفى مبدأ الأمـر نجحت التجـربة لكن الأعـراب قفـزوا منهـا فـجأة تاركين كيرتن وحده داخل السـاقية، فـاختل توازن الآلة بشدة فـطرحتـه خارجا بقـوة تسـببت فى كسـر سـاقه، فكان القـرار أن السـاقية خطرة مميتة وبذلك فشل المشـروع، وتبخرت آمال بلزونى فى مواصلة العمل كخبير فهامة فى شئون الرى.

٨- ممنـــون الصغيــر

وصل هنرى سولت قنصل بريطانيا الجديد إلى مصر فى هذه الأيام، وكان مع القنصل نسخة من مذكرة أعدها قسم الشئون الخارجية التابع له ملتون بخصوص الاثار المصرية، وكان أهم ما يشغل بال القنصل الجديد العثور على مثيل لحجر رشيد فى أسرع وقت، وتصادف أن وصل القنصل إلى بولاق فى موسم مرض الطاعون فوضع تحت الحجر الصحى، وبالصدفة كان عزله فى البيت نفسه الذى سكنه آل بلزونى من قبل، وهنا تعرف على الشيخ إبراهيم وهو رجل طويل أصابته الشيخوخة قبل الأوان، وكان الشيخ إبراهيم يبدو غريباً فى كل تصرفاته لكنه فى واقع الأمر كان مستشرقا سويسريا اسمه الحقيقى يوهان لودفيج بورخارت.

وبورخارت من كبار المستشرقين ومن علماء اللغة، ومن المتخصصين فى الكيمياء، وكان فوق ذلك من هواة الرحلات، وأثناء حروب نابليون فقد عائلته مما دفعه إلى الهجرة من سويسرا إلى إنجلترا، وفى لندن درس اللغة العربية فى كامبردج.

بعد ذلك قدم نفسه للسير جوزيف بانكس رئيس الجمعية الأفريقية وكانت قد شكلت حديثاً وعرض عليه فكرة استكشاف نهر النيجر إذ كان مثار جدل الجغرافيين فى ذلك الوقت، ووافقت الجمعية على الفكرة وأعانته إعانة مالية

بسيطة كى ينفذها واشترطت عليه أن يمضى فى سوريا سنتين أولاً لإجادة اللغة العربية وبعدها يتوجه إلى وسط أفريقيا مع القافلة التى تقصدها.

وبالفعل تمكن بورخارت من اللغة العربية وحفظ القرآن وتفقه فى الشريعة الإسلامية.

وفى سنة ١٨١٢ رحل إلى القاهرة بحثاً عن قافلة عابرة للصحراء إلى فزان وغرب أفريقيا، ونظراً لندرة مثل هذه القوافل قرر أن يشغل وقته برحلة نيلية حتى دنقلة فى قلب النوبة، بعدها قام برحلة إلى البحر الأحمر، ونظرا لقربه من مكة قرر أن يزورها ويؤدى فريضة الحج ثم يزور قبر النبى ﷺ بالمدينة، بعد ذلك عاد إلى القاهرة فى الفترة نفسها، التى وصل إليها فيه تيرنر وبلزونى.

هذه نبذة مختصرة عن بورخارت المستشرق المثابر، المتعمق فى دراسة حضارة الإسلام، والخبير بوادى النيل، وقد ترك لنا بورخارت كثيراً من المذكرات والرسائل جمعت فى كتب بعد ذلك ودلت كتاباته على ولعه بوصف كل كبيرة وصغيرة، وكان بورخارت أول أوروبى فى العصر الحديث يزور معبدى أبى سنبل الرائعين.

عند أول وهلة لم يؤثر منظر أبى سنبل فى نفس بورخارت، لأنه هبط إليه من علو فشاهده من فوق الصخور، ولكنه لما ركب المركب صاعداً فى النيل مدة وجيزة انكشف له منظر تمثال من تماثيل رمسيس الأربعة التى فى واجهة المعبد، وكانت التماثيل مدفونة فى الرمل لا يظهر منها سوى الرأس الذى شاهده بورخارت، وحدس بورخارت أنه «إذا أزيلت الرمال فسوف نجد معبداً كبيراً» وأعجب بورخارت بالرأس المدفون أيما إعجاب وقال: «إنها رأس رجل فى ريعان الشباب وهى نموذج يمثل الجمال الإغريقى بصورة تفوق أى تمثال فرعونى رأيته».

جعلت رحلات بورخارت ومشاهداته من الرجل رفيقاً مسلياً ومفيداً للمغتربين فى مصر، وكان بلزونى يلجأ إليه إذا احتاج للمشورة، ومن بورخارت سمع بلزونى لأول مرة عن أبى سنبل والتماثيل المدفونة فى الرمال ولكن الذى أثار اهتمامه

أكثر ـ ما ذكره بورخارت ـ أنه شاهد أثناء تجوله فى طيبة رأس تمثال ضخم فريد من الجرانيت اسمه « ممنون الصغير» موجود فى مكان مهجور بجوار معبد يسمى معبد ممنون على البر الغربى للنيل، والحقيقة أن أمر التمثال معروف من قبل، فالرأس لرمسيس الثانى وقد سبق أن وصفها هاملتون فى أحد كتبه عن الآثار المصرية بأنها «أجمل وأكمل قطعة أثرية فى مصر». وتنبه الفرنسيون لأهميتها وحاولوا نقلها فلم يفلحوا.

سمع بورخارت هذه الحكايات من الأهالى وخطر له ـ دون حماس ـ أن يتولى نقل التمثال، ثم آثر أن يعرض على الباشا إهداء الرأس لولى عهد إنجلترا، لكن محمد على لم ترق له الفكرة وتساءل «أى ملك هذا الذى يريد أن يقتنى قطعة حجر؟» ويبدو أن بورخارت ذكر ذلك كله لبلزونى الذى لم يعره اهتماماً حتى حدثت كارثة الساقية فأخذ يفكر فى مجالات أخرى للعمل.

عندما تحطمت آمال بلزونى فى تنفيذ مشروع ماكينة الرى وجد نفسه صفر اليدين، هنا تذكر موضوع الرأس فاتصل ببورخارت وعرض عليه فكرة نقل الرأس، ورغم حماس بورخارت لتنفيذها إلا أنه لم يستطع تحمل مصاريف العملية والنقل إلى إنجلترا، أما سولت فإنه رحب بالفكرة وصاح: « إنها والله منحة من الرب». وسرعان ما استصدر الفرمان اللازم للعملية. وكان تكليف بلزونى بالعملية كتابيا، ومن تعليمات سولت له أن: «يجهز المعدات اللازمة للعملية فى بولاق، وأن يكون نقل التمثال بالطريق النهرى».

وضمن الخطاب توجيهات تتعلق بالعمال والبحارة وتكاليف العملية، وفى نهاية الخطاب يركز سولت على ضرورة تمييز الرأس وعدم الخطأ: «يجب عدم الخلط بين رأس ممنون وأى رأس بجواره».

أقبل بلزونى على إعداد العملية بحماس شديد، فقام باستئجار مركب، وطاف ببولاق والقاهرة بحثاً عن الروافع المناسبة فلم يوفق فى الحصول سوى على بعض الصوارى والحبال المصنوعة من ألياف النخل، ودله ذلك على أنه لا مناص فى أمر الروافع من الاعتماد على الخامات المحلية فى موقع العمل، فحزم أمره

وأبحر فى ٣٠ من يونيو سنة ١٨٣٦ مصطحبا معه سارة وتابعه الأمين وأحد المترجمين من القبط.

كانت هذه أول مرة يغادر فيها بلزونى القاهرة فى رحلة إلى الصعيد، لذلك كان يتوقف ـ أحياناً ـ ليشاهد بعض البلاد فى الطريق، ووصلت مركبهم إلى منفلوط بعد ستة أيام، وهناك التقوا بالقائد إبراهيم باشا ابن الوالى ومعه مرافقيه، ومعهم كثير من الآثار التى جمعوها من طيبة، ورحب إبراهيم باشا ببلزونى، وكان على علم بموضوع نقل الرأس، وكان دروفيتى بصحبة القائد فحذر بلزونى من احتمال رفض الأهالى التعاون معه، لكنه دله على موضع غطاء تابوت حجرى راقد هناك، وأبدى رغبته فى التنازل عنه لبلزونى ـ بدون سبب مفهوم، والعجيب أن الهدية وجدت محشورة داخل مقبرة صخرية بطيبة، بشكل لا يمكن معه زحزحتها بأى حال.

فى أسيوط زار بلزونى «البك» ـ الحاكم المحلى ـ وقدم له خطاب توصية، لكن العراقيل وضعت أمامه: ليست هناك مراكب ولا خامات ولا نجارين والتمثال ردىء، والعمال ممنوع استئجارهم، ثم إن البك قال بصراحة أكثر: «إنه لا داعى للمضى فى العملية، لأنك ستواجه بما تكره، وتعترضك شتى العوائق». وهذا من عمل دروفيتى الذى كان طمع فى الاستحواذ على التمثال.. لكنه لم يتنبه لعناد بلزونى وصلابته.

وفى ١٨ من يوليو كان آل بلزونى فى دندرة، فزاروا معبدها الجميل ـ الذى أبدع دينون ـ من قبل ـ فى وصفه، وشاهدوا فى المعبد دائرة الأبراج السماوية المرسومة على سقفه، ووجدوا السكان قد بنوا قرية كاملة فوق سطح المعبد، ويبدو أنهم لم يكترثوا بالآثار ولا قبور الموتى، واجتاحت بلزونى موجة من السعادة وهو يتجول عبر عنها بقوله: «لقد كنت أشعر بأننى فى مدينة من مدن الشياطين المردة.. تصارعوا حتى أفنى بعضهم بعضاً، وخلفوا أنقاض معابدهم كشاهد وحيد على وجودهم يوما ما».

بادر بلزونى بمعاينة رأس ممنون والتعرف عليها، فهى هدفه الرئيسى فوجدها: «مجاورة لبقايا جسمها وكرسيها، ووجهها ينظر إلى كما لو كان يسخر

منى ومن رغبتى فى نقلها إلى لندن». وهاله الرأس عند مرآهها لأول وهلة، ولم يكن معه من الأدوات سوى ١٤ صاريا (قوائم خشبية) وأربعة من الحبال المصنوع من ليف النخيل، وأربعة درافيل، ولم يكن معه روافع، كذلك لم يكن بإمكانه الحصول على الخشب لخلو المنطقة منه، وكان ذلك موقفا يبعث على الإحباط.

ورغم ذلك أقام بلزونى معسكره بين حجارة المعبد المنهارة، وأعطى بلزونى النجار الذى يصحبه ثمانية من القوائم الخشبية الأربعة عشر التى معه، وطلب منه أن يصنع منها عربة، وفى أثناء صنع العربة كان بلزونى مشغولا بجس النهر وقياس مستوى الماء به، فقد كان يعرف أن الفيضان سوف يصل إلى المعبد بعد شهر، وأنه إن لم ينقل الرأس قبل ذلك فقد تتأجل العملية كلها سنة كاملة، وهذا موقف حرج خصوصا وأن هناك من يطمع فى التمثال غيره.

تبين لبلزونى أن دروفيتى كان ضالعا فى العملية، فحث العمدة التركى، الذى قابل بلزونى بكل أدب، على عدم التعاون معه، لذلك تحجج العمدة بانشغال الفلاحين بالزراعة، ثم تحجج بأنهم فى رمضان وأنه شهر الصوم، وطلب من بلزونى الانتظار حتى ينحسر الفيضان، وأخيراً، ادعى صراحة أن الفلاحين لن يتعانوا معه، لأنهم يفضلون الموت جوعاً على القيام بهذا «العمل» المرهق، وبعد مساومات عدة استخدم بلزونى سلاح الرشوة الذى لا يخيب، وأن للعمل أن يبدأ.

أسعفت حيل «شمشون الجبار» صاحبها بلزونى فى كل أموره، وكانت أول المشاكل التى واجهته وضع الرأس فوق العربة التى صنعها النجار، وسرعان ما وجد الحل المناسب، فأمر بوضع أربع روافع تحت الرأس الثقيل ليرفعها لأعلى ويدفع العربة تحتها، وبعد ذلك رفع العجلة من أحد طرفيها ودحرج تحتها زوجا من الروافع، واندهش الأهالى عندما تمكنت الروافع من تحريك الرأس، وظنوا ذلك عملاً شيطانياً، فصاحوا صيحة عظيمة، وفى ذلك يقول بلزونى: «رغم أن العمل نجح بجهدهم، فقد أصروا على أن ذلك من عمل الشيطان، فلما رأونى أسجل مذكراتى ظنوا أنه «السحر» وأن «تعويذتى» هى سبب النجاح».

الخطوة التالية كانت سحب الرأس مسافة طويلة إلى شط النيل، ففى اليوم التالى لتحميل الرأس على العربة أخرجها من المعبد، اضطرته العملية لتكسير قاعدتى عمودين من أعمدة المعبد لتخليص العربة ورغم الحرارة والإجهاد أمكن السير بالعربة مسافة ٢٠٠ ياردة فى يومين، حتى وصل إلى مكان وجد فيه الأرض تحت العربة رخوة، فاضطر لتحويل مسارها مما زاد المسافة ٣٠٠ قدم أخرى.

سارت الأمور بشكل طيب حتى ٥ من أغسطس، عندئذ وصلت العربة وفوقها التمثال إلى أرض منخفضة يوشك ماء الفيضان أن يغمرها، وحضر بلزونى فى الصبح ليجد العربة والحراس، ولكن لا عمال. اتضح أن الكاشف منع العمال من خدمة «كلب» أجنبى، وقامت مشادة بين الرجلين وتماسكا وكان النصر لبلزونى مما أدهش الكاشف، ولم يجد بلزونى بدا من التهديد بالشكوى إلى الباشا، وكان لذلك التهديد أثره فاستؤنف نقل الرأس فى اليوم التالى بلا تأخير.

بعد خمسة أيام من العمل المضنى وصل الرأس إلى الشط بأمان، وكافأ بلزونى عماله بمنح كل منهم ستة بنسات فوق الأجر المتفق عليه، فسرهم ذلك سروراً بالغاً.

كان المطلوب بعد ذلك إيجاد مركب تحمل الرأس، ولكن الوالى كان يستخدم كل المراكب، وأرسل بلزونى إلى سولت ليرسل له واحدة إلى طيبة، وفى انتظار وصول المركب أقام بلزونى حاجزاً ترابياً حول العربة المحملة بالتمثال، ووفر الحراسة حول المكان.

ولم يشأ بلزونى أن يضيع وقت الانتظار بدون عمل، لذلك التفت إلى موضوع التابوت الذى أهداه له دروفيتى، كان هذا التابوت راقداً فى قلب مقبرة منقورة فى التلال التى خلف القرية. وهى من المقابر المشهورة بجودة ماتحوى من المومياوات.

واصطحب بلزونى معه دليلان أعرابيان ليرشداه إلى المكان ويحرساه، واضطر بلزونى إلى نزع ثيابه وإشعال بعض الشموع، ثم الانزلاق فى شق طويل وسط

الصخور للبحث عن التابوت وقد حاول الدليلان تضليله ـ سعياً وراء مزيد من الأجر ـ لكن بلزونى وفق فى العثور على التابوت بالصدفة فأبطل كيدهما.

وكلف بلزونى، بعض الرجال بتنظيف الممرات الموصلة للتابوت وإخلائها، لكن بلزونى فوجئ بعد ثلاثة أيام بأن الكاشف وضع هؤلاء العمال فى السجن «مصفدين فى الأغلال مثل اللصوص». واتضح أن ذلك كان بتحريض وكلاء دروفيتى الذين وصلوا من الإسكندرية وحسدوه على نجاحه، وأنذر الكاشف بلزونى بأن التابوت قد اشتراه دروفيتى وبذلك يعتبر الموضوع منتهياً، وفى مذكراته يذكر بلزونى أنه عند ذلك. «تظاهرت برباطة الجأش، وبعدم مبالاتى بموضوع غطاء التابوت وعدم اهتمامى بالعمال المسجونين، وبدأ الكاشف فى المراوغة، ثم بدا له أن يعرض على أنه بصدد استشارة رؤسائه بالقاهرة، ثم وجه اهتمامه نحو أشياء أخرى».

٩ـ رحلة إلى النوبة

أثناء فترة الانتظار رأى بلزونى أن من المناسب أن يواصل الرحلة جنوبا حبًا للاستطلاع ورغبة فى شراء المزيد من التحف والآثار، وكان ذلك متيسراً لأنه كان يستطيع التنقل بالمركب التى تصحبه دون زيادة فى الأجر، ومن الطبيعى أن يحاول استكشاف المنطقة خلف طيبة، مادام تمثال ممنون مستقراً فى مكانه على الشط، وما دامت مشكلة التابوت الحجرى لم تحل.

الرحلة من الأقصر جنوباً إلى الشلالات كانت مملة، يمرفيها المسافر عبر أراض زراعية شاسعة، تتجمع قراها فى المرتفعات احتياطاً من فيضانات شهر أغسطس، ولكن آل بلزونى أستمتعوا بها حيث حفلت بالمشاهدات والمغامرات، وزاد من بهاء الرحلة رسوهم نيلاً فى بعض المدن الصغيرة والقرى لزيارة مشايخهم ودعوتهم للصعود إلى ظهر المركب.

وإبعاداً للضيق والملل عرجوا على كوم أمبو بأسوان وجزيرة إلفنتين لزيارة ما بها من معابد أثرية وكنائس قبطية، ولم ترق إلفنتين لبلزونى لأنها لم تكن كما صورها له خياله عندما قرأ ما كتبه غيره من السائحين عنها، ولعل جانبًا من ضيقه بها كان بسبب مشاكل العبور إليها، فقد كان القارب الذى عبروا به مصنوعا من الحصير وليف النخل، لا يزيد طوله على عشرة أقدام وعرضه لا يتعدى خمسة أقدام، وانحشر فى القارب الصغير تسعة أشخاص منهم بلزونى

المعروف ببدانته،ويذكر بلزونى أن القارب حتى وهو جديد لا يساوى أكثر من اثنى عشر قرشا، وربما ستة شلنات».

ينكسر هدوء النهر عند الشلال الأول فى أسوان، وقد أستأجر بلزونى قارباً آخر هناك لنقله إلى فيلة وداخل النوبة، ودخل الأغا المنطقة فى مساومة مع بلزونى حول أجرة المركب، دون أن يفطن إلى أن بلزونى مساوم صلب، لذلك استطاع استئجار القارب حسب قوله: «بالأجرة نفسها التى يدفعها أى نوبى محلى»، والخلاصة أنه دفع ٢٠ دولاراً أجرة الذهاب والعودة، وكان الأغا قد طلب فى البداية ١٢٠ دولاراً.

كان الوصول إلى فيلة فى ٢٧ من أغسطس، ويصف بلزونى لحظة الوصول بقوله: «وقفت قبل طلوع الشمس بمدة عندمؤخرة المركب لأشاهد منظر جزيرة فيلة الجميلة عند الشروق، فلما شاهدتها وجدت جمالها فوق ما يتصوره العقل». ولكنهم لم يلبثوا بها كثيراً لأن التيار كان مواتياً، فقرروا مواصلة الرحلة جنوبياً وفى نيتهم أن يتوقفوا بها وقتاً أطول فى رحلة العودة.

وما لبث آل بلزونى أن وجدوا أنفسهم فى أرض غريبة، ليس للوالى عليها سوى سلطة رمزية، وحدث أنهم بعد مغادرة فيلة بيوم واحد تعرضوا لأحد حوادث العنف، فقد تجمع عدد من الأهالى حول المركب، وكان بعض من فيها على الشاطئ، ثم بدأ عدد من المسلحين بالحراب يحومون حول المركب، وكان آل بلزونى ومترجمهم وحدهم على ظهرها، فما كان منهم إلا أن حملوا الغدارات تحسباً لأى طارئ، وصاح فيهم بلزونى ليبتعدوا، «وتقدمت، وبيدى اليمنى منعت أولهم من صعود المركبة، وكانت غدارتى فى شمالى فصوبتها نحوه، وأومأت إليه أن يبارح وإلا أصبته»، وللمرة الثانية نجد أن سرعة تصرف بلزونى قد حسمت الموقف ودفعت عنهم شر.

ولعدم معرفة بلزونى بهذه البلاد اعتمد على مذكرات بورخارت، وقد واصلوا الرحلة إلى كلابشة بحثاً عن الآثار، وفى كلابشة زاروا معبداً قريباً من النهر، وعند مغادرتهم المعبد تجمهر حولهم الأهالى للتسول، لكن بلزونى هب واقفاً

وردعهم وأفهمهم أن التهديد لا يخيفه، ومضى فى سبيله بثبات، ثم هدأت الحال فساومهم بلزونى واشترى منهم بعض الحجارة المقبرية المنقوشة بنقوش يونانية.

كانت محطتهم التالية بعد كلابشة بلدة الدر عاصمة النوبة السفلى، وهى قرية وصفها بلزونى بأنها «مجموعة بيوت مبنية بالطين والحجر»، ووجدوا فى الدر حسن الكاشف، وهو أحد ثلاثة اخوة يحكمون النوبة فيما بينهم، وحيا الكاشف متوجساً، وحذرهم من مواصلة الرحلة لوجود قلاقل بعد الدر، وكان بلزونى يعلم سلفاً أن أهالى الدر مشغوفون بالمرايا والفصوص الزجاجية، ومن حسن حظه أنه لم ينسي أن يحمل معه بعضا منها، فلما أهدى بلزونى إحدى هذه المرايا لحسن الكاشف، أعجب بها كثيراً، وما لبث أن أعطى بلزونى خطاب توصية إلى أخيه التالى له جنوباً، ويقول بلزونى مبدياً سروره: «لم يكف الكاشف عن المباهاة بوجهه الذى يشبه وجه الدب فى المرآة، وحتى الأهالى تسابقوا لاختلاس النظر فيها والإعجاب بصورهم السمراء».

واتجهوا إلى أبى سنبل فوصلوها بعد يومين، وهذه كانت أهم أهداف الرحلة، فقد حدثه بورخارت قبل ذلك بثلاث سنوات عن تماثيل معبد أبى سنبل الجميلة، وكان يتحين الفرصة لمشاهدة هذه التماثيل العملاقة، وكشف المعبد المردوم خلفها.

أعجب بلزونى بمنظر إفريز المعبد لكبير وتماثيل القردة الستة الضخمة عندما أشرف عليها من بعيد، وأخذ بلزونى يتسلق المنحدر الرملى حتى ظهر له تمثال اعتقد أنه للإله حور ـ أختى، صاحب الرأس الصقرية وحدس بلزونى أن التمثال فوق اسكفة باب المعبد تماماً، وقدر أن الباب موجود على عمق ٣٥ قدماً من الرمال الناعمة التى تغوص فيها الأقدام.

بعد هذه الزيارة توقف آل بلزونى عند قرية أبى سنبل القريبة، هناك كان العمدة داود الكاشف وبعض رجاله بين الأشجار، وكان داود هذا رجلاً فى الخمسينيات من عمره يلبس «عباءة زرقاء، ومعمماً بمنديل أبيض»، أخذت العمدة المفاجأة، فحيا الضيوف بجفاء، واستفسر العمدة من بلزونى عن سبب

حضوره، فأخطره برغبته فى البحث عن حجارة أثرية، وعزمه عل الكشف عن المعبد المردوم وفتحه، لما سمع العمدة ذلك انفجر ضاحكاً بسخرية، فهذه قصة مكررة سبق لأجنبى آخر أن رددها على سمعه، لكن هذا الأجنبى سطا على ذهب كثير بدلاً من ذلك.. المقصود إذا هو الذهب؟

ولجأ بلزونى إلى الصبر ليوضح للعمدة أنه يجرى وراء الاثار ومن بنوها ولا علاقة له بالذهب، وأفاده الكاشف أن الأهالى لن يعاونوه فى ذلك لأنهم لا يهتمون بالمال، الذى يظنون أنه لا ينفعهم، فأخرج بلزونى من جيبه قرشاً واحداً أعطاه لأحد الأهالى وطلب منه أن يتوجه للمركب ويطلب من الريس أن يبيعه به قمحاً، وعاد الرجل حاملاً غرارة قمح كاملة ـ تكفيهم ثلاثة أيام فلما رأى الأهالى مفعول القرش الواحد آمنوا كلهم بسحر النقود.

نجح بلزونى فى تأجير العمال بأجر يومى مقداره قرشان لكل عامل، وغمره السرور عندما علم أن غريمه دروفيتى ترك مع الكاشف ثلاثمائة قرش لفتح المقبرة لكنهم ردوها إليه لأن الأهالى لا يستعملون النقود، بعد أن رتب أموره فى أبى سنبل اتجه إلى أشكيت التى تبعد عنها يوما ونصف وذلك للاتصال بالأخ الثالث، حسين الكاشف للحصول على التصريح.

وأثناء الرحلة توقف آل بلزونى عند بعض القرى التى تقع تحت الشلال بالضبط، فوجد أهلها بدائيين لا يملكون من حطام الدنيا سوى «كانون للطهى، وحصر للنوم»، واختار بلزونى من هؤلاء اثنين يدلانه على كيفية الصعود للشلال، وكادت المركب تتحطم فى الدوامات لكن أمكن تفادى الكارثة واستقرت المركب على البر، بعد ذلك تسلقوا فوق صخرة وشاهدوا منظر الشلال الرائع، الذي عبر عنه بلزونى: «كانت نظافة الحجارة وخضرة الأشجار على الجزر، مع الماء المتدفق قد كونت مشهداً رائعاً، يستحيل وصفه ورسمه».

كان حسين الكاشف رئيساً مبجلاً فى السبعين من عمره، وكان ينتظر بلزونى فى جمع من الحراس، ولم يبد الكاشف استغرابه عندما أخطره بلزونى برغبته فى فتح المعبد، رغم اعتقاده باستحالة ذلك، لم يجد بلزونى مشقة فى الحصول

على التصريح، بشرط حصول الكاشف على نصف الكنوز المكتشفة، ولم يبد بلزونى أى اعتراض، فقد كان واثقاً تماماً، كما حدث فعلاً، أن الكنز المزعوم ليس إلا بعض التماثيل.

أسرع بلزونى بالعودة إلى أبى سنبل، ففوجئ بعصيان الأهالى ورفضهم العمل، وأصابه الإحباط وهدد بإلغاء المهمة ومغادرة المكان، ولما أحس الكاشف أن مصدر الكسب الضخم على وشك التبخر، عاد إلى أسلوب المساومة، واستقر الأمر على تزويد بلزونى بأربعين رجلاً فى اليوم التالى، لكن أحدا منهم لم يحضر، وحرص بلزونى الكاشف على جمعهم بالقوة، بعد ذلك استقر الحال وبدأ العمل، وجرى العمل إلى أساس ثنائى، يترافق فيه كل اثنين لتنظيف المنحدر المؤدى لواجهة المعبد باستخدام عصى طويلة تنتهى بقطع خشبية مستعرضة تسهيلاً لإزالة الرمال (أشبه بالمقشة) وكان نشاط العمال ملحوظاً لطمعهم فى ظهور الذهب، ثم حدثت بعد ذلك دسائس لابتزاز الزوار فتراخى العمل، فلجأ بلزونى كالعادة إلى رشوة شقيق الكاشف فوافق على استئناف العمل، نظير صرف كمية إضافية من الحبوب للعمال.

وحرص بلزونى على صنع حاجز من سعف وفسائل النخيل عند المكان الذى ظنوه مدخلاً للمعبد، حماية له من الردم بالرمال، فى اليوم التالى حضر ثمانون عاملاً قبلوا العمل بنصف الأجر المتفق عليه، وبعد انتهاء العمل تسلم أخو الكاشف أجرهم بنفسه، ولم يعطهم منه شيئاً، وتعجب بلزونى كثيراً من هذا الأسلوب.

فى هذه الأثناء وقعت حادثة مكدرة، فقد صعد المركب لصان للسطو عليها، ولم يكن بها سوى سارة ومعها صبية صغيرة، وكما قال بلزونى إنهما «تحرشا بها، لكنها أشهرت غدراً فى وجهيهما، فهربا نحو التل، ولم يمكن التعرف على هذين اللصين لأنهما «يشبهان باقى الرجال السمر، الجالسين على الرمل فى انتظار العمل».

أخذ المال ينضب من بلزونى، وتأكد أن كشف باب المعبد بحاجة إلى زيارة أخرى، وكان عدم خبرة بلزونى بأثر النقود على الأهالى من أسباب نفاد ما معه،

وكانت حصيلة الرحلة الكشف عن ٢٥ قدماً من مقدمة المعبد، وتمثالين من تماثيل المعبد الضخمة، وبقيت ١٥ قدماً أخرى مدفونة ـ حسب حسابات بلزونى، فقام بلزونى بوضع علامات تحدد المكان، ووعده الكاشف بعدم تمكين أحد من الاقتراب منها حتى يرجع بلزونى بعد عدة أشهر، والحق أن بلزونى لم يكن واثقاً من أمر الكاشف لكنه قامر على الأهالى لثقته بأنهم حريصون على حماية الحدود لمصلحتهم الشخصية.

بعد ذلك بدأت رحلة العودة وسارت المركب مع التيار نحو الشمال (أى باتجاه الوادى)، ووجد بلزونى وقتاً ليزور فيلة ويشاهد معابدها الجميلة، وفى فيلة شاهد مسلة خطر على باله أنها جديرة بالعرض فى أى ميدان أو مكان مناسب فى لندن، وكان طول المسلة ٢٢ قدماً وعرضها قدمين، لذلك بدا من السهل نقلها مباشرة إلى القاهرة إذا توفرت له مركب كبيرة عند ارتفاع الماء لدى الشلال الأول، ولم يتأخر بلزونى عن مقابلة أغا أسوان، ونجح فى الحصول على موافقته بالحصول على المسلة ونقلها باسم «ممثل بريطانيا، وقنصلها العام بالقاهرة».

وجد بلزونى فى معبد صغير فى الطرف الجنوبى للجزيرة مجموعة مكونة من اثنتى عشرة كتلة حجرية منحوتة ومنقوشة بعناية، بحيث إذا ضمت معاً تعطى مشهداً كاملاً يصور «الإله أوزيريس جالساً على العرش أمام مذبح، يتقبل القرابين من بعض الكهنة والنساء». وكان سمك الكتلة الواحدة ثلاثين بوصة، مما يجعلها ثقيلة لدرجة يستحيل عليه معها أن ينقلها فى مركبه، لذلك اتخذ بلزونى الإجراءات المناسبة لصيانتها وحراستها حتى تسمح الظروف فى فرصة أخرى بنقلها، بعد ذلك عاد بلزونى لمعسكره فى أسوان وأخذ يبحث عن مركب أخرى.

لم يعثر بلزونى على مراكب لأن الأغا أخفاها ليعطل السائحين حتى يمكثوا بالمدينة مزيداً من الوقت. وفكر بلزونى فى استئجار بعض الجمال، لكن الأغا يبدو أنه راجع نفسه فوافق على أن يعطيه إحدى المراكب التى أخفاها نظير أجر فادح، وكانت هذه إحدى المرات القليلة التى فشلت فيها تكتيكات بلزونى، ولم يكن بلزونى مخيراً فى ذلك، لأن الفيضان كان فى طريقه إلى الانحسار، فكان لابد من نقل ممنون الصغير قبل أن ينتهى الفيضان.

لم تكن بالأقصر - أيضاً أى مراكب، إذ كانت كلها فى خدمة الباشا، لكن الحظ حالف بلزونى حيث وصلت يوم ٧ من أغسطس مركب كبيرة تقل وكيلين من وكلاء دروفيتى فى طريقهما إلى أسوان فحجزها بلزونى لرحلة العودة، وأرسى المندوبان المركب قرب رأس ممنون، لكن الحراسة عليها كانت مشددة، وحاولا إشعال الموقف بقولهما «لو كان فيها خير لما تركها الفرنسيون، إنها لا تستحق عناء النقل».

تبع المندوبان بلزونى إلى القرنة وفى حضوره جمعوا الأهالى وحذراهم من بيع أى آثار للإنجليز، وإلا شكوا لأغا أرمنت وحثاه على ضربهم بالسياط، كذلك تهور أحد البحارة وهدد بلزونى بأن منافسيه سيقطعون رقبته وكالعادة، لم يعبأ بلزونى بالتهديد ومضى فى برنامجه، وزاد عليه تكليف عشرين رجلاً بالحفر والبحث عن الآثار فى مكان مختار بالكرنك.

المعروف أن الكرنك فى العصور القديمة كان مركزاً سياسياً واقتصادياً له شأنه، وقد أغدق عليه الفراعنة وزودوه بكثير من التماثيل والأعمال الفنية الجميلة، وكانت أفنية معابد الكرنك أشبه بمناجم الذهب لدى الباحثين عن الآثار فى القرنين الأخيرين.

لا ندرى أين أجرى بلزونى حفائره، ويرجح أنها كانت فى فناء معبد موت، وأفلح بلزونى بعد أيام قليلة فى الكشف عن مخبأ يحتوى على تماثيل جرانيتية للربة سخمت ذات الرأس الأسدية، زوجة الإله بتاح، ومعها تماثيل أخرى نادرة، وكان الحفر بالكرنك فى ذلك الوقت مجزياً على أى حال، لذلك كان العنصر الوحيد الذى يحدد لبلزونى حجم العمل ما بحوزته من الأموال.

زاد نجاح بلزونى من غضب مندوبى دروفيتى، خصوصاً، عند فشلهما فى إيقاف نشاطه، وزاد من غيظهما عناد هذا الإيطالى وإصراره على معاودة الحفر، دون أن يتمكنا من تأليب العمال عليه، وكان أهل الكرنك على عكس أهل القرنة متلهفين إلى العمل، ومن حسن حظ بلزونى أن حاكم الإقليم خليل بك الذى يمت للوالى بصلة قربى كان موجوداً فى الأقصر فى ذلك الوقت، وتسنى لبلزونى أن

يتناول الغذاء معه، وكان الطعام يتكون من لحم متبل بالفلفل والبصل والثوم، وكانت الخدمة سيئة، وأصوات الخدم عالية«كالقرقعة» واستغرب خليل بك من حرص الأوروبيين على البحث عن «الحجارة». لكن بلزونى ردا عليه إدا دبلوماسياً: «لدينا من الحجارة الكثير، لكن الحجارة المصرية أجود » وكان لهذه العبارة السحرية وقعها فى نفس خليل بك، فأعطى بلزونى الفرمان الذى طلبه.

وفى فترة انتظار وصول المركب والنقود من القاهرة عبر بلزونى النيل إلى البر الغربى وزار وادى الملوك المعزول وراء القرنة، وقد أعجبته المعابد بدير المدينة، وشاهد المقابر الملكية المفتوحة التى كان السائحون يترددون عليها منذ العصر الرومانى، وعاينها معاينة دقيقة وفحص كل المنحدرات بصورة لم يسبقه إليها أحد، وعثر فى نهاية الطرف الجنوبى على كثيب من الحجارة بينها محشوة بالرمل والحجارة، ولما جسها بعصاه لم يجد أى عائق، فعاد فى اليوم التالى ومعه بعض العمال وشرع فى الحفر، وبعد ساعتين عثر على مقبرة فاخرة، فدخلها ووجد فيها بقايا تابوت حجرى و«صورا جدارية غريبة وجميلة» وثبت أن هذه مقبرة الملك أى، الكاهن الذى حكم مصر بعد توت عنخ آمون مباشرة، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واعترف بلزونى أن كشفه هذا ليس أكثر من ضربة حظ، لكنه على أية حال فتح شهية بلزونى للعودة لزيارة المكان فى فرصة أخرى، كان لها من الأهمية ما جعلها تتفوق كثيراً على هذه الزيارة.

عندما رجعت المركب التى حجزها بلزونى من أسوان لم تكن القطع الأثرية على ظهرها بل مجرد حمولة من التمر، وراوغه أصحاب المركب وطلبوا فسخ العقد وامتنعوا عن رد النقود، فعنفهم بلزونى وقال لهم: «ما يناسب فى مثل هذا الموقف»، وكان وراء الامتناع يد مندوبى دروفيتي اللذين أوهما أصحاب المركب أن تحميلها بالآثار سوف يعرضها للغرق، وازداد حرج موقف بلزونى، لأن الفيضان أخذ فى الانحسار بسرعة بينما ممنون مازال بمكانه على الشاطئ، فى ذلك الوقت، حدث حادث طريف أدى إلى حل مشاكل بلزونى بصورة لم تكن فى الحسبان، فقد وصل على حين غفلة جندى أرسله أغا أرمنت - عدو بلزونى القديم - حاملاً لبلزونى دعوة إلى الغذاء، وهدية من الأنشوجة والزيت، ولم يكن

بلزونى يتوقع ذلك، واتضح من مناقشة حامل الهدية فى هذا التحول من جانب الأغا، وخلاصة القصة أن هذه الهدية السبب فى الأصل مهداة للأغا من القنصل الفرنسى دروفيتى، وكان الكاشف لا يحب الأنشوجة، فاعتبر الهدية نوعاً من الاستهزاء به فحولها إلى بلزونى، إذن فالأمر كما قال بلزونى إنه: «مهما اندهشنا، فالذى حدث أن بعضاً من السمك المملح الصغير، الذى أنجح عملية نقل التمثال الضخم - رأس ممنون «ويقول بلزونى إنه لم يفلت الفرصة فأسرع إلى أرمنت و«أنذر صاحب الأنشوجة والزيت (المقصود وكيلا دروفيتى)» ثم شكا بلزونى للأغا، وأتحفه بما تيسر من الهدايا، فتحول الجو لصالح بلزونى وحكم الأغا لصالحه، وفى اليوم التالى مباشرة أرغم بحارة المركب على إفراغ حمولتها من التمر، مما اضطرهم لتأجير أحد مراكب الكاشف بأجر باهظ لنقل التمر للوجه البحرى، فكأن العملية كلها لم تدر عليهم ربحاً يذكر.

أسرع بلزونى إلى القرنة لشحن ممنون الصغير، ومعه تصريح من الكاشف، وبعد أن سوى بلزونى حسابه مع عماله، شق ممراً من أعلى الضفة إلى حافة النهر؛ لأن النيل كان قد انحسر إلى مسافة مائة قدم عن قمة الضفة، وأصبح على مسافة ١٨ قدماً تحت مستوى الشط: واحتاج عمل الممر إلى جهود ١٣٠ رجلاً، وكان رغم مشقته أهون من عملية نقل وتحميل الرأس على المركب؛ لأن الرأس كانت ثقيلة جداً ولابد من إرسائها وسط المركب تماماً حتى لا تتعرض للانزلاق.

بدأت الخطوة الأولى بتسيير المركب حتى نهاية الممر، بعد ذلك أمر بلزونى بإنشاء جسر يتكون من أربع كتل صخرية ضخمة تصل المنحدر بلقب المركب،ووضعت غرارة من الرمل فى منتصف الجسر حماية للرأس من الانزلاق أثناء النقل، وزيادة فى الاحتياط تم تبطين المركب من الداخل باللباد حتى لا تتلف الرأس، واستخدمت الحبال المتينة من ليف النخل المربوطة إلى أعمدة متينة فى عمليات النقل ووضع الرأس مكانها فى وسط المركب بالضبط، واحتاج رفع الرأس من مكانها إلى سبع روافع، والخلاصة أن العملية نجحت بشكل أراح

أصحاب المركب أنفسهم بعد أن كانوا على حافة اليأس والإحباط، ومن هذا نرى أن عمل بلزونى السابق فى استعراض القوة والأعمال البهلوانية لم يذهب سدى.

عاد بلزونى إلى سارة بالأقصر حيث تركها فى ضيافة عائلة عربية أثناء الأسابيع الستة الأخيرة، فى إقامة غير مريحة، ثم وضع ما اكتشفه فى الكرنك فى صندوقه المكتظ بالآثار، وبعد ذلك صاحبوا التمثال وبدأت رحلة العودة فى ٢١ نوفمبر، ووصلا إلى القاهرة بعد ٢٤ يوماً، ومعهما أروع الآثار التى نقلت فى النيل - حتى ذلك الوقت - وذلك بعد رحلة شاقة لمدة خمسة أشهر ونصف الشهر.

لما وصلوا إلى القاهرة كان سولت قد سافر الى الإسكندرية مصدراً تعليماته التى تقضى بأن تنقل الآثار الخفيفة إلى دار القنصلية البريطانية بالقاهرة، وبأن تنقل رأس ممنون بصحبة بلزونى إلى الإسكندرية، ونفذ بلزونى ما طلب منه دون مناقشة رغم استغرابه، إذ كان يظن أن كل ما معه يخص المتحف البريطانى، وفى أول سنة ١٨١٧، وصل بلزونى مع الرأس إلى رشيد، ومنها شحنت إلى الإسكندرية حيث حفظت فى مخازن دولة الباشا حتى يتسنى شحنها لإنجلترا.

هكذا انتهت إحدى العمليات الأثرية المرموقة بعد جهد جهيد، ونفذ بلزونى فى وقت قياسى ما عجز عنه منافسوه، وكان عمله السابق فى المسارح وألعاب السيرك قد أكسباه الخبرة لتحقيق إنجازات لم تستطع حملة نابليون نفسها القيام به، كذلك أكسبته كفاءته الإدارية وحسمه للأمور وقدرته على المساومة وألاعيبه السياسية، القدرة على التفوق على كل المنافسين الذين كانوا حقاً منافسين أشداء، واصبح بلزونى مشهوراً، لكن حياته أصبحت فى خطر، فقد تجرأ ودخل حلبة المنافسة ضد من سعى إلى احتكار تجارة الآثار، وأزعج الطامعين فى الثراء على حساب مصر.

١٠ - أروع المعابد

استقبل بلزونى فى القنصلية البريطانية بحفاوة، وكافأه القنصل سولت بخمسين جنيهًا فوق الخمسة والعشرين التى اقترحها بورخارد وبلزونى من قبل نظير نقل الرأس، وبذلك تكون المنحة قد غطت مصاريف بلزونى. ولا ندرى أذلك كل ما تقاضاه، أم تقاضى مكافأة أخرى! لكن الذى نعلمه أن بلزونى لم يكن سعيدًا بها لأنه لم ينل الشهرة ولا الربح الذى كان يتوقعه من القطع الأثرية التى أجهد نفسه واستخرجها من الأقصر والكرنك ورغم ذلك بادر بتقديم عرض للقنصل يتضمن القيام برحلة ثانية للعمل فى أبى سنبل لإنهاء استكشافه.

وكان سولت له أفكار أخرى: كان يتابع باهتمام نشاط قبطان من جنوة يسمى كافيجليا كان يجرى حفائره داخل خوفو وفى المقابر المجاورة لأبى الهول وقد نجح فى اختراق بئر الهرم الأكبر بالفعل، وتوصل إلى بعض الاستكشافات المهمة، لذلك أشار سولت على بلزونى أن يشترك مع كافيليا الزئبقى فى الاستكشاف، لكن بلزونى كان له رأى آخر، فقد كان بطبيعته ميالاً للعمل وحده، كما أن ذهنه كان منصرفًا إلى التفكير فيما كان يقوم به أعوان دروفيتى فى طيبة، لذلك عرض كيرتس على سولت مشروع رحلة إلى الصعيد والنوبة تستغرق ستة أشهر، واقتنع سولت بالمشروع بعد مراجعته فوافق على أن تغادر بولاق بعثة كشفية صغيرة على رأسها بلزونى لهذا الغرض فى ٢٠ من فبراير سنة ١٨١٧، وفى هذه

المرة تخلفت عن مرافقته سارة ومعها التابع كيرتس، وكانت المجموعة المصاحبة لبلزونى تتكون من جندى تركى وطاهٍ واثنين من موظفى القنصلية البريطانية هما هنرى وليام بيتشى والمترجم ينى أثناسيو، الذى انقلب عليه - فيما بعد - وأصبح له عدوًا لدودًا.

كانت الرحلة فى بدايتها بطيئة لهبوب رياح عكسية؛ لذلك توفر لديه الوقت للتسلية شاهد خلاله رقصتين شرقيتين الأولى متواضعة المستوى لكن الثانية» كان فيها تعويض كاف عن تواضع الأولى «وقابل بلزونى القبطان قائد الأسطول النيلى وأهداه زجاجتين من الروم حتى لا يصادر المركب لصالح الولى. ثم زار فالسوماكى وهو طبيب وصيدلى كان يسعى لاكتشاف «أكسير الحياة»، وله اهتمام بجميع الآثار وتجارتها. وفى دار هذا الطبيب كان يقيم مترجمان يعملان لحساب دروفيتى، وآثر بلزونى حيالهما الصمت وعدم إثارة المشاكل.

اتصل بلزونى فى اليوم التالى برجل يدعى مستر براين مدير لأحد مصانع السكر الحكومية فى منطقة الأشمونين، وعرف منه بلزونى أن اثنين من أعوان دروفيتى متجهان على وجه السرعة إلى الكرنك لتقديم شكوى لوقف حفائر بلزونى، والمطالبة بشراء الآثار المكتشفة بالمنطقة منذ آخر زيارة لهما، وبادر بلزونى بالتصرف، فترك بتشى وراءه ليوافيه بعد ذلك بالطريق النهرى، أما هو وينى فقد إستأجر حصانًا وحمارًا وانطلقا فى منتصف الليل فى رحلة مرهقة طولها ٢٨٠ ميلا، استغرقت خمسة أيام ونصف، ولم يستريحا خلالها سوى إحدى عشرة ساعة، توقفا فيها عندما صادفهم من الأديرة القبطية لالتقاط الأنفاس وتناول وجبة من الخبز والبصل.

فى أسيوط وجد بلزونى أن الدفتر دار بك غير متحمس بالمرة لنشاطه، ذلك؛ لأن سكرتير سولت لم يقم باللازم فى تعريفه بالموضوع وإهدائه هدية مناسبة، هذا بالإضافة إلى أن البك كان يجرى بنفسه حفائر فى المنطقة التى وجد فيها بلزونى الرءوس الأسدية، هذا فى الظاهر ولكنه من الباطن كان بصدد التنازل عن امتيازه للفرنسيين، وبيع ماجمعه لوكلاء دروفيتى على أى حال، لم يؤثر ذلك على دروفيتى كثيرا لأن حفائر البك لم تنتج سوى أربعة تماثيل فى حالة جيدة.

وعند أرمنت، وجد بلزونى أن كاشف المدينة،و صاحب قصة الأنشوجة مازال ودودًا ومرحباً بمعاونته، وبادر بلزونى بإجراء حفائر وشرع عماله فى الحفر على شاطئ النيل، وركز بلزونى اهتمامه حول تمثال ضخم جالس بفناء معبد آمون يبلغ ارتفاعه ٣٠ قدمًا تقريبًا، عند قدميه تمثال أصغر ارتفاعه سبعة أقدام، كان تمثال الملك هذا مشطورًا من وسطه فرفع بلزونى النصف العلوى بسهولة، وترك العرش مكانه حتى يجد مركبا صالحة لنقله.

فى هذه الأثناء وصل أعوان دروفيتى وشرعوا فى العمل بهمة واعتمدوا على تغاضى البك فوظفوا كل العمالة المتاحة تقريبًا، ولما وجد بلزونى أن العمالة التى بحوزته قليلة، نقل نشاطه إلى البر الغربى بجوار القرنة حيث الأحوال أكثر ملاءمة.

أثناء انتظار بيتشى والنقود، أخذ بلزونى يتجول وحده بين أطلال معابد الكرنك الفسيحة، وأعجبته العمارة كثيرآ : «وتهت فى تأملاتى لهذه الروائع.. حتى أننى أحيانًا لم أعرف أكنت على الأرض أم على كوكب آخر «وغمرت النشوة بلزونى وهو يتأمل الأساطين والجدر والأفاريز «لدرجة أننى انفصلت عن عالم الأحياء، وشعرت بالسمو فوق الجميع، ونسيت كل سفاسف الحياة «وأثناء تجوله وهو مدهوش بروعه المكان تعثر فى حجر ضخم فى الظلام وكاد يهشم أنفه، وارتطم بالأرض من شدة الألم.

وأقلق بلزونى تأخر بيتشى فى الوصول فاستأجر مركبًا راجعًا يبحث عنه، ولما احتمع الشمل وعادت المجموعة إلى طيبة ركز بلزونى جهوده فى القرنة وكان أهلها أكثر مكرا وخداعًا من سائر الأعراب، وأكثر المصريين «إحساسًا بالحرية والاستقلال» وكانوا يتفاخرون بأنهم آخر من خضع للفرنسين، وفى خضوعهم لم يتنازلوا عن أجورهم، وتوجد مخابئ كثيرة فى غرب طيبة يمكن أن يأوى إليها أهل القرنة، فيها من المومياوات والبرديات معين لا ينضب، كل ذلك كان أهل القرنة يبيعونه للقناصل والسياح وتجار الآثار بصورة غير شرعية، وبأعلى الأسعار.

ويبدو أن بلزونى استطاع أن يتعامل مع هؤلاء، وهم كما رأينا، متخصصون فى السطو على المقابر؛ لذلك نراه يولى اهتمامه للبرديات، واستطاع بلزونى دخول حجرات الدفن والكهوف الضيقة الواقعة خلف القرنة فوجدها «تثير كمية هائلة من الغبار والأتربة الدقيقة، التى تتخلل الأنوف فتزكمها فتحدث فيها وفى الأفواه من الأذى ما يتسبب فى إجهاد الرئتين، ناهيك عن رائحة المومياوات العفنة، وفى بعض الأماكن لايكفى الفراغ إلا لقدم واحدة، ولذلك تضطر للمرور فيها حبواً كأنك أفقى، فوق حجارة حادة مدببة، تقطع مثل الزجاج «ولنا أن نتصور بلزونى بجسده الضخم يزحف فى مثل هذه الدروب الضيقة.

بعد المعاناة فى المرور بالدروب التى يصل طول بعضها ما بين ٢٠٠، و٣٠٠ ياردة قد يعثر الأثرى على مكان ليجلس ويلتقط أنفاسه:

«لكن ياله من مكان للراحة تحيطه الجثث وأكوام من المومياوات حيثما اتجهت.. هذا بالإضافة إلى سواد الجدران وخفوت ضوء القناديل وبطاريات الإضاءة لنقص الهواء، كل ذلك أريكنى، يصحب ذلك كله منظر العريان ومعهم أدوات الإضاءة وهم عراة يغطيهم التراب مثلهم مثل المومياوات، إنه حقاً مشهد يجل عن الوصف»

قد يمكن تحمل التراب ورائحة المومياوات لمن لديه حاسة ضعيفة مثل بلزونى، ولكن حتى فى هذه الحالة «أذكركم أن المومياوات ليست طيبة المذاق» وفى مناسبة أخرى يقول:

«فتشت عن مكان استريح فيه فلما وجدته حاولت الجلوس، فوقعت فوق مومياء مصرية تكسرت تحتى كما يتكسر الصندوق الصغير، وتحسست يداى بحثاً عن مكان مناسب، فلم أجد ففطست تماماً بين المومياوات والمتفتتة والعظام والحصر والصناديق الخشبية، فكانت تتحطم تحتى مصدرة أصواتا عالية، ويثور منها غبار منعنى من الحركة لمدة ربع ساعة قبل أن ينقشع».

اعترف بلزونى صراحة أنه كان يسعى «لسلب البرديات من الأهالى، ووجدت قليل منها مخبوءة حول صدورهم وتحت إباطهم وعلى ركبهم وأرجلهم.. ملفوفة بأربطة كثيرة».

كان أهل القرنة يعيشون فوق القبور التى يسلبونها، وأهملوا الزراعة لأنهم وجدوا سلب القبور أربح لهم، كان الخطأ الذى يقع فيه الزائرون فى رأى بلزونى «فرحهم بأى قطعة أثرية تعرض عليهم، فيدفعون فيها أكثر مماكان يطمع الذى عرضها، دون أن يلاحظوا ما بها من تلف، لذلك كانت الأسعار مرتفعة خصوصًا أسعار البرديات، وكان سبب ذلك ثقة المشترين بهؤلاء الناس (لصوص المقابر من أهل القرنة)، وهذا مالا يمكن إنكاره لكن النتيجة كانت الشراء بعشرة أضعاف الثمن الذى تستحقه بالفعل.

بنى أهل القرنة مساكنهم فى الممرات الموجودة بين مداخل القبور وكانوا يستخدمون القناديل الزيتية فى الإضاءة، بوضعها فى فجوات بالجدران؛ لذلك غطى الهباب الأسود هذه الجدران وكان هدير الغنم يغطى على صوت الناس، وقد استقبل بلزونى بحرارة « وكنت على يقين أنهم سيقدمون لى العشاء مكونًا من الحليب والخبز فى وعاء خشبى، ولكنهم إذا ظنوا أننى سأبيت لديهم، كانوا يذبحون لى دجاجتين، يتم شيهما على نار وقودها التوابيت الخشبية، وأحيانا عظام وأربطة المومياوات نفسها».

فى البداية تعجب بلزونى من تحمل الأهالى للعيش وسط «الأيدى والأقدام والجماجم» المتناثرة على أرضية الكهوف فقد تعودوا عليها حتى اعتبروها مثل أشلاء المواشى، ولكن بلزونى نفسه سرعان ما اعتاد عليها فلم يزعجه وجود رفات المصريين القدماء «فأصبح فى وسعى النوم فى حفرة إحدى المومياوات، كما لو كنت نائما فى مكان نظيف «وتصرفه هذا وإظهاره عدم الاكتراث يتعارض تمامًا مع عنايته وتدقيقه فى أمر الحفائر كماعودنا من قبل.

كان حرص بلزونى فى القرنة جمع أكبر كمية من المومياوات فى أقصر وقت ممكن؛ لذلك استأجر بعض الأهالى نظير أجور منتظمة، علاوة على مكافآت إضافية لهذه الغرض، وبذلك أمكنه دون أن يشعر به أحد من تحقيق مكتشفات مهمة، والواقع أن عملية اكتشاف المقابر وحجرات الدفن كانت صعبة لاختفاء معالمها، وكان الأمر يخضع لعنصر الصدفة، وكانت مومياوات العامة وصغار الأشخاص توجد مرصوصة فى صفوف فى حفرة معدة لذلك، وبعضها مغطى

بمادة تشبه الملاط، وكان كثير من الجثث يوجد ملفوفاً بالكتان الغليظ دون تزيين، وكانت مثل هذه الجثث ترص فى طبقات فوق بعضها بكثافة لدرجة أنها كانت تغطى مدخل الكهف، وهذا النوع من المقابر لم يكن يغرى لصوص المقابر لقلة عدد البرديات الموجودة بين طيات الأغطية.

كان البحث يوجه عادة للعثور على مقابر الأثرياء المزخرفة، وفى مثل هذه المقابر توجد كل جثة داخل صندوق فاخر مصنوع من خشب شجر الجميز، ومحنطة جيدًا داخل أربطة كثيفة، وقد وصف بلزونى بعض الجثث ولاحظ أنه كان فوق صدورها أزهار مازالت محتفظة برونقها، وكانت الأحشاء ملفوفة بعناية، و طلاء الصناديق وألوانها جميلاً وهذا ما تشتهيه المتاحف ويرغب فيه السياح لمدة تزيد على المائة عام.

من الطبيعى أن تكون العناية بجثث الموسرين كبيرة، فبالإضافة إلى العناية بوضعها فى مكانها، كانت توجد بمقابرهم غرف أخرى خلاف غرفة الدفن مزخرفة بالصور، داخل أطر تصور المواكب وأساليب الحياة اليومية، لكن بلزونى كان همه جمع الآثار الخفيفة المدفونة مع هؤلاء الأثرياء مثل الأوانى المحتوية على الأحشاء والزهريات المرمرية، والفخاريات المزخرفة والتماثيل الصغيرة والأوراق الذهبية والجعارين.

جمع بلزونى من الآثار ما يملأ سفينة كبيرة، وهو مالم يتسن له فى السنة التى قبلها، وكان ضمن الغنيمة تمثال رائع الجمال للربة حتحور مع آلهة أخرى عثر عليها فى معبد منتوحوتب الصغير والواقع بالركن الشمالى من الكرنك، وهذا التمثال تم رفعه ونقله من المعبد عبر منحدر عالٍ تحت بصر أعوان دورفيتى، وكان ضمن المجموعة - أيضًا - التابوت الحجرى السابق ذكره وهو هدية دورفيتى إليه منذ رحلته الأولى، بعد أن أمكن تخليصه من مكانه الذى كان محشورًا فيه.

أثار نشاط بلزونى ونجاحه ضيق منافسيه وحسدهم، فما كان من أعوان القنصل دروفيتى الكسالى إلا أن قدموا رشوة للبك ليصدر قرارًا يمنع بموجبه

بلزونى من تأجير العمال أو اقتناء الآثار، وكانت حجتهم واهية وتتلخص فى أنهم لم يستطيعوا شراء أى شىء لأن علاقة بلزونى بأهل القرنة جعلته يستحوذ على كل شىء.، وكان ذلك فى الواقع صحيحًا، وبادر بلزونى كعادته إلى مقابلة البك حيث كان موجودًا فى قرية قرب طيبة، ووجد بلزونى البك يراوغه، فكلما تحدث بلزونى عن الآثار كان البك يحول الكلام وجهة أخرى، ولم يعر البك أى التفات للفرمان الذى أعطاه الباشا محمد على بلزونى، ثم أحضر البك خيولاً وتوجه الجميع إلى القرنة. هناك أمر البك الكاشف بإحضار مومياء مغلفة خلال ساعة، لعلمه بما بين بلزونى وبين الكاشف من صداقة، وكأنه كان يريد تعجيزه، ولكن الكاشف أفلح فى تنفيذ العملية، فلما رأى البك الجثة أمامه، استشاط غضبا وأمر بجلد الكاشف على الفور.

لم يستطع بلزونى رد الأذى عن الكاشف، فقد كان يعلم أنه لو فقد أعصابه لزاد من تعقيد الموقف، لذلك استمر صامتًا أثناء ضرب الكاشف بضراوة أمام ناظريه، حتى حملوه وهو شبه غائب عن الوعى، ولم يزد بلزونى على أن قال للبك بهدوء إنه سيرفع شكوى للباشا بخصوص هذا الموضوع، وهنا أدرك البك سوء فعله، فصالحه بأن سمح له فى اليوم التالى باستئجار عشرين عاملاً على أن يتم العمل فى ثمانية أيام، ونجح بلزونى بصعوبة فى جمع العمال، فقاموا بتعبئة ما جمعه ثم نقلوه إلى رصيف المرسى بالأقصر وبناء سور من الطين حول الحمولة.

وزاره البك فى هذا المكان، وكان أكثر لينًا ولطفًا، واحتج بلزونى لديه لسوء المعاملة التى يلقاها عماله، وكذلك طلب من البك تمكينه من شراء الآثار على قدم المساواة مع غيره، ولم يمانع البك فى ذلك وأعطاه فرمانًا لكاشف أسوان حيث كان بلزونى يجرى حفائره فى أبى سنبل.

فى الوقت نفسه، أخذ بلزونى يستعد لاستئناف نشاطه فى القرنة، وطمأن الكاشف بأنه يمكن استئناف استخراج المومياوات بلا إزعاج من البك، وبعد ذلك جمع الأهالى ليقرأ عليهم فرمان الباشا، وأصابت الدهشة بلزونى وغمره الخوف، لأن قرار البك كان منع الأهالى من بيع آى آثار سوى للقنصل دروفيتى،

وهو ما لم ينتبه له بلزونى لأنه لم يحاول أن يطلب ترجمة الفرمان له عند استلامه، أكتفى بلزونى بالسكوت وتوقف عن الاسترسال، ثم أحكم الحراسة حول مقتنياته الموجودة على مرسى الأقصر، واتجه للنوبة فى ضيق مما حدث.

كانت أول وقفة طويلة لبلزونى عند فيلة الجميلة، فى انتظار ما يرسله له سولت، وقضى وقته فى التجوال بين أطلال الجزيرة الرائعة واستنساخ صور شمعية لمدخل باب إيزيس، وهو عمل مرهق فى ذلك الوقت لأن درجة حرارة المكان فى الظل تعدت ١٢٤ فهرنهيتية (أكثر من ٥٠م).

ووافى بلزونى ضابطان من البحرية البريطانية هما الكابتن إيربى والكابتن مانجلز، عرف عنهما حب الرحلات والمغامرات وكانا يتجولان على مهل فى أوروبا والشرق الأدنى للمتعة والمغامرة، وعرضا على بلزونى السماح لهما بمرافقته على أن يتحملا نصف تكاليف الرحلة، وذلك لرغبتهما فى زيارة الشلال الثانى، وأسعد ذلك الجميع؛ لأن الضابطين وجدا معهما أحد الخبراء بمسالك النوبة، ووجد بلزونى ما يعزز قوة المجموعة المكونة من سبعة أفراد، وبدأ يستعد لمغادرة فيلة.

وفى ٥ يونيه حضرت سارة بصحبة التابع كيرتن، ولم يخطرنا بلزونى عن السبب لكن الذى نعلمه أن بلزونى كان قد اضطر لتركها بعد أن أعد لها مأوى مكشوفًا فوق سطح معبد إيزيس وترك معها كيرتن بعد تزويدهما ببعض الأسلحة النارية.

فى ١٦ يونيه أقلعت المركب للرحلة، وكان طاقم السفينة مكونًا من خمسة من البحارة كانوا مصدر إزعاج مستمر، وكان «الريس» يرتدى قميصًا أزرق باستمرار، وكان دمثا مراوغا، فلقبه الضابطان «الشيطان الأزرق» وبعد ثلاثة عشر يوما وصلوا إلى أبى سنبل، إلا أن الكاشف كان متغيبا فتركوا له رسالة تحية وانطلقوا لزيارة الشلال الثانى، ولكن طاقم المركب رفع راية العصيان وطالب الأهالى أنفسهم بالمنح والهدايا، وزاد الموقف سوءا رفع الأسلحة المحشوة على سبيل التهديد، وتماسك بلزونى وظل رابط الجأش متظاهرًا بعدم الاكتراث، ومتحليا

بروح الفكاهة (حتى هدأت الأحوال)، وأبدى مانجلز تعاطفة مع العصاة لأن الرحلة شاهدت الشلال فعلاً دون مقابل ولكن بلزونى كان له رأى آخر: «لقد رآنا هؤلاء دون مقابل، ونحن لهم شىء جديد، ورأينا نحن شلالهم وهو لنا شىء جديد.. إذا فنحن وهم متعادلون.»

لما رجعوا إلى أبى سنبل فى ٥ يوليو كان الكاشف مازال متغيبًا، وبعد يومين وصل رسول داود الكاشف للسؤال عن الضابطين بناء على توصيه من حسن الكاشف، ولحسن الحظ كان داوود الكاشف مازال يذكر هدية العمائم التى أرسلها له بلزونى من القاهرة، فشاء بلزونى أن يتودد إليه مرة أخرى فأهداه عمامة أخرى وبندقية وبعض الهدايا الخفيفة بعد أسبوع.

بدأ الحفر بطيئًا أول الأمر، لأن العمال الخمسين الذين أجرهم بلزونى كانوا يمضون معظم الوقت فى غناء أغنية نوبية، بغية إضاعة الوقت واستنزاف النقود «الأجنبية» والأغنية، كما يقول مانجلز، ربما كانت جميلة بالنسبة لهم، أما نحن فقد ضقنا بها» وتمت مساومة الكاشف على «فتح المعبد نظير ثلثمائة قرش» وقدر بلزونى لأنهاء العملية أربعة أيام، لكن بمرور الوقت، اكتشف بلزونى أن العملية لن تنتهى بالطريقة التى كانت تسير بها الأمور، فقد ظل الكاشفان يطالبان بالنقود، وأضاعا يوما فى سلب قافلة، وبدأ شهر رمضان، ولم يكف الكاشفان والبحارة عن الإلحاح فى طلب الهدايا، وزاد الطين بله نضوب ما معهم من الطعام وعدم إمكان شرائه فى هذا المكان.

لذلك قرر بلزونى القيام بالحفر بنفسه؛ لذلك تسلل مع صاحبيه الساعة الثالثة بعد ظهر الثلاثاء ١٦ من يوليو وشمروا عن سواعدهم للعمل وصدورهم مكشوفة، وبعد ساعة رآهم بعض البحارة فاستغربوا إذ رأوا الأوربيين يحفرون. ثم انضموا لهم فى الحفر، وعند المغرب كانت هذه المجموعة قد إنجزت من الحفر ماكان ينجزه ٤٠ عاملا من الأهالى فى يوم كامل. هذا إذا تغاضينا عن بعض الخدوش التى أصابتهم.

استمر الحفر على هذا المنوال أسبوعين، وكان الحفر يبدأ من الفجر حتى الساعة التاسعة صباحا ثم يتوقف ليعود فى الثالثة مساءً مغرب كل يوم، وأحيانًا

كان البحارة يساعدونهم، وأحيانًا أخرى كان الأهالى يشتركون فى الحفر، وتخلل العمل بعض المشاكل، فقد حاول الكاشفان تجريدهم من الفرمان والمعدات، وأتى اثنان من رؤساء العمال من الضفة الأخرى وهدداهم، ثم عرضا المساعدة مقابل أجر يتقاضيانه ورمى الطباخ كوب ماء على رجل ألح فى طلب النقود «وهو اعتداء مثالى بالنسبة لطباخ فخرجت السيوف وكادت تنشب معركة، واستمر النقص فى الطعام وعجزوا عن شراء أطعمة أخرى، وحاول أحد رؤساء الفعلة ابتزازهم بالتلاعب فى بطاقات الأجور، وفى آخر يوليو وصل الحفر إلى ركن باب مكسور، ومع الغسق كانوا قد وسعوا فتحة تكفى لمرور رجل واحد، ثم توقف الحفر حتى اليوم التالى؛ لأنهم لم يعرفوا كمية الرمل التى تسد الباب بسبب الغبار الكثيف الثائر من الحفر.

وقبل طلوع الشمس كان بلزونى ومرافقوه عند المدخل ومعهم ما يكفى من الشموع ومواد الإضاءة، وأما البحارة فلم يشتركوا، ولكنهم بعد قليل بدأوا فى الثورة بقيادة حسن الشيطان الأزرق، وهدد البحارة بترك العمل ومبارحة المكان فورًا ما لم يعد النظر فى رفع الأجور، ولم يأبه بلزونى لكل ذلك وجاء البحارة إلى الموقع مسلحين بعصى طويلة وسيوف وغدارات صدئة، واستمرت الطلبات والإلحاح بصورة تبعث على الضحك حتى لاحظ أحدهم أن المترجم الأرمينى ميناتى قد تسلل إلى المعبد فى غفلة من الجميع أثناء هذا النزاع وفى الحال هب الجميع ليتبعوه وتوقف النزاع.

بسرعة تم بناء حاجز لحماية الباب من الحجارة المتساقطة، وتسلل ضوء الشمس الخافت فى الصباح إلى الداخل خلال الفجوة المفتوحة لأول مرة منذ مائة عام، عندها تمكن بلزونى من التطلع مبهورًا إلى كشف من أعظم الكشوف الأثرية، فقد وجد بلزونى نفسه فى قاعة فسيحة من قاعات الأعمدة يتوسطها ممر مرصوص على جانبيه ثمانية تماثيل لرمسيس الثانى فى الصورة الأوزيرية، وكانت التماثيل متواجهة وخلف كل واحد منها عمود مربع عليه نقوش جميلة تصور الفرعون فى حضرة الالهة، وكان يلى القاعة غرفة أصغر ثم غرفة انتظار ثم محراب يؤدى للخارج، وكشف ضوء الشمس على تماثيل الآلهة الجالسة فى

قدس الأقداس (المحراب) وهى: آمون رع وحور آختى وبتاح ثم رمسيس الثانى نفسه.

حدق الزوار مبهوتين فى التماثيل الجبارة وفى مشاهد المعارك المصورة على الجدران فى الغرفة الكبرى، والتى تظهر رمسيس الثانى فى انتصاره على الحيثيين فى موقعة قادش، وعاين بلزونى المكان معاينة دقيقة للبحث عن الآثار الخفيفة، فوجدها قليلة لا تتعدى «أسدين رأسيهما مثل رأس الصقر بالحجم الطبيعى، وتمثال صفير جالس، وبعض المشغولات النحاسية الساقطة من الأبواب»

وجلس ضابطا البحرية ليرسما مخططا للمعبد بمقياس رسم ١/ ٢٥ بوصة للقدم، وانشغل بلزونى وبيتشى فى جمع الآثار الخفيفة، ورسم اسكتشات للصور التى شاهدوها، وقد أتلفت الرطوبة اسكتشات بيتشى، لكن ملاحظاته المستفيضة عن مشاهد القتال والفتك بالأسرى نجت من التلف، وأما منجلز فقد كتب يقول «كان الرعب واليأس باديا فى قسماتهم (الأسرى) بشكل يجل عن الوصف» كما أبدى إعجابه ببعض الأسرى فى الصور وبشرتهم «السوداء الداكنة».

ألقى المستكشفون نظرة إعجاب أخيرة على التماثيل، ثم قاموا بعمل دعامات للحاجز الذى بنوه لحماية باب المعبد، وبعد ذلك حملوا ما شاءوا من آثار خفيفة ووضعوها فى المركب رغم احتجاجات النوتى حسن وفى ٤ أغسطس سنة ١٨١٤ أقلعت المركب عائدة أدراجها، ولم يعلم العالم الخارجى عن هذا الكشف شيئًا ثمانية عشر شهرًا كاملة، كانوا فيها قد فرغوا من تسجيله وأعدوا لحملتهم الإعلامية، وبقى فى أبى سنبل كل من بانكس وبيتشى ولينان (رسام فرنسى اشتهر فيما بعد) لنسخ النقوش البارزة واللوحات المرسومة، وتنظيف تمثال فى النهاية الجنوبية لواجهة المعبد، واستغرقت منهم هذه الأعمال عدة أسابيع، وبذلك انفتح الطريق أمام السياح فى المستقبل لزيارة أكبر معابد رمسيس الثانى فى صورة متكاملة، ونظرًا لأهمية هذا المعبد، نقل بكامل محتوياته فى ستينيات

القرن العشرين إلى مكان مرتفع حتى لا تغمره مياه بحيرة ناصر، فتخفيه إلى الأبد.

كانت رحلة العودة إلى فيلة عادية، فيما عدا محاولة قام بها رئيس طاقم البحارة لطعن بلزونى أثناء مناقشة حادة مع البحارة، وأثناء العراك جرح إيربى يديه، وكانت سارة تنتظره بفارغ الصبر، لكنه وجد التماثيل التى جمعها فى العام السابق وبذل جهده فى المحافظة عليها قد تحطمت وصارت فتاتا بفعل فاعل، وكان ذلك واضحًا لأن من أتلف النقوش سجل بدلها عبارة «ألغيت العملية»، ومكتوبة بالفحم، وغضب بلزونى وظن أن هذا من عمل دروفيتى، ولكن ماذا يجدى الغضب والتخريب قد حدث بالفعل؛ لذلك أشاح بلزونى بوجهه وآثر أن يولى اهتمامه مشاريع أخرى.

١١ـ أثر فريد جميل لا يقدر بثمن

كان بلزونى متحمسًا للعمل فى منطقة طيبة، لكنه وجد أن اثنين من أعوان دروفيتى عدوه اللدود بدءا العمل فى القرنة أثناء غيبته، واخذا «يحفران فى جميع الاتجاهات» وعثرا على مومياوات كثيرة، كان أحدهما هو روزينالدو البدمونتى الذى هدد بلزونى من قبل بقطع رقبته، كذلك آثر بلزونى الابتعاد فنقل حفائره إلى وادى الملوك، لأن نتآئج الجس الأول الذى أجراه هناك منذ شهور كانت مشجعة.

وادى الملوك ـ كما هو معروف ـ تفصله عن القرنة سلسلة من التلال الصخرية، وكان الفراعنة يدفنون هناك منذ العصر الكلاسيكى (أى أثناء الدولة الوسطى). قد علم بلزونى أن به ثمانى عشرة مقبرة أو أكثر نجح علماء حملة نابليون فى اكتشاف وتسجيل إحدى عشرة مقبرة منها، كما عثروا على الثانية عشرة قبل انسحابهم من مصر مباشرة، وقد عثر بلزونى نفسه ـ كما أشرنا من قبل ـ على مقبرة الملك منذ سنة مضت وقد أشيع بأن الوادى به أربعون مقبرة ولما كان بلزونى قد تطورت عنده حاسة الاستكشاف فقد كان لديه موهبة اختيار المواقع المبشرة لإجراء حفائر، لذلك اعتزل فى وادى الملوك يفكر ويقلب الأمر فى ذهنه حتى قرر أن يقوم بالحفر فى المنطقة الغربية من الوادى.

كلف بلزونى عشرين رجلا على بعد ١٠٠ ياردة من مقبرة الملك آى، فوجدوا تحت سطح الأرض بقليل احجارا ضخمة تدل على انها مدخل لممر صخرى، وفى اليوم التالى، صمم بلزونى مدكا خشبيًا من جذع نخل حاول استخدامه فى تكسير الحجارة، لكن «الجدران قاومت دك الأعراب مدة لأنهم لم يكونوا رومانيين ولأن رأس المدك لم يكن صلبا» وبعد جهد أمكن عمل فتحة فظهر درج فى أسفله ثمانية مومياوات داخل توابيت منقوشة مغطاة بالأقمشة بكثافة.

لم يرض بلزونى بهذا الاكتشاف البسيط، وصمم على اكتشاف مقبرة ملكية، لذلك كلف ستة من العمال فى ٦ أكتوبر بالحفر فى عدة أماكن فى وقت واحد. واستمر الحفر ثلاثة أيام فانكشف لهم مدخل مقبرة عظيمة خالية من الرياش، وبها «مناظر ملونة هى أروع ما وقعت عليه عينى من مشاهد مصرية أصلية».

أمكن فيما بعد التعرف على المقبرة، فإذا هى مقبرة الأمير منتوحرخبش إف الابن الأكبر لأحد الرعامسة المتأخرين، وكذلك ظهرت مقبرة أخرى فى نفس اليوم (٩/ أكتوبر) بدون زخرفة، على بعد حوالى ١٠٠ ياردة من سابقتها، بدا من حالها أنها قدسلبت منذ زمن طويل، ووجد بالمقبرة جثتان لامرأتين عاريتين شعرهما طويل «يسهل فصله عن فروة الرأس إذا جذب برفق».

عقب اكتشاف هذه المقبرة التى لم يعرف صاحبها، أوقف بلزونى نشاطه مؤقتا كى يرافق ثلاثة من كبار الزوار الإنجليز فى جولة لزيارة معابد طيبة وابتهج الزوار بالجولة، وبلغت أقصاها عندما تم فى وجودهم اكتشاف مقبرة رمسيس، ووجدوا فى حجرة الدفن تابوتا حجريا من الجرانيت الأحمر، ومومياوين ليس بينهما مومياء الفرعون، وكان فى صدرالغرفة تمثال خشبى ضخم لفرعون نفسه، هذا التمثال أحد تمثالين توأم وظيفتهما حراسة تابوت الملك، العجيب أن هذه المقبرة تبعد عن مقبرة توت عنخ آمون التى أخطأها بلزونى لحسن الحظ ٦٠ مترًا فقط.

عاد بلزونى للعمل يوم ١٦/ أكتوبر، ورأى أن يجرب الحفر فى مكان معين وسط منحدر كشفه ماء المطر، ولم يحدد لنا بلزونى كيف اختار المكان، لكن

نستطيع أن نقول إن عماله المدربين كان لهم يد فى ذلك، كانت ثقتهم كبيرة فى أنهم وضعوا أيديهم على «الأوزة التى تبيض الذهب». وفى أواخر اليوم الثانى من الحفر ظهر قطع صناعى فى الصخر، فتأكد بلزونى أن توقعاته كانت صائبة. لما وصل الحفر إلى عمق ١٨ قدمًا ظهر مدخل المقبرة مسدودًا بأحجار ضخمة مع المياه المترسبة من المنحدر العلوى، فأحدث بلزونى فتحة فى المدخل لمرور رجل واحد، فوجد ممرًا مسدودًا جزئيًا من الخلف طوله ٣٦ قدمًا سقفه وجدرانه مزخرفة بنقوش ملونة جميلة. وكان فى نهاية الممر سلم يؤدى إلى ردهة طويلة ذات زخارف رائعة. وكانت الردهتان منحدرتان لتسهيل صرف ماء المطر إلى بئر عمقه ٣٠ قدما، وعرضه عند نهايته ١٤ قدمًا، وقد حال البئر دون مزيد من التقدم. وقد وجدت بالمكان آثار أدوات وحبال وأخشاب تدل على عبور متسللين منذ زمن مضى لهذا البئر، كى يصلوا إلى الجدار الملون المزخرف على الجانب الآخر للفجوة.

فى اليوم التالى حضر بلزونى وبيتش ومعهما قضبان قوية صنعا منها جسرًا فوق البئر لفحص الفجوة الموجودة فى الجانب البعيد. كانت الفجوة من صنع المتسللين الذين لم يخدعهم الجدار الوهمى، تسلل بلزونى من الفجوة فألفى نفسه فى قاعة جميلة ممدة بأربعة أعمدة فيها «تماثيل للفرعون تحتضنه الآلهة»، وفيها سلم من ثلاث درجات يؤدى إلى غرفة مزخرفة ذات صور ناقصة، وهى حيلة معروفة توحى للمتسللين بأن المقبرة لم تكتمل، بعد ذلك نقب الباحثان جدران الحجرة فظهر باب سرى يؤدى إلى ممر منخفض، مزخرف بصور للآلهة، أكثر إتقانا من الصور السالفة الذكر. وفى نهاية الممر وجد بلزونى قاعة أكبر وأرحب ممددة بستة أعمدة ذات زخارف كثيرة، وسقفها أزرق داكن يبدو أن طلاءه كان حديثا.

فى القاعة الأخيرة وجد بلزونى وبيتش تابوتا حجريًا من المرمر الشفاف طوله أكثر من تسعة أقدام وسمك الواحه المرمرية بوصتان فقط، وكانت زخارف التابوت لطيفة تتلألأ من الداخل فى ضوء الشموع، وحجمه مناسب لجثة الفرعون وتاجه معا، والتابوت مزخرف من الخارج بمئات من الصور المتنوعة.

ووجد بأسفل التابوت نقش يصور الربة نيت عارية الصدر، وهى تنتظر الملك الميت. لكن التابوت كان فارغًا لأن اللصوص سرقوا الجثة مع غطاء التابوت، وقد عثر بلزونى على أجزاء متفتتة من الغطاء فى الأنقاض الموجودة بجوار مدخل المقبرة.

كانت هناك خمس غرف مفتوحة على قاعة الدفن، أكبرها به عجل محنط وكثير من الأوشابتى، وتماثيل خشبية كثيرة بها «تجاويف أسطوانية تصلح لإخفاء البرديات، يرجح أنهم استخدموها». وكان التابوت يخفى نفقا سفليا له جدار طوله ٣٠٠ ياردة بعمق الجبل فى أعلى الوادى.

هذه المقبرة هى مقبرة سيتى الأول والد رمسيس الثانى، الذى مات سنة ١٣٠٠ق.م تقريبًا وقد ارتاد الكهنة المقبرة مرتين بعد وفاته: الأولى عند دفن رمسيس الثانى، والثانية عند نقل جثتى الملكين إلى مقبرة الملكة حتشبسوت مع جثث باقى الملوك فى حملتهم المشهورة التى اخفوا فيها تلك الجثث عن أعين اللصوص وقد عثر على الجثتين هناك فى الكشوف الأثرية الحديثة.

وقد نهب اللصوص المقبرة ولم يتركوا بها سوى القليل من الآثار الخفيفة، التى استولى عليها بلزونى مع الأوشابتى والتابوت المرمرى أما المناظر والنقوش فقد تركت بالمقبرة كما هى. ومازالت محتفظة برونقها كما لو كانت جديدة.

فى زمن بلزونى لم يكن هناك من يستطيع تفسير تلك الآلاف من الرموز الهيروغليفية التى تزخر بها الجدران، لكنهم كانوا يستطيعون النظر بإعجاب إلى مشاهد الفرعون عندما تحتضنه الآلهة، والنسور المحلقة فى الفضاء مرسومة على سقف المقبرة الأزرق، وتمثال الملك الآلهة حتحور فى أفخر الثياب. ومما يحسب لبرزونى أنه أدرك أهمية تسجيل هذه الأعمال العظيمة المعبرة إذ كان مقتنعًا أن المقبرة هى أهم مكتشفاته وأروعها، وأنها يمكن أن تعلى من شأنه وترفع من ذكره بين الأثريين، ولو صاحبتها الدعاية المناسبة.

ذاع خبر اكتشاف المقبرة كالنارفى الهشيم، وسرعان ما انتشر فى الوادى فيض من حملة البنادق من كتيبة من الفرسان الأتراك من قنا بقيادة حامد أغا،

الذى أسرع بعد سماعه باكتشاف أحد الكنوز للحصول على حصة منه، فقطع فى ستة وثلاثين ساعة ما يقطع عادة فى يومين كاملين، أصاب بلزونى شيئًا من الخوف وانزعج من هذه الحملة الكثيفة، لكن الأغا كان يبتسم، ونظر الأغا وجنوده للصور فى لمحة سريعة وسرعان ما أخذوا يفتشون فى كل ركن «مثل كلاب الصيد» وبعد أن أعياهم البحث عاد الأغا ليسأل بلزونى عن مكان الكنز الذى أخفاه وهو «ديك ذهبى محشو بالدرر واللآلئ».

كاد بلزونى ينفجر ضاحكا لكنه تمالك نفسه، وطلب من الأغا أن يتأمل المناظر الرائعة المنقوشة على جدران المقبرة الخالية، ونظر الأغا إليها نظرة سريعة وقال «هذا مكان قد يصلح للحريم، فعلى الأقل سوف تجد النسوة شيئًا ينظرون إليه». بعد ذلك عاد الأغا أدراجه وهو «يتميز غيظا» على حد قول بلزونى.

كان عبء العمل فى الأسابيع الثلاثة التالية شديداً، لأن المقبرة كانت فى حاجة إلى تأمينها وعمليات الحفر يجب الحد منها بالتدريج، وأثناء انشغال بلزونى فى عمله، وصلت ثلاث سفن كبيرة فخمة إلى طيبة وعلى ظهرها سياح بريطانيون. وكان قائد الرحلة القنصل البريطانى نفسه وفى صحبته أحد النبلاء الإنجليز واللورد بلمور وقرينته وعائلته وبعض أتباعه ومرافقيه ،ومنهم قسيسه الخصوصى. كانت الرحلة متجهة للشلال الثانى، وكان جناب اللورد يطمع فى تكوين مجموعة أثرية خاصة أثناء سياحته، انبهر الزوار بمرأى النقوش، ثم قاد بلزونى هذه المجموعة المتميزة فى جولة شملت طيبة ووادى الملوك، واستطاع اللورد بلمور بمعاونة بلزونى واتصالاته شراء مجموعة وفيرة من البرديات والمومياوات وبعض الآثار الأخرى سرعان ما وجدت طريقها إلى إنجلترا. وكان تأثر هنرى سولت بمقبرة سيتى عميقا لدرجة أنه قرر أن يجرى حفائر لحسابه الخاص بحثا عن مقبرة ملكية، ولكن جهوده فشلت فى الكشف عن أى مقبرة من المقابر الكبرى.

وجاء زائر آخر من فرنسا هو «إدوارد دى مونتوليه» الذى كان فى رحلة بالصعيد، فلبث فى القرنة واستبشع ما يقوم به لصوص المقابر من تخريب وأدان

تجارتهم البشعة، ومع ذلك اشترى منهم «مومياء سيدة، مغلفة بقماش كتانى عريض، داخل صندوق مزدوج مازالت نقوشه محتفظة برونقها»، ثم زار بلزونى فى وادى الملوك وتجول معه فى المقبرة ووجد النقوش البديعة، ولكن يبدو أن الرجل أزعجه ما حدث فى المقبرة من سلب وتخريب، ومن أسلوب بلزونى العنيف فى الحفر، وقد كتب دى مونتوليه بعد ذلك» إذا كانت هناك مقابر مازالت سليمة فإننى أتمنى ألا يكتشفها الأثريون الفضليون، لأن أصحابها سوف يتعرضون للتهديد - كما فى عهد قمبيز - فالتوابيت الحجرية ومن فيها سوف تشحن إلى لندن أو باريس، وقد ابدى أسفه لعدم وجود متحف قومى مصرى لحفظ ما يستولى عليه القناصل، وفى هذا كان سابقا لعصره فى التفكير.

أحس بلزونى كما لو كان يركب موجة فقد اكتشف ما يزيد على أربع مقابر فى وادى الملوك فى خلال اثنى عشر يوما، بعد فشل استمر سنوات. كان التابوت الحجرى فى حد ذاته رمزًا لنجاح بلزونى، لكن التقدير الأدبى والمادى كان أمرًا مشكوكًا فيه. وكان مصدر متاعبه آن علاقات العمل بينه وبين القنصل البريطانى كانت دائما مطاطة. كان المفروض أن يقتصر عمله على نقل ممنون الصغير إلى القاهرة، وجمع بعض الآثار لسولت، لكنه لم يكن يعمل بأجر ثابت، كما أن القنصل لم يعوضه عن رحلته الأخيرة، فيما عدا مصاريف الأكل والشحن.

أخذت العلاقات بين الرجلين تتوتر بسرعة، رغم وعود سولت بإعطاء بلزونى ألف قرش شهريًا نظير خدماته بدءا من وقت مغادرته الإسكندرية منذ عشرة شهور، ولم يكن بلزونى قادرًا على فهم السبب الذى من أجله يتعب ويشقى ثم يعود الفضل لغيره، لكن بلزونى الذى لا يهدأ أبدا حمل كنزه الثمين فى سفينته حتى أوصله إلى القاهرة فى ٢١/ ديسمبر ١٨١٧. عموما فقد بقى له فى النهاية شىء يحسب له: فقد تصادف أن التقى اللورد بلمور بدروفيتى قنصل فرنسا عند زيارتهم الثانية لطيبة فى رحلة العودة، فأخذوه ليزور مقبرة سيتى وهناك «لم يتمالك نفسه من شدة الإعجاب فتخلى عن وقاره وهو يشاهد مدى الروعة والفخامة التى تأخذ بالألباب، ووقف مبهورا مدهوشا. هذه المرة لم يكن دروفيتى صاحب الكلمة الأخيرة.

١٢ـ العقـول الهـرمية

كان بلزونى شديد الرغبة فى العودة إلى وادى الملوك، لكنه كان خالى الوفاض فلم يستطع مبارحة القاهرة، أما سارة فقد ضاقت من تكرار الرحلة فى النيل فقررت بدلاً من ذلك أن تحج إلى القدس، لذلك سافرت بعد عيد الميلاد المجيد بأسابيع لزيارة القدس، فى صحبة كيرتن والمترجم جيوفانى فيناتى الذى كان يقصد عكا ليلتحق بوليام جون بانكس، واتفق معهم بلزونى على أن يلحقهم فى القدس عقب فراغه من موضوع المقبرة.

وفى القاهرة أصابهم الأسف والأسى لوفاة الصديق بورخارت متأثرًا بالدوسنتاريا قبل أن يحقق حلمه بالرحلة إلى غرب أفريقيا وشعر بلزونى بالارتياح عندما علم بشحن ممنون إلى انجلترا، لكنه شعر بالمصاب الفادح لفقد شخصية لها وزنها فى الدوائر المؤثرة فى وقت حساس بالنسبة له، وأخذ بلزونى يفكر فى مصدر لتمويل حفائره، فلم يجد لديه سوى الآثار القليلة التى تخلى له سولت عنها. هذه كان بينها تمثالان للربة سخمت رأسيهما رأسى أسد، فباعهما للكونت دى فوربن مدير الآثار الملكية الفرنسية بثمن بخس سبعة آلاف قرش!

كانت إقامة بلزونى فى ذلك الوقت فى القنصلية البريطانية، وكان يقضى الوقت فى مقابلات ومسامرات مع الزوار الأوروبيين الموجودين بالقاهرة، وكانت المجموعة الأثرية التى جمعها للقنصل سولت مثار اهتمام هؤلاء الزوار واشتهر

أمر مكتشفات بلزونى فى الخارج وكانت مثار جدل ساخن فى صحافة فرنسا وإنجلترا، وكان من المتشككين فى أمرها الناقد اللامع جومار - محرر موسوعة «وصف مصر»، وقال ببساطة أنه لا يصدق وصف بلزونى لتابوت سيتى الحجرى، لكن بورخارت وسولت امتدحاه فى عدة دوريات منها النشرة، وربع السنوية المعروفة (كوارترلى ريفيو)، وأشاد بمواهبه الكشفية الميكانيكية، ومما قاله عنه سولت إن مواهبه «مكنته من النجاح فى طيبة دون معاونة، فاكتشف الكثير من الآثار النادرة القديمة، مما أدهش جهابذة الباحثين «وسواء أسخط ذلك الفرنسيين أم أرضاهم فقد توطد مركز بلزونى كمنقب عبقرى عن الآثار.

وورد على خاطر بلزونى أن يقيم معرضًا لمقبرة سيتى فى إحدى العواصم الأوروبية وفكر أن مثل هذا المعرض سوف يحقق مطامعه فى الشهرة وتوطيد مكانته الاجتماعية وتحقيق العوائد المادية، لذلك استغل بلزونى ربحه من بيع تمثالى سخمت فى توظيف طبيب إيطالى شاب يجيد الرسم ونسخ الكتابة الهيروغليفية اسمه اليساندرو ريكى، واهتم بلزونى بعمل صور شمعية للنقوش البارزة وكذلك المجوهرات لعمل نموذج مكمل لمقبرة سيتى للعرض فى لندن لذلك جعل ريكى يسبقه إلى طيبة على أن يوافيه هو بعد شراء أدوات النسخ وتوفير التمويل اللازم للعملية.

فى هذه الأثناء تعرف بلزونى على الميجور إدوارد مور الذى كان فى طريقه من الهند إلى لندن حاملاً رسائل رسمية، وكان مور عضوًا بجمعية الآثار بلندن، وكانت ذات أهمية كبيرة فى ذلك الوقت، ولكن الرياح المعاكسة عطلت سفره إلى الأسكندرية، فانتهز الفرصة ورافق بلزونى لزيارة الأهرام، ودار بينهما بالصدفة نقاش حول فتح الهرم الثانى - هرم خفرع - الذى لم يكن قد فتح بعد، وكان هناك كلام كثير حول إمكانية فتحه يثار فى إنجلترا وفرنسا.

كان الكابتن كافيليا - تعرف عليه بلزونى من قبل - آخر من قام بالحفر عند الهرم، لكنه كان قد غادر مصر، ولما كان دروفيتى وسولت كلاهما يزوران الصعيد، فقد وجد بلزونى أن الجو قد خلا له، وبدا له وهو يزور الهرم مرة ثانية مع بعض الأوربيين أن فتح الهرم الثانى ليس أمرًا مستعصيًا؛ لذلك ترك رفاقه

عند الهرم الأكبر وأخذ يتجول وحده ثم جلس فى ظل حجر يحدث نفسه» هذا (هو) البناء الشامخ، الذى حار فيه المتقدمون والمتأخرون «بعد ذلك أخذ يدور حول الهرم باحثًا عن خيط يدله على مدخل الهرم، بعين فاحصة تدربت على الملاحظة من أيام العمل فى القرنة ووادى الملوك.

لفت نظر بلزونى فى جانب الهرم الشمالى أن الردم من الرمل والزلط مرتفع عن قاعدة الهرم بشكل ملحوظ، لدرجة أن مستواه بلغ حدًا جعله يعلو عضادات الأبواب، هنا قادت بلزونى غريزته الكشفية المدربة فحدس أن الردم يخفى تحته بابًا أو مدخلاً سريًا تحت الأرض.

عاد بلزونى إلى القاهرة ولم يحدث بخواطره أحدًا، وكان هناك ما يبرر حذره إذ فشا الكلام فى أوروبا عن طرح اكتتاب لتمويل فتح الهرم، دون استخدام المتفجرات ما أمكن، وطرح اسم دروفيتى كمدير تنفيذى للعملية، ومن جهة أخرى كان بلزونى يخشى أن يحبط المسئولون المصريون خطته. لكن الحظ حالف بلزونى فتمكن - عن طريق الباب الخلفى - من الحصول على تصريح من محمد على

زود بلزونى نفسه بخيمة صغيرة وبعض الطعام وبارح القاهرة متعللاً بانه سيقيم معسكرًا فى جبل المقطم، ولم يكن فى جيب بلزونى سوى مائتى جنيه، وكان أشد ما يخشاه أن يتمكن منافسوه الفرنسيون من عرقلة جهوده أو فضحه علنًا. المهم أن بلزونى قام بتأجير ثمانين عاملاً دفعة واحدة للحفر فى موقعين: الأول شمال الهرم، والثانى شرق الهرم حيث توجد أطلال معبد خفرع الجنازى المواجه للهرم، وكانت ظاهرة للعيان.

بدأ الحفر بطيئا فى الموقع الشمالى؛ لأن الأرض والمونة كانتا من الصلابة بحيث تسببا فى التواء فئوس الرجال، أما عند المعبد فكان الحفر سهلاً أدى إلى كشف طريق دائرى تحت الأرض بحوالى أربعين قدمًا يلف حول الهرم،، وبعد ستة عشر يوما من الحفر والتنظيف ظهرت فجوة بين صخرتين. وبالجس بواسطة عصا طويلة اتضح أن الفجوة طويلة اتضح أن الفجوة خالية لأن العصا

اخترقتها بلا عائق مسافة ستة أقدام، في اليوم التالى رفعت الصخرة المخلخلة (واحدة من الصخرتين) فانكشف تحتها باب كاذب صغير لم يوصل لشيء؛ لذلك صرف بلزونى العمال باقى اليوم، وظل يحوم حول الهرم مفكرًا فى حل لغزه المحير.

هنا تنبهت حواس بلزونى نحو الماضى فحزم أمره على التجربة، ترك بلزونى مكانه واتجه إلى هرم خوفو عله يلهمه فى إزالة الغموض، وأثناء المعاينة لاحظ أن مدخل الهرم ليس فى وسطه تمامًا ولكنه متزحزح نحو الجنوب الشرقى لقاعدته، فقاس بلزونى مسافة الزحزحة عن مركز الهرم ثم أسرع إلى هرم خفرع وقاس المسافة نفسها من مركزه، فوجد خلخلة فى البناء وتقعرًا فى السطح، فراود بلزونى الأمل وحدث نفسه ها هو الأمل يعود، ليثبت عقليتى الهرمية»

استؤنف الحفر ببطء فى اليوم التالى لصلابة الأرض، واستمر الحفر حتى ظهرت مجموعة مكونة من ثلاث صخور «اثنتان متوازيتان والثالثة فوقهما «وكانت مجموعة الصخور هذه مائلة نحو مركز الهرم، وباستمرار الحفر استطاع بلزونى لأول مرة أن يرى باب الهرم، وكان الممر المائل المؤدى إلى داخل الهرم مبنيًا بكتل جرانيتية ضخمة بارتفاع أربعة أقدام، واحتاج الأمر ليومين آخرين من الحفر لتنظيف الممر، فعثر بلزونى على الممر المستوى تعترضه كتلة ضخمة تسد الفجوات بالجدران.

ولحسن الحظ، عثر على فجوة صغيرة عند القاعدة تقع بين كتلة حجرية وأخدود أرضى، فأمكن لبلزونى أن يقيس سمك الحجر الاعتراضى، كان سمك الحجر ١٥ بوصة، وبالجس وجد أن هناك فراغًا فى السقف سمكه يسمح بتعشيق الحجر فيه عند اللزوم، واستخدمت روافع لرفع الحجر بصعوبة وتعشيقه فى السقف ودفع بلزونى بغلام من الأعراب إلى الداخل ومعه شمعة للاستكشاف، لكن الفتى وجد الممر خاليًا، وبعد محاولة أخرى أمكن رفع الحجر مسافة أكبر مما سمح لبلزونى الضخم بالمرور.

بعد بدء العمل بشهر أمكن لبلزونى أن يلج إلى داخل حجرة الدفن، وكانت أرضيتها منحدرة نحو ممر ضيق أسفل الممر العلوى اتجاهه معاكس لاتجاه الممر العلوى إذ يتجه نحو الواجهة الشمالية للهرم، وكانت على جدران الممر طبقة ملحية، وفى نهايته حجرة دفن واسعة للغاية طولها ٤٦ قدمًا وعرضها ١٦ قدمًا وارتفاعها ٢٣ قدمًا والحجرة منحوتة فى الصخر الصلب، وكان هناك تابوت حجرى على أرضية الغرفة، لكن يبدو أنه فتح من قبل، وكان مملوءًا حتى منتصفه بالنفايات. وكان على التابوت كتابة عربية ترجمها أحد القبط تدل على أن هناك من سبقوا بلزونى فى دخول الغرفة.

بعد ذلك قام بلزونى بتنظيف الممر السفلى المتجه نحو واجهة الهرم الشمالية، فعثر على حجرة دفن أخرى وحاجز آخر، فأيقن بلزونى أن مدخل الهرم الحقيقى من الخارج، أثناء ذلك كان أحد مرافقى بلزونى يعبث بالنفايات التى بالتابوت الحجرى فعثر على كسرة من العظام، وقد تحمس بلزونى لمنظر الكسرة فبادر بإرسالها إلى أمين متحف هنترن للتشريح بجلاسجو، فأفتى بأنها عظمة عجل، وأربك ذلك بلزونى وأثار الاستهزاء فى بعض الدوائر ممن وصفهم بلزونى بأن «حاسة التذوق الفنى عندهم ضعيفة».

فى هذه الأثناء، كان سولت قد فشل فى تحقيق أى نجاح فى حفائره بوادى الملوك، وأرسل إخطارًا بأنه سيعود للقاهرة، وعقب وصوله بقليل وصل زائر آخر هو الكولونيل فيتز كلارنس، وهو ضابط أرستقراطى كان بحوزته البريد الرسمى المرسل من اللورد هاستنجز حاكم الهند العام إلى انجلترا، وكان قد وصل لتوه بعد عبور البحر الأحمر، فوصل وهو فى قمة الإرهاق والتعب إلى دار القنصلية بعد حلول الليل، وما أن وصل حتى فوجئ وأدهشه كما قال «التماثيل الغريبة المسندة إلى الجدران حولى وتصور أنه داخل المقابر «لولا أننى تذكرت أننى فى قدس الأقداس الخاص بواحد من ألمع وأنجح هواة الآثار» كان سولت يتناول عشاءه عند وصول الكولونيل، ولكن ذلك كله غطى عليه ظهور بلزونى فى زى تركى، وقد وصفه الزائر بأنه «أكثر من رأيت من الرجال وسامة»

بعد يومين رافق الرجلان - فيتز كلارنس وسولت - المستكشف الإيطالى (بلزونى) فى رحلة إلى الهرم الأوسط، وتأثر فيتز كلارنس بإنجازات بلزونى، وكتب يقول «لقد تحدثت معه طويلا... وكان يرى أن الإثارة الحقيقية تأتى من شهرة المستكشف فى الأوساط الأثرية الأوروبية.. وقد قال إنه يعتبر زيارتى لمصر مناسبة سارة ثم خولنى مسئولية التنويه عنه فى انجلترا، وإظهارًا لفضله (أى بلزونى) لدى الشعب (الإنجليزى) الذى يخلص له «وما لبث فيتز كلارنس أن تولى نشر عجالة كان يعدها بلزونى عن كيفية دخول الهرم الأوسط.

لم تكن العلاقات الشخصية بين سولت وبلزونى جيدة؛ لذلك عندما عرض سولت على بلزونى استعداده لتمويل استكشاف الهرم التى وصلت تكاليفه إلى ٢٥٠ جنيهًا ساور بلزونى الشك فى مقاصده فرفض العرض ولم يكتف بذلك بل عزز الحراسة على هذا الاكتشاف حتى لا يقترب منه سولت، ويمكن تلخيص الوضع بينهما كما يلى:

كان سولت قد ملأ دار القنصلية بالتماثيل الرائعة الفريدة، وبالآلاف من الآثار بعضها نادر جدًا، وكان نصيب بلزونى من كل ذلك ما وصله من نقود عن عملية ممنون الصغير، والتمثالان اللذان باعهما للفرنسيين.

استمرت المفاوضات العقيمة بين الرجلين مدة؛ لأن التفاهم بين الرجلين كان شبه مستحيل لتوتر العلاقات بينهما، وبعد قد امكن التوصل لاتفاق يمكن تلخيصه فيما يلى:

يتقاضى بلزونى ٥٠٠ جنيه أثناء السنة التالية، نصف المبلغ نظير التابوت المرمرى «بعد بيعه»، ونصفها الآخر ينقب بها عن آثار يستأثر بها وحده (أى بلزونى) ويتعهد بلزونى فى المقابل بمساعدة القنصل فى نقل توابيت أخرى مازالت فى طيبة، ومساعدة معاون القنصل وهناك وهو بيتشى بكل الوسائل المتاحة.

وقد تحرر بذلك عقد وقع عليه بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٨١٨، وافترق الرجلان متفاهمان، وعلى هذا الأساس توجه بلزونى إلى طيبة فى رحلته الثالثة التى قدر لها أن تكون آخر رحلاته النيلية.

مر بلزونى عى الدفتر دار بك - الذى سبب له المتاعب من قبل - لمجرد تجديد الفرمان ثم وافى السـاندرو ريتشى فى وادى الملوك حيث كان الأخير عاكفًا على العمل فى مقبرة سيتى منذ أكثر من شهرين، وكانت أعمال النسخ تسير بصورة جيدة،. وبدأ بلزونى بنفسه فى عمل نسخ شمعية لأهم النقوش البارزة المنخفضة، وأقام الاثنان - بلزونى وريتشى - فى المقبرة معظم فصل الصيف، حيث الجو ألطف من لظى وادى الملوك، ولكنه مازال من السخونة بحيث يجعل من الاستنساخ بالشمع عملية فى منتهى الصعوبة، وكان الشمع ذائبًا فعلاً فى ذلك الوقت فكان لابد من مزجه بالغراء والغبار الناعم حتى يمكن استخدامه، وكان أصعب أجزاء العملية استنساخ النقوش بدون إتلافها كذلك كان المطلوب نسخ منها كثيرة جدًا.

كان تقدير ما يحويه المعبد كما قال بلزونى: «تماثيل أكبر من الحجم الطبيعى ١٨٢ تماثيل صغيرة ارتفاعها بين قدم واحد وثلاثة لم أحصها (لكثرتها) لكنى قدرت عددها بثمانمائة على الأقل - نقوش هيروغليفية حوالى ٥٠٠» لذلك كان استنساخ الصور عملية مضنية تحتاج للصبر والخبرة ظل هذه الظروف الصعبة.

انشغل بلزونى بمقبرة سيتى طوال صيف ١٨١٨، بعد تركيب باب خشبى متين لحمايتها، ولم يدع له العمل بها وقتًا تقريبًا لعمل حفائر جديدة رغم أن التصريح الذى يحمله يسمح له بذلك على شطى النهر بالقرنة، وكان من أسباب زهد بلزونى فى الحفر أنه وجد الشطين كليهما يملؤهما أعوان دروفيتى وسولت اللذين استوليا على حقوق الكشف فى كل الأراضى المناسبة هناك أثناء رحلتهما (التى سبق ذكرها)، ورتبا أمورهما قبل العودة إلى القاهرة، ومن ثم آثر بلزونى تجنب المواجهة مع مندوبى الرجلين والانزواء «فى مقبرته» ووجه الغرابة فى ذلك أن هذه كانت المرة الأولى التى يمكنه الحفر فيها بنفسه لنفسه لا لغيره، ومع ذلك يجد نفسه عاجزًا عن ذلك، وقد عبر بلزونى عن هذا الوضع بمرارة فقال: «كنت إذا حددت أى موقع فى أى مكان مهما كان فقد كان بإمكان أى من الطرفين - وأعنى هنا أعوان السيد دروفيتى والسيد سولت بإنه مبشر وأنهم حجزوه من قبل

وأستطيع أن أؤكد أننى لو حددت أحد الشطين نفسه أو حتى الصخور الصلدة لأدعيا أنهما بصدد هدمها فى اليوم التالى.» (منتهى اليأس).

كان منافسا بلزونى حريصين على عرقلة وتجميد نشاط هذا الأثرى الناجح ولكن بلزونى بعد محاولات فاشلة فى الحفر فى أماكن سبق له أن وجدها غير مجدية، تحدى اعتراضات بيتشى باسم سولت وأخذ يجرى حفائر فى موقع اختاره خلف التمثالين العملاقين على السهل النيلى وهو من مواقع امتياز سولت وكان دروفيتى - أيضا - قد حفر هناك ولم يستخرج سوى بعض التماثيل المحطمة، ولكن بلزونى المحظوظ - دائمًا - يشاء له حظه أن ينجح فيما فشل فيه غيره، ففى ثانى أيام الحفر ظهر له تمثال جالس للملك أمنحتب الثالث من الجرانيت الأسود - كامل تقريبا - وبثبات يدعو للإعجاب نقل ملكية التمثال لهنرى سولت واكتفى بحفر توقيعه على التمثال.. هذا التمثال الجميل موجود - الآن - بالمتحف البريطانى.

بعد هذا الاكتشاف الذى يعزى إلى الصدفة البحتة، توقف بلزونى عن إجراء أية حفائر وركز على عمله فى المقبرة، ولكنه انتهز الفرصة كى يكون لنفسه مجموعة أثرية وصفها بأنها «مجموعتى الثرية الخصوصية الصغيرة، التى أفخر باحتوائها على بعض الآثار الصغيرة الممتازة، كالمخطوطات،...، إلخ.» ويرجع جزء كبير من نجاحه فى ذلك إلى أصدقائه فى القرنة، فقد كانوا يؤثرونه بأثمن ما لديهم من الآثار التى يسلبونها من المقابر، وكانت هذه الصداقة الوطيدة بينه وبينهم سببها أن بلزونى هو الوحيد من بين المستكشفين الأثرى ن فى كل العصور، الذى عمل مخلصًا على فهمهم فى مجتمعهم وفهم أسلوب حياتهم، وأدخل ذلك ضمن اهتماماته الشخصية.

١٣ـ البحث عن برنيس القديمة

كان نسخ حجرة دفن سيتى الأول على وشك الانتهاء عندما حدث لقاء عابر بين بلزونى وأحد الزوار كان نتيجة قيام بلزونى برحلة جديدة مثيرة. (وتبدأ القصة) عندما يقوم اثنان من القبط بعبور الصحراء من البحر الأحمر إلى وادى النيل فى رحلة مرهقة لمقابلة الباشا، وأخطر الرجلان الباشا بأنهما شاهدا بعض مناجم الكبريت القديمة فى الجبال المطلة على البحر الأحمر قرب القصير،. وكان الباشا فى حاجة إلى خبير أوروبى رحالة يصلح لمعاينتهما فرشح له دروفيتى خبيراً فرنسيًا فى الآثار والتنجيم اسمه فردريك كايو «كان فى مصر قبل بلزونى وعمل مع دروفيتى فى مناسبات عديدة، ووافق الباشا على تكليفه بالمهمة.

بادر كايو بتنفيذ المهمة تصحبه تجريدة عسكرية، وقرر كايو أن المناجم لا خير فيها، لكنه زار جبل زبارا الذى اشتهرت مناجمه فى العصور الكلاسيكية بوفرة الزمرد ـ كما ذكر المؤرخون، ثم أهمل شأنها فى العصور الحديثة، مكث خبير المناجم ـ كايو ـ شهرين فى هذه الرحلة عاد بعدها ومعه تقارير وردية عن ترسيبات الزمرد، سال لها لعاب الباشا فأرسل معه تجريدة أخرى ومجموعة من السوريين المدربين على العمل فى المناجم (لاستغلالها).

عاد كايو بعد عدة أشهر ومعه عشرة أرطال من الزمرد الخام، حكى كايو حكاية منمقة عن مدينة مخربة بها ثمانمائة بيت وبعض المعابد بجوار مناجم

الزمرد ورغم أن الأطلال كانت تبعد عن البحر لأكثر من ثمانية أميال، إلا أن خبراء الآثار «من مكاتبهم» بالقاهرة سارعوا بإعلان أن الأطلال بقايا مدينة برنيس، أما برنيس هذه فقد كانت فى العصر القديم الميناء الرئيسى على البحر الأحمر فترة طويلة، ويذكر أنها كانت أيام البطالمة مركزًا تجاريًا مزدهرًا، تجتمع فيه التجارة مع البلاد العربية والهند والخليج الفارسى، وعلى هذا فهى تصلح ثمرة ناضجة لأول مستكشف للآثار يوجه اهتمامه إليها، ومن هنا راودت الأحلام خبراء الآثار المصريين فظنوا أنهم عثروا على «بومبى» جديدة وكان السبب فى ذلك كله أن كايو قد هول من أمرها فى تقاريره قبل أن ينسل فى هدوء وينفض يديه من موضوع المناجم.

ما سبق ذكره يلخص الوضع الذى وصل إليه الموضوع قبل علم بلزونى به، وبالصدفة بعد أمرت عدة أشهر من هذه الأحداث مرض أحد المنجمين السوريين أثناء زيارته لوادى النيل لشراء مواد تموينية، ولما علم بوجود طبيب مسيحى فى وادى الملوك اتصل ببلزونى وريتشى للتوسط لديه كى يعالجه من مرضه، ووجدها بلزونى فرصة مناسبة لكى يستفسر من الرجل عن استكشافات كايو، ولم يكتف الرجل بمجرد الحديث عنها بل أبدى استعداده - أيضًا - لمرافقة بلزونى إلى هناك، وكان العمل فى مقبرة سيتى شبه منته، والحفر فى طيبة شبه متوقف.. فتحمس بلزونى للفكرة رغبة منه فى القيام بمغامرة جديدة، ولم يضع بلزونى وقتًا فأعد قافلة صغيرة على عجل بارحت وادى الملوك فى ١٦ سبتمبر، وكان قوام القافلة ثمانية أفراد من بينهم المنجم السورى وريتشى (الرسام) وبيتشى والبقية أتباع وخدم.

أعدت القافلة قاربًا ينقلهم إلى أدفو جهة الجنوب، على أن يخترقوا الصحراء من هناك إلى البحر الأحمر، وكان الوقت وقت فيضان، وكان فيضانا عاليًا جدًا، زاد فيه ارتفاع مستوى النهر ثلاثة أقدام ونصف أكثر من سابقة (أى فوق المعتاد بثلاثة أقدام)، وغرق فى الفيضان عدة قرى ومئات من الأهالى، ولذلك جندت كل السفن لإنقاذ محصول الحبوب ونقله للأماكن العالية، ومرت المركب التى بها قافلة بلزونى ورفاقه على قرية تحت مستوى النهر بأربعة أقدام وكانت الوسيلة

الوحيدة لإنقاذ أهلها نقلهم لأحد السدود أو لمكان مرتفع، لأن القرية لم يكن بها مراكب ولا نخل يتسلقونه إذا انهارت السدود، وكان وضع القرى التى تبعد عنها جنوبًا أسوأ حالا فبعض هذه القرى اختفى بالكامل، وتجمع ساكنها مع مواشيهم وغلالهم فى الأماكن العالية، وكان الخوف من حدوث مجاعة واردًا؛ لأن انحسار الفيضان لم يكن متوقعًا قبل أسبوعين، أما المراكب فكانت أندر من أن تسعف فى هذا الوقت، وقد نجا بعض الأهالى بطرق عجيبة أشبه بالمغامرات، فمنهم من ركب فوق ظهور أفراس النهر ومنهم من تعلق بحزم الأسل (السمار) أو غير ذلك من الوسائل غير المعتادة، ولم يمكن لبلزونى أن يتوقف ليعين هؤلاء لأنه كان يدرك أنه لو فعل فسوف تندفع الجموع إلى المركب فيغرق الجميع، لكنه لما وصل إلى أرمنت الواقعة جنوب هذا المكان أمضى معظم نهاره فى إغاثة الأهالى ونقلهم عبر النهر لأماكن أكثر أمنا، فقام بتنظيم أربع نقلات خصص الأخيرة منها لنقل النساء» وهن أقل ما لدى (الرجال) أهمية.

فى إسنا زاروا حاكمها إبراهيم بك، فاستقبلهم ببشاشة او أعطاهم التصريح الذى طلبوه بشرط عدم التنقيب عن الزمرد بتاتًا، وهذا الموقف معروف عن الأتراك لأنهم لم يفهموا السبب فى اهتمام أى شخص بالأطلال أو الحجارة (الآثار) فلديهم الربح وحده وهو الهدف وكانت الشكوك نفسها تساور كبير المنجمين محمد أغا الذى كان فى إدفو عندما وصل إليها بلزونى، وتولى كاشف إدفو أمر تدبير جمال القافلة والجمالين مع شيخ قبيلة عبيدة البدوية، القبيلة التى تمر عليها القوافل فى طريقها للمناجم، وكان الأجر الذى استقر عليه الاتفاق مناسبًا لبلزونى تماما، فقد قبل الشيخ بتأجير الجمال نظير قرش فى اليوم (لم يوضح المؤلف أكان القرش للجمل الواحد أم للمجموعة كلها!) على أن يدفع للجمالين أجرًا زهيدًا. لكن الشيخ حاول فى اليوم التالى التخلى عن تعهداته وطالب بلزونى بالتريث حتى ينهى الشيخ بعض أعماله ويصحبه فى الرحلة، وأيقن بلزونى أن كبير المنجمين أثار عليه الشيخ، لكن حزم بلزونى حسم الموقف فقد أصر على السفر فى اليوم نفسه، وبذلك يبطل كيد شيخ القبيلة ومن أثاره، وبذلك تحركت القافلة فى عصر يوم ٢٢ سبتمبر فى طريق ممهد مطروق

منذ عدة قرون، وكان قوام القافلة ستة عشر جملا، خصصت منها ستة جمال لحمل المؤن.

تأسست برنيس فى القرن الثالث الميلادى، وقد أسسها بطليموس الثانى لتكون ميناء؛ لأنها تقع فى قلب خليج آمن من العواصف التى تهب من الشمال، وقد وجدها ربابنة السفن مناسبة كمرفأ لتجارة البحر الأحمر رغم بعدها عن النيل بأكثر من ٢٥٠ ميلاً. وكان هناك طريقان يصلان الوادى ببرنيس: الأول أنشأه بطلميوس ويصل برنيس بقفط، والثانى طريق صحراوى جنوبى يصل إلى النيل عند إدفو، واختار بلزونى الطريق الصحراوى لأنه الطريق الحكومى، لذلك كان آمنا وبه الاستراحات وآبار المياه الصالحة للشرب؛ وكانت تجارة القوافل من الشرق وصحراء مصر الشرقية تمر به حاملة للمعادن النفيسة والأحجار الكريمة والتوابل لتصل إلى وادى النيل.

سارت القافلة فى البداية فى أرض ممهدة تتناثر فيها أشجار الجميز العجفاء وبها كثبان من عظام الجمال، وأثناء السير اهتدت القافلة إلى آثار تدل على وجود مدينة قديمة، فقد عثرت على محطات مهجورة مما كانت تستخدمه القوافل والمسافرون فى العهود القديمة، كانت بقايا جدرانها مازالت قائمة وبها بعض الآبار المملوءة بالمياه، واستمروا فى السير حتى آخر اليوم الثانى، ثم أقاموا مخيمهم فى مدخل وادى الحياة، المجاور لأحد المعابد الصخرية، وكان بجواره أطلال نقطة حراسة وحظيرة جمال ونزل للمسافرين.

استؤنفت الرحلة قبل طلوع شمس يوم ٢٥ سبتمبر، حتى وصلت إلى منطقة شديدة التصحر ليس فيها زرع، وفى مساء اليوم نفسه أصابت الدكتور ويتشى حمى شديدة، فرأوا إعادته لوادى النيل حتى لا تتفاقم حالته؛ لذلك قسموا القافلة ثلاثة أقسام (غير متساوية): القسم الأول يحمل المؤن والأمتعة الثقيلة ويسير فى الطريق الرئيسى ويتجه نحو الشرق، والثانى يضم بلزونى وبيتشى اللذان اتخذا طريقًا جانبيًا لمعاينة منطقة بها أطلال دلهم عليها بعض الأهالى، اتضح من معاينتها أنها مخازن مياه، (الثالث لم يذكره المؤلف ويمكن استنتاج أنه يتكون من ريكى المريض ومن رافقه إلى مصر).

انبهر بلزونى بالقبائل الصحراوية المتناثرة فى قرى صغيرة منتشرة فى الصحراء الشرقية الشاسعة، وأعجبه فى العبابدة - رغم بداوتهم - عشقهم للحرية وتحللهم من أى تعهد للحكومة، وبعض هؤلاء البدو كان يقوم بتربية وبيع الجمال، لكن الغالبية كانت تعيش فى قناعة على مستوى الكفاف، وبشرتهم السمراء وشعورهم المجعدة تجعلهم أشبه شىء بالنوبيين الذين عاشرهم بلزونى فى أبى سنبل، «والغريب أن معظم العبابدة يعيشون عراة، لكنهم يعتنون بشعورهم ويرجلونها ويضمخونها بالشحم الحيوانى - إلا إذا كانوا صلعًا، وكان هذا الدهن يذوب فى حرارة الشمس وتنبعث منه «رائحة نفاذة لذوى الأنوف الحساسة» ولكن بلزونى وجدهم لطيفى المعشر، ودودين، لم يمانعوا فى بيع بعض خرافهم القليلة التى عصف بها قحط استمر مدة طويلة، واستلفت نظر بلزونى قوة تحمل هؤلاء البدو، فقد كان يمكنهم تحمل العطش أكثر من ٢٤ ساعة مهما اشتدت حرارة الجو.

وحوالى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٩ سبتمبر، وكان قد انقضى على الرحلة سبعة أيام تراءت لهم مياه البحر الأحمر الزرقاء على مسافة بعيدة، وفى اليوم التالى وصلوا إلى معسكر التجيم عند سفح جبل زبارا، وكانت أحوال المعسكر سيئة للغاية، فالمؤن التى ترد إليهم من وادى النيل كانت دائما تتأخر عن موعدها، وكان خطر الموت جوعًا أو بأيدى العبابدة قائمًا، فالعبابدة قد ضاقوا بهم وبتحرشهم بنسائهم أما الزمرد فلم يجدوه فى المناجم القديمة، وكان تنظيف الآبار الموجودة لاستخدامها يمثل خطورة بالغة، وكان التنازع بينهم من الأمور المعتادة لدرجة أن اثنين من العمال قتلا أثناء عصيان ضد الرؤساء.

أراد بلزونى أن يبتعد عن المشاكل، وكان متشوقًا لإكمال الرحلة؛ لذلك ما أن تفقد المناجم واستعلم عنها من العمال.. حتى أسرع بمبارحة المكان، مصطحبا معه دليلاً من الأهالى ليقودهم إلى المدينة الأثرية التى ذكرها كايو.

كان السفر مضنيًا تلك الليلة وأصابهم العطش، فقد كان الدليل يسير بهم فى وديان ضيقة ومنحدرات غير ممهدة أجهدت الجمال، ولم يظهر أثر لبرنيس وهم يتطلعون ويفحصون المكان من علو. وكان كلام كايو المبالغ فيه قد أدخل فى روع بلزونى أنه سيرى «أساطين فخمة ومعمارًا لصرح كبير».

وثبت بسرعة عدم صدق كايو، فقد وصلوا بعد التعب إلى مجمع به بعض البيوت والجدران المنهارة، وأصر الدليل الذى يصحبهم على أن هذه بعينها هى أطلال المدينة التى نوه عنها كايو، ولم يصدق بلزونى عينيه واشتد الجدل الحاد لأن بلزونى أصر على مواصلة الرحلة نحو الساحل، وركب بلزونى جمله فشذ به الجمل تبرمًا لأنه «كان يفضل البقاء حيث هو بدلاً من السير للبحث عن برنيس» وتبع الجميع بلزونى على مضض وكان قد دفع للنزول إلى وادٍ مواجه جنوبًا، وفى الوادى تجولوا أربع ساعات لكن أطلال برنيس لم يظهر لها أثر، وعاقهم الظلام فعسكروا تحت صخرة ضخمة وأخذ بلزونى يقلب الأمر فى رأسه ويفكر، أما الماء فقد نفذ وأرسلت الجمال للبحث عنه وأما الزاد فلم يبق منه سوى بعض البسكويت يكفى لثلاثة أسابيع. وأكل بلزونى ومن رافقه من الأوروبيين من هذا البسكويت ومن لحم مخزون منذ ثلاثة أيام مما جعل يحمد الله لأن حاسة الشم مما لديه ضعيفة.

فى صباح اليوم التالى صعد بلزونى وبيتشى فوق التل وأخذا فى السير حتى ابتعدا عن المعسكر خمسة أميال، وأخذا يستكشفان الأرض تحتهما من ذلك العلو، لكن لم يظهر لهما شىء - لا مدينة ولا حتى البحر الأحمر؛ لذلك أيقن بلزونى أن كلام كايو كان بعيدا عن الدقة فقال «إنه لشىء يبعث على الضيق، أن نقوم برحلة كهذه على أساس بيانات مضللة «ثم قال ساخرًا» إن (هذه البلدة) مثل بلد العجائب التى ذكرها البطل لامانشا، ولكنها لم تظهر قط».

وعلميا كان يمكن القول إن الرحلة قد ضلت طريقها، فلم يكن مع القافلة سوى خريطة قديمة للبحر الأحمر رسمها دانفيل سنة ١٦٧٧ بمقياس رسم صغير جدًا ولم يتوخ فيهاالدقة، ولاحظ بلزونى أن مسالك الوادى كلها تتجه جنوبًا فحدس بذلك أن البحر الأحمر لابد أن يكون فى هذا الاتجاه؛ فما أن عادت الجمال من رحلة البحث المتعبة عن الماء، حتى أمر بلزونى بالتحرك فورًا نحو الجنوب، وبالطبع حدث هرج ومرج ومعارضات كثيرة لم يوقفها سوى حزم وكياسة بلزونى بالوعد تارة وبالوعيد تارة أخرى حتى استقام الأمر، لكن المسار الذى اتخذته القافلة بالفعل كان مسارًا شماليا شرقيًا، أوصلهم إلى واد شديد

الانحدار فيه كهف ضيق بين الصخور اسمه «خرم الجمل» ترجمه بلزونى «أجرة الجمل» لخطأ فى فهم المعنى، هنا نصبت القافلة معسكرها عند الغروب، وتابعوا الرحلة فى اليوم التالى فتراءت لهم مياه البحر الأحمر، وما أن وصلوا إليها حتى رموا أنفسهم فيها «كأنهم تماسيح النيل».

أصبح ما بحوزة بلزونى من الطعام لا يكفى لأكثر من سبعة عشر يوما، وكان قد حول خط سيره إلى الغرب بجوار الساحل بحثًا عن الميناء المراوغ،واحتج الجمالون، ولكن احتجاجهم ذهب سدى أمام تصميم بلزونى وعزيمته؛ لذلك رويت الجمال من أحد الآبار وسارت القافلة بحذاء الشاطئ الرملى الصخرى، وبعد فترة قصيرة التقوا بنفر من الصيادين أتحفوهم بوجبة من السمك المشوى، وبعض المحار المستخرج من بين الصخور، الذى استمتع بلزونى به كثيرًا ، ولكن الوجبة الشهية سببت لهم العطش.

وهنا انقسمت القافلة إلى قسمين: القسم الأول وبه العتاد ومعظم الجمال توجه إلى شعب قريبه فى الجبال، والثانى ويتكون من بلزونى وبيتشى وخمسة من الجمالين واثنين من الصبية على ظهر خمسة جمال.، وهؤلاء اتجهوا للجنوب حاملين أكبر كمية من المياه استطاعوا توفيرها، وسار بلزونى وصحبه لمدة يومين فتراءى لهم كوخ منعزل لبعض الصيادين، فلما اتجهوا إليه خاف منهم الأهالى فهربوا ورفضوا العودة، فاسترضاهم بلزونى وطلب منهم إعداد وجبة سمك للرحلة ودفع ثمنها وهو مكره، وقد شبعوا من الطعام لكن أصابهم الظمأ، وفى سبعة من أكتوبر وصلوا إلى رأس بناس ونصبوا مخيمهم بجوار الشاطئ، وكان ما معهم من الماء قليلا لدرجة لاتكاد تشفى غليلاً، فى اليوم الثانى بلغوا مشارف مدينة مهجورة ظاهرة للعيان، ويقول بلزونى: «فدخلناها فرأينا بها مواقع للمبانى ذات نظام معين، وشوارع وطرق مرصوفة، وفى وسط المدينة وجدنا معبدًا صغيرًا مصرى الطراز، كادت الرمال تردمه...» وتقع هذه المدينة وسط مدرج من الجبال ويحجبها من الشمال جبل رأس بناس، وأخذ بلزونى قياسات للمدينة فوجد طولها حوالى ألفى قدم وعرضها حوالى ألف وستمائة قدم، واستنتج بذلك أن هذه هى ضالته برنيس (البائدة)، وقد ثبت أن استنتاج بلزونى كان فى محله،

ووجد أن هذه المدينة صغيرة، وأنها لا تستحق كل ما أثير حولها من ضجة ودعاية.

لم يكن لدى القافلة متسع من الوقت، وكان الموقف التمويني حرجًا فالماء شحيح للغاية وكل طعامهم من البسكويت الشديد الجفاف، وكان آخر طعام طازج تناولوه أكلة السمك منذ أيام (وكانت سببًا فى ازدياد العطش)، وخوفًا من تذمر الأدلاء الجوعى العطشى، صرح بلزونى بأن القافلة سوف تغادر المكان فى اليوم التالى، ومن حسن الحظ أن القمر كان مكتملاً فى هذه الليلة، فنشر البدر ضياءه فسهل عليهم التنقيب والرسم، وأمر بلزونى أحد الصبية بإزاحة الرمال عن المعبد، ولما كانوا قد نسوا إحضار جاروف معهم فقد استخدموا صدفة كبيرة بدلاً منه، وتمكن الصبى بهذه الطريقة من إحداث فجوة بعمق أربعة أقدام فظهر تحتها نقش ضئيل البروز، بالإضافة إلى لوح من البريشيا الحمراء المنقوش أيضًا، فأخذوا هذا اللوح «تذكارًا لزيارة معبد مصرى على شاطئ البحر الأحمر وهذا المعبد ـ كما عرفنا فيما بعد ـ كان مكرسًا لسير أبيس وهى عبادة أبيس/ أوزير التى كانت منتشرة فى مصر فى العصر الرومانى.

أثناء قيام الصبى بتنظيف المعبد وإزاحة الأتربة عنه، كان بلزونى وبيتشى يفتشان فى المدينة فلاحظا أن البيوت متقاربة للغاية، وكانت مساحة أكبر البيوت ٤٠ قدمًا فى ٢٠ قدمًا، وأكثرها أصغر حجما من ذلك، وقدر بلزونى عدد بيوت القرية فى أوج ازدهارها بألفى بيت، بعد ذلك قام بقياس المعبد فوجد أبعاده ١٣٠ قدمًا طولاً و٤٣ قدمًا عرضًا، ووصف بلزونى المدينة بأنها دراماتيكية ولكنها مخيبة للآمال، وقدر عدد سكانها فى أوج ازدهارها بنحو عشرة آلاف نسمة.

لحسن حظ القافلة عثرت على الماء فى منتصف الليلة التالية فى بئر «أحرتريت» فى التلال التى خلف برنيس، وكم أسعدهم أن يروا قطيعًا من الغنم، لكن سعادتهم لم تتم لأن الراعيتين «ابتعدتا عن الطريق بحزم» وأرسل بلزونى بعض جمالته ليتعقبوهما فتمكنوا من إيقاف الفتاتين قبل أن تتمكنا من تخبئة القطيع، «وأغدقنا عليهما لنحصل على بعض الحملان، لكننا كنا نوجه عنايتنا للقطيع نفسه ككل فى المقام الأول،» ـ «كما قال بلزونى. وكانت هذه أول مرة منذ

أيام يذوقون فيها لحمًا متوسط الشواء - لكنه كان يابسًا، وبعد انقضاء يومين التحقوا بباقى الرفاق عند منحنى «أميوز»، وهناك وجدوا الماء متوفرا، و رأوا طريق القوافل القديمة الذى كان يربط بين برنيس ووادى النيل.

تأكد بلزونى أن المدينة البائدة التى رآها هى برنيس، أما كايو - فى رأى بلزونى - فلم ير سوى أحد معسكرات التتجيم فيه بيوت متناثرة على أرض جرداء جبلية تلفحها الشمس مثل الأتون، الحياة فيها صعبة ومنعزلة، ولعل هذا هو الذى أشعل خيال كايو، وكان بلزونى قد تجول فى المدينة كثيرًا، ولعله قد أصابه الإحباط مما جعله أن يقول «لقد زرت ولعنت مدينة يجهلها المسافرون الآن، كانت من ألفى سنة مأهولة بالسكان، ولم يبق منها سوى أطلالها «المهم أن كايو ذكر أنه وجد بها خمسمائة بيت لكن بلزونى لم يجد بها سوى ثمانين.

وآن أوان العودة إلى مصر، فتوجهت القافلة نحو الوطن، وكانت رحلة العودة مرهقة أصابهم فيهاالعطش، وعندما وصلت الجمال إلى الجبال القريبة من النيل كانت من الإرهاق بحيث أنها بالكاد استطاعت أن تبرك ومات من الجمال فى الطريق أربعة، وأثر على حال المجموعة العطش والماء الردىء، وعندما وصلوا إلى معبد وادى الحياة بعد خمسة أيام، كان قد بلغ بهم العطش حدا جعلهم يستسيغون ماء آخر بئر وكانوا فى رحلة الذهاب قد وجدوه مرًا لكنه كما يقول بلزونى «بدا لنا حلو الطعم فى العودة».

استغرقت هذه الرحلة شهرًا كاملا؛ عاد بعدها بلزونى وبيتشى إلى المركب التى استأجراها، وكان ذلك يوم ٢٣ من أكتوبر، ودفعا للجمالة المرهقين أجورهم وأهديا بعض المسدسات للكاشف تقديرًا منهما لمساعدته، وكان الفيضان قد انحسر وغاضت المياه «وجفت الأرض التى أغرقها الفيضان، ويجرى (الآن) زراعتها، وأعيد إصلاح حال القرى التى أغرقها الفيضان، وفتحت السدود، وذهب الفلاحون للعمل فى الحقول... وتغير وجه الحياة.»

والحقيقة أن بلزونى عندما عاد كان راضيًاعما حققه؛ والحقيقة أن من حقه أن يسعد، لقد كلف نفسه مشقة رحلة مرهقة فى الصحراء فى ظروف صعبة - كما رأينا - وعاد ومن معه سالمين، ثم أنه تمكن من إزالة الغموض والالتباس

اللذين أحاطا ببرنيس البائدة، ووضح الحقائق حول ادعاءات كايو، بذلك أصبح بلزونى شغوفا إلى العودة لاهتماماته الأثرية بعد أن علا شأنه وذاع صيته لكشوفه المثيرة ـ وهذا ما أسعد بلزونى أكثر من أى شىء آخر.

١٤ ـ مسلة فيلة

مناخ الصحراء أمره عجيب، فمن هواة الرحلات من ينجذب إليه، ومنهم من ينفر منه، ويحدثنا التاريخ عن كثير ممن أمضوا معظم حياتهم فى رحلات صحراوية متنقلين فى القوافل البدوية التى تجوب الصحارى. ومن هذه الفئة بورخارد صديق بلزونى، أما بلزونى فقد صبر على المناخ الصحراوى شهرًا وهو يستكشف المدينة البائدة ـ برنيس، ويبدو أن الصحراء جذبته لأنه ما أن وطأت قدماه أرض الوادى حتى أخذ يفكر فى ترتيب رحلة صحراوية أخرى إما إلى برنيس مرة أخرى أو إلى الواحات الخارجة غرب طيبة، وجدير بالذكر أن صديقه اللدود كايو قد زار واحة الخارجة أيضا.

لما وصل بلزونى إلى القرنة وجد بها سولت قنصل بريطانيا مع بعض السياح الأثرياء، وكان من بين هؤلاء البارون ساك ـ من نبلاء بروسيا ومن علماء الطبيعية، ومن خبراء المناطق الاستوائية، وكان قد شاخ وأصبح مسنًا. كذلك كان بصحبته وليام جون بانكس شاب يهوى الرحلات ويحب المجادلات وهو من المهتمين بالآثار ومما يذكر أن بانكس كان زميلاً للشاعر المعروف بايرون فى الجامعة ويشاطره بعض أذواقه وقيمه، كانت رحلة هذه الجماعة محاطة بالفخامة والفخفخة، وكانوا يزمعون زيارة الشلال فى رحلة بطيئة، وكذلك كانوا يفكرون فى ايجاد وسيلة لنقل المسلة الراقدة باسم سولت وهى كما نعرف المسلة التى أعجبت بلزونى فى رحلته الأولى وأهداها للقنصل سولت.

تنازل سولت عن حقوقه فى المسلة لصالح بانكس الذى سعد كثيرا عندما قبل بلزونى أن يتولى بنفسه شحن المسلة إلى القاهرة، وكان من أسباب سعادة بلزونى أن يرافق هؤلاء فى رحلتهم ويستمتع بهذا الجو الفاخر بعد معاناته خلال الفترة الماضية، وكانت السفينة التى يستقلها القنصل البريطانى كبيرة مريحة، وكان يصحبها سفينتان أصغر حجمًا، استقل إحداهما البارون والأخرى بانكس وفى المؤخرة كانت تسير شاحنة مليئة «بالغنم والماعز والطيور والأوز والبط والحمام والديكة الرومية... والحمير التى لم تكف عن النهيق «وسئم بلزونى مظاهر الترف التى لم تكتمل: «كانت المائدة خالية من الثلج حتى يمكننا أن نتبرد ونحن نتناول الغذاء الدسم والفاكهة ونوعين من النبيذ، كذلك كان التعب ومخاطر الرحلة يسببان لنا القلق»

كان تواجد سولت وبلزونى معًا فى القرنة من الأمور التى سهلت من لقائهما وتفاهمهما، وأمكن لبلزونى أن يبث شكواه للقنصل سولت؛ لأنه لم يتمكن بعد من جمع مجموعة أثرية شخصية لنفسه، ووافق القنصل على أن يسهل له الأمر، واتفق الرجلان على أن يتولى بلزونى الحفر على نفقة القنصلية فى مناطق امتياز إنجلترا على ضفتى النيل ثلاث مرات، تكون حصيلة أعمال الحفر الثالث ملكًا خالصًا له، أرضى هذا الاتفاق بلزونى، لكن الذى يدهشنا أنهما لم يوفقا فى الاهتداء إليه من قبل، وعمومًا فإن الظروف فى ذلك الوقت توحى بأن هذا الاتفاق خير ما يمكن التوصل إليه آنذاك.

بعد قليل وصل القنصل الفرنسى إلى طيبة وعرض على القنصل البريطانى شراء التابوت المرمرى، لكن طلبه رفض على الفور، ولم يمنع هذا أن يقوم سولت وبلزونى بمرافقة السيد دروفيتى فى جولة يمر فيها على مناطق الامتياز الأثرية البريطانية فى منطقة الكرنك، لكن جو المقابلة كان يتسم بالبرود والتوتر، وكانت المناقشات يسودها الجفاف، وفى إحدى حالات الانبساط أخذ دروفيتى يحكى عن رجل شبيه ببلزونى فى ملبسه، وجدوه مختبئا فى الأطلال يحاول الاعتداء على دروفيتى نفسه، وأنه اتصل بعمدة البلد للفت نظره إلى ذلك، وأضحكت الحكاية سولت، لكنها أقلقت بلزونى «لأنه لوتصادف وتجولت بين الأطلال كما

تعودت أن أفعل باستمرار، فقد يرسلون من يصطادنى ثم يدعون أن الحادث جاء نتيجة الخلط بيننا» كان ذلك سببًا فى اتخاذ بلزونى أسباب الحيطة وذلك من حسن الحظ.

بعدانقضاء الجولة دعاهم دروفيتى إلى زيارة خيمته بين الأطلال، واحتفى بهم فقدم لهم الشربات والليمون، وتحدثوا عن برنيس والآثار، حتى أعلن بلزونى عرضًا عن عزمه على نقل مسلة فيلة رغم تأخر الوقت بالنسبة للفيضان، واستغرب لذلك دروفيتى لأنه كما زعم تلقى من ذوى الوجوه الحمر (الأتراك) فى أسوان وعودًا فى مناسبات عديدة أنهم سينقلون المسلة لحسابه هو، فهم بذلك قد خدعوه، لكن بلزونى أوضح أن المسلة ملكه منذ أول رحلة له، وأنه أهداها للقنصل سولت، وأنه الذى دفع تكاليف حراستها كل ذلك الوقت، وبعد ذلك أوضح للقنصل الفرنسى أن سولت نفسه تنازل عن المسلة للسيد بانكس، وعلى ذلك فسوف ينقلها بلزونى بنفسه لحساب السيد بانكس إلى الإسكندرية، ولم يمانع فى ذلك دروفيتى، كما حدث وأهدى بلزونى التابوت من قبل - فى قصة سبق لنا ذكرها، ولعله لم يبد اعتراضًا لأنه كان على يقين أن المسلة لم تنقل من مكانها أبدًا ومع ذلك كان حريصًا على معرفة موعد مغادرة الفوج الإنجليزى للمدينة.

بعد يومين - فى ١٦ نوفمبر - اتجهت القافلة البحرية الكبيرة إلى الشلال الأول، وبعد ستة أيام وصل الفوج إلى معبد إدفو الجميل فصادفوا أعوان دروفيتى يعملون هناك، كذلك علموا أن واحدًا من هؤلاء مضى مسرعًا إلى فيلة على إثر رسالة وصلت من بحرى - أى من دورفيتى - ولما أبحروا جنوباً شاهدوا الوكيل البدمونتى إنطونيو ليبولو فى زورق صغير وهو فى عجلة من أمره، ولما حاولوا إيقافه لم يعرهم التفاتًا ،واستمر فى سيره؛ لذلك انفصل بلزونى عن المجموعة عند كوم أمبو واستأجر زورقا إلى أسوان على جناح السرعة.

كانت المشاكل فى انتظار بلزونى فى أسوان، فقد سبقه إليها ليبولو و أخذ يحرض الأهالى على منع بلزونى من أخذ المسلة، ولكن الأغا الذى لم ينس لبلزونى هداياه صرح بأن المسلة يملكها الإنجليز ويدفعون أجور حراستها منذ

ثلاث سنوات، فلجأ ليبولو إلى المراوغة، فعبر إلى فيلة وتظاهر بأنه يقرأ المكتوب عليها بالهيروغليفية وأمام المواطنين السذج ادعى ان النصوص تقول إن المسلة ملك لأسلاف دروفيتى.. (إذًا فهو وارثها!). ثم رفع الأمر إلى القاضى المحلى وقدم له رشوة فحقق مأربه واختفى فورًا.

عندما وصل بلزونى وجد الأمر قد قضى، لكنه اتصل بالأغا لإقناعه بمشروعية دعواه وكان الوقت ضيقا للغاية فالمسلة يجب أن تنقل فورًا وإلا أدى انخفاض منسوب المياه - فى حالة التأخير - إلى استحالة نقلها عبر الشلال؛ لذلك قرر بلزونى تجاهل كل ما فعله أعوان دروفيتى اعتمادًا على أن وضع اليد سوف يضع الجميع أمام الأمر الواقع، وكان لحسن علاقته بالمواطنين أثره فى نجاح خطته، بعكس وكلاء دروفيتى المرورين، وأهدى بلزونى الأغا ساعة، كما دفع لريس المركب نصف الأجر مقدمًا فقبل نقل المسلة فى الشلال، ومن المفارقات الطريفة أن يفلح بلزونى فى التعامل مع الريس، مع أن هذا الريس نفسه رفض عمل الشىء نفسه لدروفيتى قبل شهرين تحت زعم أن المياه قد انحسرت بالفعل - ولا يمكن نقل المسلة.

ولم يضع بلزونى وقتًا، فبدأ بجذب المركب إلى الشط القريب من المسلة ورغم ندرة الخشب تدبر بلزونى الأمر حتى تمكن بصعوبة من عمل السقالات اللازمة لتحريك المسلة إلى الشط، وحركت المسلة كما حدث من قبل مع تمثال ممنون الصغير، وحضر الأغا عند بدء عملية النقل ومعه رسالة من دروفيتى تطلب من الأغا عدم السماح بنقل المسلة إلا لصالح دروفيتى وحده، فتدخل القنصل سولت وطلب من الأغا إبلاغ أطيب أمانية إلى دروفيتى، وإخطاره أن الإنجليز قد أخذوها وقضى الأمر.

ومهد طريق يصل بين المسلة والشط، وذهب بلزونى يفحص الشط محاولاً إيجاد مجرى صالح للمركب، وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان، فأثناء دفع المسلة على الطريق الصناعى غاصت الأحجار الدعامية فى الوحل فانزلقت القطعة الأثرية الثمينة ببطء حتى استقرت فى النهر، وأصاب الذعر بلزونى عندما وجد المسلة وسط دوامة من المياه لا يبدو منها سوى طرفها.

هنا تركت مجموعة السياح بلزونى غارقًا فى مشاكله واتجهت إلى النوبة، وبعد أن استرجع بلزونى رباطة جأشة قام بمعاينة المسلة فوجد أن أمر انتشالها ليس مستعصيًا ولكنه يحتاج لثلاثة أيام، وقد أخرجه من ورطته هذه عمال فيلة الذين عاونوه وآزروه، فكانوا حقًا على مستوى الموقف.

بدأت عملية الإنقاذ بتسوية أرض الشط بمزيد من الحجارة الدعامية، بعد ذلك دفع بلزونى بدعامات أخرى حركها تحت الماء وأحكم وضعها خلف المسلة تمامًا، بعد ذلك أعدت روافع قوية تم وضعها بإحكام تحت المسلة، بعد ذلك بدأت عملية الرفع بحرص شديد حتى أمكن إرساء المسلة على الأرض الجافة، ثم عمل طريق صناعى بالحجارة أمامها ليسهل دحرجتها إلى الشط، وفى ظرف يومين كانت المسلة على الشط منتصبة فوق الأرض.

كل ذلك تم رغم أنف وكيل دروفيتى واحتجاجاته، ومحاولاته لتهييج الأهالى وحض الأغا على إيقاف نقل المسلة، ولكن الجميع - الأغا والأهالى - لم يكونوا متحمسين للوقوف فى وجه بلزونى، فالموضوع عندهم سيان - مجرد سوء تفاهم بين الإنجليز والفرنسيين؛ لذلك استمرت العملية دون عوائق تذكر، ونقلت المسلة على كوبرى من جذوع النخل إلى ظهر المركب كما حدث مع تمثال ممنون الصغير.

فى اليوم التالى، دفعت السفينة بالحبال من الشط إلى أعماق نقطة فى الشلال، وأصبح نجاح العملية يتوقف على طاقم بحارة المركب ومهارتهم، وقام البحارة بربط حبل متين فى جذع شجرة مواجه للتيار ومرروا طرفه السائب إلى قلب السفينة حيث وقف خمسة ليتمكنوا من التحكم فى انطلاق المركب، ووقف عدد آخر من الرجال على الصخور من الجانبين ومعهم الحبال التى ربط طرفها الآخر فى المركب - لمنع انزلاق المركب عند تحريكها، رغم ذلك كان ريس المركب قلقًا متوجسًا، لدرجة أن أعصابه انهارت ورجا بلزونى باكيا أن يوقف العملية، ولما لم تجد توسلاته انكفأ على الأرض باكيًا وغطى وجهه فى الرمل ليتجنب مشهد تحطيم أعز ما يملكه - أى المركب.

بعد إتمام الإجراءات ووقوف كل فرد من الطاقم فى مكانه واطمئنان بلزونى على سلامة الإجراءآت، أعطى الإشارة برفع الحبال والبدء فى تسيير المركب:

«كان مشهدًا لم أر له مثيلا، بدأت المركب تسير بسرعة ١٢ عقدة فى الساعة تقريبًا، وأخذ العمال على الشط يرخون الحبال، وبعد مائة ياردة تقريبًا دخلت المركب فى دوامة ترتطم بإحدى الصخور فترتد لتعرقل تحرك المركب، وقام اصحاب الحبال على جانبى الشط بجذب المركب بعيدًا عن الدوامة والصخرة، فاستقرت فى سيرها، وأخذت سرعتها تقل بالتدريج حتى وصلت إلى قاع الشلال، وغمرتنى السعادة وأنا أراها تنجو من الخطر»

فرح البحارة ـ أيضا ـ بسلامة المركب: «وجاءنى الريس والبشر يطفح من وجهه وهذا هو ما توقعته على أى حال».

مرت السفينة بعد ذلك بعائقين وربما ثلاثة أمكن تفاديهم، ثم واصلت سيرها حتى وصلت الشحنة إلى أسوان فى اليوم نفسه سالمة، بذلك انتهت إحدى مغامرات بلزونى الناجحة، وحرص بلزونى فى أسوان على مكافأة الأغا والأهالى وإرضائهم، بعد ذلك أراد التوجه إلى طيبة لكن الرياح عطلت المركب، فانطلق وحده بالطريق البرى إلى معسكره هناك، وإذا بسارة فى انتظاره.

كانت رحلة سارة فى فلسطين على درجة من الخطورة تقارن بمغامرات بلزونى نفسه، فقد توجهت فى صحبة جيمس كيرتن وجيوفانى إلى القدس ووصلوا مع عيد الفصح، وبعد ذلك أدت الشعائر فاغتسلت فى نهر الأردن وزارت الناصرة، وكانت ترتدى زى فتى مملوكى، وكانت فى واقع الأمر كأنها وحدها، ولنا أن نتصور سيدة شابة تسافر وحدها، وتتجول فى فلسطين وحدها فى القرن التاسع عشر، لقد كانت فى الحق رحلة خطرة، ولما تأكدت سارة من استحالة حضور بلزونى إليها قررت العودة إلى الأسكندرية، وكانت السفينة التى أقلتها سفينة شحن عفنة الرائحة، وكان فى القمرة التى حجزتها فى السفينة شحنة من البطيخ، أما ظهر السفينة حاشدًا بالعساكر الألبان وراد من معاناتها إصابتها بحمى فى المعدة، وقد عبرت عن ذلك فى أسى: «لم أصادف فى رحلتى بالمحيط

ما صادفته فى هذه الرحلة من المعاناة «وقد استغرقت رحلة هذه ثلاثة عشر يومًا . من يافا إلى الإسكندرية.

سافرت سارة من الإسكندرية إلى طيبة على ظهر مركب وكان برفقتها مملوك شاب، ولم تكن الرحلة أقل مشقة من سابقتها. وحدث أن نزل مطر شديد على المركب فأغرق فراشها وأمتعتها، والجدير بالذكر أن هذه العاصفة نفسها دفعت الطين إلى داخل مقبرة سيتى، كذلك أدت الرطوبة إلى تصدع بعض الجدران؛ لذلك عندما وصلت سارة وعاينت الوضع أمرت بتنظيف المكان ومكثت تنتظر أوبة زوجها، وعاد بلزونى يوم ٢٣ من ديسمبر ليفاجأ بهذه المناسبة السعيدة. عودة زوجته، وأمضيا معا عيد ميلاد هادئ سعيد «فى هذه الطرقات، بعيدًا عن الناس وصخبهم «كان لقاء سعيدًا، وأجازة عيد ميلاد هنيئة.

فى اليوم التالى لعيد الميلاد توجه بلزونى ومترجمه اليونانى على حمارين يصحبهما تابعان إلى الكرنك حيث وجدوا المسلة قد وصلت بسلام فى ليلة عيد الميلاد، وجد أن ريس المركب يبدو أنه قادها بطريقة استفزازية أمام بصر دورفيتى وأعوانه . وكانوا موجودين بالكرنك، ويبدو كما قال بلزونى «أن ذلك أثارهم» فاشتعل شجار عنيف يعتقد بلزونى أن الفرنسيين دبروا له.

وفى طريقه إلى الكرنك التقى بلزونى بأحد الأعراب، وحذره العربى من الاقتراب من الأوروبيين هناك، لكن بلزونى تجاهل التحذير واستمر فى طريقه حتى وصل إلى موقع من مواقع امتيازات سولت به عدد من العمال، مرة أخرى حذره المترجم من التقدم، لكنه ضرب بالتحذير عرض الحائط فقد كان يعرف هدفهم من هذا التهويش، وعبر بلزونى الكرنك وكان دورفيتى وأعوانه مقيمين فيه فتجاهلهم وراح يفتش على بعض امتيازات سولت هناك، بعد ذلك عاد إلى الأقصر وأثناء مروره برواق معبد الكرنك الكبير شاهد أحد الأعراب يأتيه مهرولاً يشكو إليه أنه تعرض لضرب لأنه يعمل لدى الإنجليز، ووجد بلزونى أن الأمر يطول لو اهتم به فتجاهل هذه الشكوى أيضًا.

وبعد فترة قصيرة فوجئ بلزونى بكل من أنطونيو ليبولو وجيسبى روزينانو ومعهما ثلاثون رجلا مسرعين نحوه، وفى لحظة طوقوه هو ورفاقه ثم سأله ليبول عن أسباب نقله لمسلة يملكها دروفيتى، وحتى إن لم يعترف بذلك فهى ليست ملكه بأى حال، وأثناء الحديث أمسك بلجام حمار بلزونى بإحدى يديه وباليد الأخرى أمسك بصدريته، وفى الوقت نفسه قام الأعراب المرافقين له بتجريد مرافقى بلزونى من السلاح وأوزعوهم ضربًا، وصوب رودينانو غدارة ذات ماسورتين نحو صدر بلزونى فى غضب قائلا له إن الوقت قد حان ليدفع ثمن أفعاله، وقع بلزونى فى حيرة عبر عنها بالآتى:» لم أكن فى موقف أحسد عليه... وفكرت أننى لو طاوعتهم ونزلت لطرحونى أرضًا - هؤلاء الجبناء - ثم يدعون أننى الذى بدأت بالعدوان وأنهم ما فعلوا إلا دفاعًا عن النفس «وظل بلزونى ثابتًا فوق حماره مبديًا احتقاره، فلم يزدهم ذلك إلاثورة فوق ثورتهم.

ثم أتى فيتى فى جمع آخر ليؤازروا أعوانهم، وسأل القنصل بلزونى عن السبب فى منعه عماله من الحفر، وأمره بالنزول من فوق ظهر الدابة، ورد بلزونى على ذلك بأنه يجهل ما يقول، ثم احتج على هذه المعاملة المهينة، ويقول بلزونى إنه «فى هذه اللحظة انطلق من خلفى طلق نارى، لم أدر من أطلقه، ورأيت من الحكمة أن أتجمل بالصبر، حتى لا تقوم معركة تستخدم فيها الأيدى من هؤلاء الناس الذين لم يربأوا بأنفسهم عن مهاجمتى على هذا النحو وهم فى عدد وعدة، لكن طلقة الغدارة خلفى جعلتنى أفكر بأن العمر ليس رخيصًا إلى هذا الحد «والنتيجة أن بلزونى حمل نفسه على النزول من فوق ظهر حماره مبديًا استياءه وغضبه.

عند هذا الحد أفاق دروفيتى لنفسه وأدرك أنه يتمادى أكثر من اللازم فأخذ فى تهدئة الأمور، وفى هذه الأثناء ظهر جمع من العريان أتوا لنجدة بلزونى فأحاطوا برودينانو مهددين، وانتهت العملية، ولكن بلزونى قدم احتجاجًا يشوبه المرارة لدروفتى فقال له «إننى قاومت شتى أنواع التهجم من قبل أعوانك قبل ذلك لكنى لم أتوقع أن ينزلقوا إلى هذا الدرك؛ لذلك سأترك لكم القطركله

وأسافر «ورجع بلزونى إلى وادى الملوك خائفا يترقب، وزاد من همه أن وجد سارة قد اصابتها حمى صفراء حادة».

استغرق تغليف الصورالشمعية شهرآ، أما التابوت المرمرى الهش فقد دحرج منْ مكانه باحتياط مسافة ثلاث أميال فوق الأسطوانات حتى وصل إلى المركب، وأصلح بلزونى بعض تلفيات المقبرة التى أحدثها الفيضان، وفى ٢٧ من يناير سنة ١٨١٩ ودع بلزونى طيبة الوداع الأخير، «أعرف أننى لم آسف قط على مكان أصبح مألوفا جدا لدى».

نقل بلزونى الشحنة الثمينة إلى الأسكندرية على أمل مبارحة مصر إلى أوروبا على الفور، ولكن شاءت الظروف أن يتعطل سفره، فقدوصلت رسالة من سولت فحواها أن القنصل اتخذ الإجراءات القانونية لمحاسبة الذين اعتدوا على بلزونى، وفعلاً كان السيد لى ممثل قنصل إنجلترا قد اتصل بالسلطات المصرية والقنصلية الفرنسية، وكان دروفيتى قد سبق بلزونى إلى الإسكندرية فدافع عن معاونيه، وتقرر تأجيل الفصل فى الموضوع لحين عودة سولت من الصعيد، ولم يكن بلزونى على أية حال يرغب فى تصعيد الموضوع حتى يصل إلى ساحة القضاء لأن دورفيتى كان له ثقل سياسى فى الدوائر المصرية، كذلك كان الشاهد الوحيد على الاعتداء رجل إيطالى ساعد بلزونى أثناء المشاجرة، لكنه رجع محملاً بهدايا من أعوان دروفيتى على أمل أن تدر عليه ربحآ فى أوروبا، فأصبح بلزونى يشك فى حيدته، لم يكن لبلزونى أى خيار سوى الانتظار،ولذلك أسكن سارة فى بيت وفره له تاجر إنجليزى مقيم فى الإسكندرية، أما هو فأخذ يفكر فى ميدان يوجه إليه نشاطه ليمتص طاقته التى لاتهدأ، هل ينقب فى الوجه البحرى عن الآثار؟» إنه قريب جدًا من أنوف منافسينا «لابد من الرحلة بعيدًا، وكان القرار القيام بمغامرة فريدة فى الصحراء الغربية للبحث عن معبد جوبيتر آمون.

معبد جوبيتر آمون موجود فى واحة سيوة النائية فى الصحراء الغربية. واكتسب المعبد سمعة سيئة عندما روى بلوتارخ أن كهنته خاطبوا الإسكندر بوصفه «ابن زيوس»، فزاد من كبريائه وطمعه فى غزو العالم، واستولت عليه

الرغبة فى تأليه نفسه، مما يذكر أن قمبيز ملك الفرس فقد جيشاً فى هذه الصحراء وهو يطارد الآمونيين، ويقول هيرودوت إن عدة هذا الجيش كانت خمسين ألف مقاتل أعدهم لعبور الصحراء، لكن لم يعد منهم أحد: «الفرس... وصلوا إلى منتصف المسافة... وبينما هم يتناولون الطعام فى الظهيرة، هبت ريح من جهة الجنوب... كانت هذه الريح قوية مميتة، تحمل دوامة رملية غزيرة عاتية... ردمت الريح كل فيالق الجيش ولم يتبق منهم أحد... اختفى الجيش تحت الرمال وكان يتعقب الآمونيين «لعل هذا الذى حث بلزونى على القيام بمغامرته - البحث عن جوبيتر آمون الردئ السمعة».

سبق بلزونى فى ارتياد منطقة الرحالة الإنجليزى جورج براون سنة ١٩٧٢، فقد كان فى رحلته يعبر واحة سيوة فلاحظ وجود أطلال على مساحة واسعة هناك، ولكنه لم يستطع الربط بينها وبين معبد جوبيتر آمون (أى أن براون شاهد أطلال المعبد ولكنه لم يتعرف عليه)، وأثارت مشاهداته الحيرة والجدل، حتى بلزونى نفسه التبس عليه الأمر فظن أن معبد جوبيتر آمون موجود بالفيوم؛ لذلك لم يقترب من واحة سيوة أو معبد جوبيتر آمون نفسه وظل بعيداً عنه أكثر من مائة ميل، لكن المغامرة فى حدا ذاتها كانت ممتعة.

تختلف هذه الرحلة - التى كانت آخر رحلة له بمصر - عن كل ما سبقها بأنها كانت شخصية بحتة أثر فيها الانعزال عن الناس، كذلك كان هدفه منها كشفياً صرفاً وهو إزالة ما يكتنف معبد جوبيتر آمون من الغموض والظنون، ولم يحاول أثناءها أن يبحث عن أى آثار أخرى ليضيفها إلى مجموعته، والحقيقة أن حادث الاعتداء عليه جعله ينظر للأمور نظرة أخرى، ألا يكفى ما عمله من اكتشافات فى الهرم ووادى الملوك ورحلة برنيس؟ لقد أصبح معروفاً فى أوساط الأثريين، فلماذا لا يشتهر ذكره باعتباره من الرحالة المغامرين أيضاً؟ لذلك قام بهذه المغامرة علها تعلى قدره، وأصبح العنصر الكشفى عن المعابد القديمة أهم ما لديه من جمع الآثار.

بدأ بلزونى رحلته فى قافلة صغيرة تتكون من: بلزونى - خادم صقلى - مرافق مراكشى عائد لتوه من الحج (أفادهم كثيراً كما يقول بلزونى)، وكانت

رحلتهم النيلية على ظهر مركب أقلتهم من بنى سويف إلى الفيوم فى ٢٩ من إبريل سنة ١٨١٩، وفى الفيوم استأجروا عدداً من الحمير للتجول داخل الفيوم نفسها، وأوصلتهم الرحلة إلى المنخفض الضخم (منخفض الفيوم) خلال «سهل خصب واسع على طريق قناة قديمة تنقل الماء للفيوم» وفى الليل خيموا بجوار هرم سنوسرت الثانى من الطوب اللبن (٢٠٠ ق.م)، وأحكموا على المخيم الحراسة، واستخدم بلزونى فى النوم مرتبته الخصوصية «وهى من الرقة بحيث إذا فردت تصلح كسرج، وإذا طويت على الأرض فهى سرير جوالة مريح».

فى صباح اليوم التالى ارتقى بلزونى الهرم وتطلع حوله من علو بحثاً عن أرسنوس القديمة وقصر التيه (اللابيرانت) العتيد، وقد وصف هيرودوت اللابيرانت، وكان مما قاله عنه إنه معجزة أشد إعجازا من الأهرام. ولم يعثر بلزونى على اللابيرانت رغم إنه وجد ما يدل على وجود مدينة قديمة بجوار الهوارة، وظل الأمر مبهما سبعين سنة حتى جاء بيترى وحدد مكان اللابيرانت، لكن القصر كان قد أصبح أثراً بعد عين، لم يتبق منه سوى حطام من الحجر الجيرى.

واصلت قافلة بلزونى السير حتى أتوا إلى أرض معروفة بمائها الوردى، هنا حصل بلزونى على تصريح واستأجر بعض الأدلاء، وقد آثر بلزونى الحصول على التصريح هنا بدلاً من القاهرة ليكون بعيداً عن أعين من يترصدوه، تجاوز بلزونى فى سيره أطلال أرسنوس وفى نيته أن يزورها فى عودته، ثم اتجه شمالاً نحو بحيرة قارون، وهذه بحيرة عكرة مستواها تحت البحر بمائة وعشرين قدماً، ولم يجدوا عند وصولهم زورقاً ينقلهم إلى جانب البحيرة الغربى، وما لبث أن أتى زورق ذعر بلزونى لمرآه: «لم يكن له شكل مطلقا، هيكله من الخشب الخام، ولم يثبت بمسامير، اللهم إلا فى قطع خشبية عرضية تضم الهيكل وتمسكه والقطع الأربع المتصالبة معها هى ظهر الزورق، ولم تكن مدهونة بالقطران أو أى دهان آخر يقى الزورق، وكانت التقوية الوحيدة هى بعض الحشائش الرطبة حشرت حشراً فى مفصلات الزورق».

كان بلزونى يظن أنه سيعثر على اللابرانت عند البحيرة (يخلط المؤلف بين أرسنوس واللابرانت بصورة مربكة أحياناً!)، وكانت رحلتهم رحلة ممتعة أشبه بالخيال، لقد خيموا عند شاطئ مهجور وتعشوا سمكاً طازجاً، يقول بلزونى «المنظر هنا جميل... ويرسل القمر أشعته على سطح البحيرة الراكدة فى سكون الليل، ونحن فى مكان منعزل نرى فيه زورقنا والصيادين... ذكرنى ذلك ببحيرة أشرون والقارب باريس والمراكبى العجوز فى ستيكس، كانت ليلة قال عنها بلزونى إنها من أسعد لياليه.

فى الركن الجنوبى الشرقى للبحيرة نزلوا وعاينوا كتلة من الأطلال ومعبد يعرف - حالياً - باسم قصر قارون، ولم يجدوا ما يستحق الذكر، لكن بلزونى أصابه الذعر عندما فوجئ بضبع يطلع عليه من أحد المعابد ويندفع نحوه، ولم يكن بلزونى مسلحاً لكن لحسن الحظ هرب الضبع، المهم أنه لم يظهر أى أثر لقصر اللابيرانت بعد يومين من الحفر والتنقيب عند شطئان بركة قارون الشمالية، وكان مع بلزونى خرائط وبيانات غير دقيقة عن البحيرة، وعلى هدى هذه البيانات رأى بلزونى أن الجبال التى تلى البحيرة قد يكون فيها ما يفيده، وبعد ميلين صادفوا أطلال مدينة أخرى تتكون من «بيوت كثيرة، وجدار عالٍ من الطوب الأحمر يحيط بأطلال معبد» ووجد بلزونى مع الصيادين بعض الجوارف استخدمها فى استكشاف بيتين أو ثلاثة، ووجد بالبيوت نفايات كثيرة تحت الأسقف المتداعية، وكانت هناك مدفأة بأحد البيوت، لكن هذه - أيضا - لم تكن اللابيرانت، والآن نحن نعرف أن ما عثر عليه بلزونى هنا أطلال مدينة بطلمية اسمها نسوس سوكونبايو Nesos / Sokonopaiou.

لما أعياهم البحث عن اللابيرانت عبروا إلى الضفة الشرقية من البحيرة، وأربكت بلزونى شحة العلامات التى يميز بها اللابيرانت، فالمكان تتناثر فيه كسر الأساطين والحجارة من المبانى القديمة التى أعاد العريان استعمالها فى بناء بيوتهم، واستخلص بلزونى مما شاهده أنه «بتتبع مصدر هذا الحطام سنعثر على مكان اللابيرانت، الذى سنجده ولاشك فائق الروعة - رغم ما أصابه من التلف

والتخريب «وكان الشئ الوحيد الإيجابى بعد هذا الفشل أن بلزونى استمتع بوجبة من لحم البجع وصفها بأنها «كانت عموما لذيذة المذاق طيبة الطعم».

بعد ذلك عاد بلزونى مرة أخرى إلى الفيوم والمياه الوردية، وأثناء عودته مر ببلدة فدمين الحناسيس فروى له أهلها أسطورة الكنائس الثلاثمائة التى كانت بالبلدة، ويشيع أهلها أن الكنائس مدفونة تحت أرض البلدة، ولكن بلزونى بحث الأمر فلم يجد شيئا، فقال «تمر قناة بوسط البلد.. وقد نقبت فيها فلم تظهر لى كنائس.. وكان يجب أن تظهر لو أن زعم ردم ٣٠٠ كنيسة هناك صحيح».

وصل بلزونى إلى مدينة الفيوم فى اليوم التالى وزار أرسنوى المجاورة. وأعجبه فيها «تماثيل جيدة حالتها حسنة» وقام بلزونى بالتنقيب فى حشو خزان أثرى وسط المدينة (يبدو أنه لم يعثر فيه على شئ!)، لكنه كان يبغى زيارة الواحة الواقعة غرب بحيرة موريس، وكان من الصعب وجود أدلاء يقودونه إلى حيث يريد لأن المنطقة تكاد تكون مجهولة إلا للبدو هناك، ولحسن حظه وجد صديقه خليل بك إذ كان قد نقل حديثاً من إسنا إلى بنى سويف فأعطاه التصريح اللازم ورشح له دليلاً اسمه الشيخ جرجار وصفه بلزونى بأنه «رجل طويل عريض، طوله حوالى ستة أقدام وثلاث بوصات، قسماته تتسم بالحزم، ويدل مظهره على الجشع والطمع فى تحقيق الربح».

بدأت الرحلة من خيمة الدليل جرجار فى ١٩ من مايو، وكانت القافلة مكونة من ست جمال، وكان بلزونى قد قضى فى خيمة الدليل ستة أيام كانت من أسوأ ما يكون لأنه لم يستطع أن يذوق طعم النوم من وخز البراغيث، اتجهت القافلة نحو الجنوب، فمروا عبر الصحراء ثم عبر منطقة بها كثبان من القبور توحى بأن المنطقة كانت عامرة فيما مضى، ونسب بلزونى المنطقة إلى جيش قمبيز (مجرد حدس)، وبعد ستة أيام وصلوا إلى وادى البحرية (أى الواحة) فأمكنهم الارتواء وإرواء الإبل والاتصال بالأهالى، وطلع على بلزونى قزم حاملاً بندقية يهدده بها لكن الشيخ جرجار تدارك الأمر حيث كان يعرف لغتهم، وقدم لهم بلزونى التبغ

والبن، وهما سلعتان نادرتان فى الصحراء، ففتحت له الأبواب، حيث وافق شيخ البلد على أن يرافق بلزونى فى زيارة يطلع فيها على الأطلال القريبة من البلدتين الموجودتين بالمنطقة.

كانت الأطلال حول الواحة كئيبة المنظر، بها مقابر جماعية وتوابيت فخارية أغطيتها محلاة برؤوس بارزة، وكسر بلزونى بعض هذه التوابيت واستولى على الرؤوس التى صادفته لنفسه، وفى القرية الثانية كان أبو القاضى تاجر تمور ثرياً، وكان الأهالى يعتقدون أنه يخبئ ثروته فى الأطلال المجاورة ولم يستطع بلزونى التوغل داخل المعبد لأكثر من خمسين ياردة، لكن بلزونى كان يحمل تليسكوبا لفحص نقوش الجدران، وكانت قرب القرية عين ماء اغتسل فيها بلزونى أكثر من مرة، وكانت عين الماء تارة دافئة وتارة باردة، وعلل بلزونى ذلك بتغير حرارة الجو واعتقد بلزونى أن هذه نافورة جوبيتر آمون - معلوم أمرها من كتاب كلاسيكيين؛ لذلك فقد أضلت بلزونى ظنونه فاعتقد أن الذي عثر عليه هو نفسه معبد جوبيتر آمون علماً بأن المعبد فى واحة سيوة جنوباً.

كان بلزونى يريد فعلاً التوجه إلى سيوة التى اكتشف فيها براونى من قبل أطلال المعبد الذى ثبت فيما بعد أنه معبد جوبيتر آمون العتيد بحق، لكن الشيخ جرجار رفض رفضاً باتاً أن يكون دليله إلى واحة سيوة، وعرف بلزونى فيما بعد أن الشيخ له شهرة فى سيوة بشن الغارات الشديدة البأس، فلو كان وحده لربما أكرموه وداروه، والنتيجة أن بلزونى تحول إلى واحة الفرافرة، وهى على بعد ثلاثة أيام جنوب كوخ الشيخ جرجار، لم يجد بلزونى فى الواحة ما يستحق المشاهدة سوى كنيسة محطمة، ووجد الأهالى ماكرين فتوجس خيفة من غدرهم؛ لذلك تسلل من الواحة ليلا حتى لا يحس به الأهالى، خوفا من هجومهم عليه.

عند هذا الحد قرر بلزونى إنهاء الرحلة والعودة إلى الوادي، فلما وصل بلزونى إلى الواحات البحرية استدعاه القاضى وأخبره أن أباه وشيخ الواحات قررا إدخال بلزونى فى الدين الإسلامى وحجزه فى الواحات، ووعدوه بإعطائه

أرضا يزرعها ويزوجوه أربعة من بناتهم، وبذلك يجعلونى سعيدا غير محتاج للجرى وراء الأحجار، «وخرج بلزونى من المأزق بأن أبدى بهجته بالعرض ووعدهم بالعودة بعد تسوية شئونه بالقاهرة.

بذلك استأنف بلزونى رحلة الإياب، وكانت فى مجملها عادية لولا حادثة الجمل التى وقعت لبلزونى، وتتلخص الحادثة فى أن الجمل الذى يركبه بلزونى ارتطم بصخرة فتدحرج على منحدر عميق لمسافة عشرين قدماً، رمت ببلزونى على الأرض بشدة فأصيب بكسور عدة - وربما تكون بعض ضلوعه قد تكسرت، وتحامل بلزونى على نفسه حتى وصل إلى دار شيخ قبيلة اسمها قبيلة «زوبة»، فأعد له الشيخ فراشا فى ممر مجاور لداره، لم يكف الأهالى عن ارتياده طول الوقت، ووصف بلزونى الوضع كما يلى: «كان - الممر - يعج بالأبقار والجاموس والحمير والخراف والماعز والكلاب، وكان المارة يصيبون رأسى من غير قصد، وعند مرور الحيوانات كان ينتابنى الخوف لوجودى هكذا بهذا المكان». وأثناء تمريضه مرت فى الممر جنازة أقلقته كثيرا وحرمت عينه من النوم، حتى زوجة المتوفى أزعجته وطلبت منه «ورقتان سحريتان» مما يحمله منها، حتى تستطيع أن تجد زوجاً غيره، وتقية من الموت، وحاول بلزونى إقناعها أنه ليس ساحراً ولا دجالا «وطرأت على ذهنى فكرة أننى لو كنت دجالاً يمكنه تدبير الأزواج للزوجات، لكانت لى فى أوروبا حرفة مريحة فأريح نفسى من السفر إلى بلاد غريبة سعياً وراء الرزق» الخلاصة أن الضيافة كانت غير مريحة بالمرة.

بعد ثلاثة أيام تمكن بلزونى من التحامل على نفسه واستئناف السفر (يلاحظ أن بلزونى يهول من الإصابة، فواضح أنها مجرد خدوش ورضوض خفيفة، وإلا لما أمكنه مجرد السير بعد أيام ثلاثة من الإصابة) وكانت الرحلة متعبة ويبدو أنه أصابهم العطش واضطروا لشرب ماء به شئ من الملوحة، فازدادوا عطشاً على عطش، حتى أن الأملاح ظهرت على شفتى بلزونى قرب نهاية الرحلة، وبعد عناء وصلت القافلة إلى النيل يوم ١٤ من مايو بسلام، وفى اليوم التالى اتخذ بلزونى طريقه إلى القاهرة فى زورق نيلى.

كان سولت فى ذلك الوقت قد عاد من رحلته بالصعيد، والتقى ببلزونى ليلاً، وسويا أمورهما فيما عدا موضوع الكرنك الذى ظل عالقاً، وعموماً افترق الرجلان على وفاق، أما فى الإسكندرية فكان موضوع النزاع القضائى ما زال قائماً ومعقداً وكان دورفيتى قد مارس نفوذه على القنصل الفرنسى بها وهو السيد فوسيل الذى حل محله منذ سنين، لكن هذا القنصل استدعى إلى فرنسا فحل محله نائب القنصل، وكان على بلزونى دفع ١٢٠٠ دولاراً مقدماً لتغطية مصاريف سفر المحامى إلى طيبة وعندما علم ليبولو وروزينيانو بذلك وهما فى الإسكندرية أظهرا الغبطة والشماتة، وفى النهاية أغلق ملف القضية، فقد حكم نائب القنصل بأن المتهمين فيها من بيدمونتس، فهما ليسا فرنسيين، إذاً فمحكمة تورين هى المختصة بالقضية.

كان بلزونى مازال متأثراً من الإصابة فى حادثة زوبة، وكان على يقين بأن تصرفات دروفيتى معه كان مبعثها الغيرة مع اللؤم، فلما سوى كل أموره كان الضيق قد بلغ به كل مبلغ فآثر النجاة بنفسه؛ لذلك أبحر إلى أوروبا هو وسارة غير آسف على ترك هذا البلد بالمرة، «بل إن هناك ما يدعونى لأن أقر بأفضاله... ولكن لأن بعض الأوروبيين الذين أقاموا فيه كان سلوكهم ونمط تفكيرهم —- للأسف – وصمة فى جبين الجنس البشرى».

١٥ـ عجائب وغرائب أخرى

غادر جيوفانى بلزونى الديار المصرية فى وقت وصل فيه اهتمام أوروبا بالآثار المصرية إلى الذروة، فقد كانت موسوعة «وصف مصر» فى الطريق إلى الظهور، وكان المثقفون والأثريون والموسرون الأوروبيون فى انتظار صدورها على أحر من الجمر، وفى مصر كان محمد على باشا يعامل الأوروبيين معاملة تتسم بالود، لذلك زاد نفوذ قنصلى بريطانيا وفرنسا عند الباشا، وكانت النتيجة أن أصبحت رحلات السياح أكثر سهولة فازداد عددها، خصوصاً بين الأثرياء، ونشطت السياحة فى وادى النيل بعد أن كانت وقفاً على عدد محدود من الدبلوماسيين والمغامرين، أما المغامرون فقد بهرهم جميعاً المارد الإيطالى بلزونى، فقد استطاع هذا المغامر الفذ أن يحقق فى ثلاث سنوات عجاف ما أذهل الجميع، ففى تلك المدة البسيطة استطاع أن يكتشف مقبرة سيتى ويستكشف أبى سنبل ويفتح الهرم الثانى – هرم خفرع – وينقل رأس أحد تمثالى ممنون (ممنون الصغير فى النص) وكذلك مسلة فيلة، كما أمكنه أن يستحوذ على كمية لا بأس بها من الآثار الخفيفة بعضها لحساب القنصل البريطانى – سولت – وبعضها لنفسه.

توقف بلزونى فى روما أولا، لكنه لم يمكث بها طويلا ثم سافر إلى لندن. كان وصوله إلى لندن فى آخر مارس سنة ١٨٢٠، وعند وصوله أعلنت النبأ جريدة لندن تايمز: «عاد الرحالة الشهير السيد بلزونى إلى أوروبا بعد غياب استمر

عشر سنوات أمضى منها خمسة فى الكشوف الأثرية بمصر والنوبة» ثم نوهت بأن «بلزونى بصدد إقامة معرض للقبر الجميل الذى اكتشفه، وذلك حالما تتيسر صالة مناسبة للعرض».

استقبل بلزونى فى لندن بحفاوة، ونوهت الدورية ربع السنوية المشهورة Quarterly Review بمكتشفاته، ووجدها بلزونى فرصة مناسبة لإصدار كتاب يعرض فيه إنجازاته، واستقر الرأى على أن يعهد بالنشر إلى السيد جون موراى أكبر الناشرين الإنجليز فى القرن التاسع عشر، وكان واحداً من المتخصصين فى نشر أدب الرحلات فى ذلك الوقت، كان تمثال ممنون قد وصل إلى المتحف البريطانى واتخذ مكانه للعرض على الجمهور؛ لذلك كان بلزونى يتعجل إصدار الكتاب قبل أن يفتر الحماس، خصوصاً وأن الجمهور أصبح متشوقا لمعرفة شئ عن مصر وآثارها، ولم تكد سنة ١٨٢٠ تنتهى حتى ظهر كتاب بلزونى فى جزئين.

صدر الكتاب تحت عنوان طويل جدا هو: «حكايات عن الأعمال والاستكشافات الجديدة فى الأهرام والمعابد والمقابر، والحفائر فى مصر والنوبه، ورحلة إلى ساحل البحر الأحمر للبحث عن برنيس القديمة، ورحلة أخرى إلى جوبيتر آمون» وقد نجح الكتاب على الفور (أى وجد إقبالا من الجمهور)، ولكن أسلوبه لم يكن مشوقا، كما أنه لم يسلم من الخطأ فى التعبير. وربما أدرك بلزونى ذلك النقص فقال فى الافتتاحية «سوف يريح الجمهور صدق الروايات، بما يعوضه عن النقص فى الأسلوب» كانت بعض حكاياته مثيرة للجدل، وكان فى هجومه على منافسيه عنيفاً - خصوصا القنصل دورفيتى، لكن السرد العام للموضوعات كان لا غبار عليه، ولكن به هفوات قد يتغاضى عنها القارئ المتعاطف معه، المقدر لمجهوده وعمق تجربته، وكان يرافق الكتاب ملف يحتوى على اللوحات والصور - وكانت فى ذلك الوقت باهظة التكاليف، والملف - حالياً - نادر الوجود، وعموماً فقد استقبل النقاد الكتاب بقبول حسن، وقد اطلع الشاعر المعروف اللورد بيرون على الكتاب فقال «إن بلزونى رحالة عظيم، لكن إنجليزيته غير سليمة» أما الدورية ربع السنوية «كوارترلى ريفيو» فقد أسهبت فى مناقشة الكتاب، وكان تعليق المجلة فى ثلاثين صفحة كاملة واستخلصت أن

«بلزونى وإن كان ليس معدوداً من العلماء، إلا أنه من الإنصاف أن نضعه فى مصاف الرواد وأكثرهم مهارة وفائدة فى حقل الكشف الأثرى، فقد فتح الطريق وسهل من مهمة من يرغب فى السفر». وقد ترجم الكتاب فورا إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية، ثم طبع بسرعة طبعة إنجليزية ثانية بأمر الناشر.

افتتح معرض بلزونى فى القاعة المصرية فى بيكاديللى فى أول مايو سنة ١٨٢١، ونجح المعرض بشكل فورى، إذ زاره يوم الافتتاح وحده ١٩٠٠ شخصاً، ومن أجل الدعاية للمعرض دعا بلزونى قبل الافتتاح مباشرة بعض الأطباء - بأسلوب مسرحى - إلى شهود فك اللفائف عن مومياء مصرية لشاب فرعونى «كانت جيدة وأجزاؤها كلها سليمة».

سيطر على مكان العرض نموذجان بالحجم الطبيعى لأجمل غرفتين بمقبرة سيتى: قاعة الأعمدة ، والغرفة التى تحوى التماثيل الخمسة البشرية، وكان بلزونى قد نسخ نماذج متقنة باستخدام الجص الباريسى (المشهور بجودته) مستخدما الصور الشمعية التى استنسخها فى المقبرة، وكانت الألوان دقيقة بفضل دقة ملاحظة ريكى؛ لذلك كان زائر المعرض يشعر كأنه فى قلب مقبرة ملكية فاخرة، وكان بالقاعة ضمن المعروضات - أيضاً - عدة آلهة مصرية أهمها حورس وأنوبيس، مع مشاهد من العالم السفلى المخيف - عالم الأموات، وكان ضمن العرض نموذج لأبى سنبل، وقطاع متقن لهرم خفرع، وتماثيل لسخمت ذات رأس الأسد، وأخيراً مومياوات وبرديات أطلقت عليها التايمز «مجموعة التحف المتنوعة المكملة».

وضع المعرض بلزونى على رأس الجوالين فى عصره، وكان السبب الرئيسى فى ذلك أنه عرض مكتشفاته فى أوروبا بعيداً عن موطنها الأصلى بآلاف الأميال، وكان نجاح المعرض الساحق سبباً فى جعل بلزونى يفكر فى نقله للعرض فى باريس ثم فى سان بطرسبرج فى روسيا، واستمر معرض لندن حتى سنة ١٨٢٢، وبعد ذلك عرضت محتوياته للبيع بالكامل فى المزاد ليشتريها من يشاء من هواة الآثار، وكان الإقبال على المزاد كبيراً، ويذكر أن أحد المزايدين دفع ٤٩٠ جنيها ثمناً للصور المنسوخة ونماذج أخرى.

وحدثت مشادات بين بلزونى والمتحف البريطانى بخصوص التابوت الحجرى المرمرى العتيد، وكان حتى ذلك الوقت لم يصل بعد إلى لندن، ووما زاد الموضوع تعقيداً مواقف هنرى سولت، فقد عرض القنصل مقتنياته الأثرية الثمينة أثناء سنتى ١٨٢٠، ١٨٢١ على المتحف البريطانى، وكان يطمع فى بيعها له، وقد شجعه على ذلك السير وليام هاملتون والسير جوزيف بانكس - وكان أحد أمناء المتحف فى ذلك الوقت، ولكن سولت لم يجد تجاوبا من المتحف، واشتعل غضب الأمناء من السعر الذى حدده سولت وهو ثمانية آلاف جنيه، ومن الواضح حتى للشخص العادى أن سولت كان يبغى تحقيق ربح مجزٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كان أمناء المتحف قد فرغوا لتوهم من تسديد ٣٥ ألفاً ثمن صفقة اشتروا فيها مرمريات الجن التى جمعها من البارثينون، وكانت صفقة مدوية أغضبت بعض الدوائر، وهذا سبب إحجامهم عن صرف الأموال فى شراء آثار أجنبية، لما وصل التابوت أخيرا إلى لندن على ظهر الباخرة ديانا عاد الموضوع للظهور بقوة، فتحرك بلزونى دفاعاً عن حقوقه، فأوضح أن من حقه حسب اتفاقه مع سولت أن يحصل على نصف زيادة فى سعر التابوت عن ثمنه الأساسى وهو ألفى جنيه استرلينى، لكن مجلس الأمناء قام بتعويم الموقف فلم يبت فى الموضوع عدة شهور، اشتعل الغضب فى نفس بلزونى وسولت وكان غضب سولت أشد لأنه كان فى أمس الحاجة للمال لاستئناف جمع الآثار، فقد كان شغل سولت الشاغل الاستفادة من نشاطه الأثرى فى تغطية مصاريفه مع تحقيق فائض يمكنه من التقاعد فى الوقت المناسب: «وإلا» كما كتب لوليام هاملتون، «سوف يديننى الناس بالتمسك بالوظيفة إلى الأبد، وهذا وضع بالطبع لا يرضيكم».

أمضى سولت باقى المدة التى أمضاها فى السلك السياسى فى جمع الآثار وبيعها بثمن مربح، مهملاً لواجبات وظيفته القنصلية، فى النهاية اضطر لبيع مجموعته الأثرية الأولى للمتحف البريطانى نظير ألفى جنيه استرلينى، أما التابوت فقد رفض الأمناء شراءه بكل إصرار متحججيين ببعض الصعوبات القانونية ثم ارتفاع السعر المطلوب، ولم تجد اعتراضات بلزونى وسولت فى صدد السعر، وتأكيدهما للأمناء أنه قد عرض عليهما سعر أكبر من القنصل الفرنسى

دررفيتى وغيره، وأخيراً انتهى أمر التابوت إلى أن اشتراه المهندس المعمارى المشهور بلندن جون سونى، ودفع فيه ألفى جنيه استرلينى، واستولى سولت على المبلغ كله لنفسه ولم يعط بلزونى منه شيئاً (منتهى الالتزام بالتعاقد!).

عرض المهندس هذا التابوت فى قاعة أعدها له بمنزله، فتحها للعرض على الجمهور ثلاثة أيام متوالية، وزار القاعة «علية القوم وأصحاب المواهب بإنجلترا»، وكان التابوت يتلألأ فى ضوء الشموع الخافتة التى وضعت بداخله ، وحضرت سارة هذا المعرض واستقبلت «بكل ترحيب من الضيوف» لكنها كانت وحدها؛ لأنها كانت قد ترملت، فقد توفى بلزونى قبل مدة قليلة وهو يستهل آخر رحلاته وأكثرها طموحاً وقلبه ملىء بالمرارة.

أدى القلق الذى انتاب جيوفانى بلزونى إلى نقله حاسمة فى تطلعاته ومصيره، وكان تبرمه بالمتحف البريطانى وضيقه بحياة المدينة وحتى بالشهرة قد وصل إلى الحد الذى جعله يسعى للتغيير، وفى وقت ما خلال سنة ١٨٢١ سافر إلى غرب إفريقيا ليستكشف منابع نهر النيجر، كانت مشكلة نهر النيجر فى ذلك الوقت مازالت ساخنة ومبعثا لإثارة الجدل بين مستكشفى القارة الإفريقية؛ لذلك لم تكن بالنسبة لبلزونى مجرد رحلة عابرة لتزجية وقت الفراغ، فكثير من المستكشفين هناك سرقوا أو لقوا مصرعهم أثناء الاستكشاف؛ لذلك قررت الحكومة حظر الرحلات الفردية فكان على أى مستكشف وحيد أن يلتحق بإحدى القوافل عابرة الصحارى.

خطط بلزونى لعبور الصحراء من مراكش، لكن النزاعات السياسية حرمته من الحصول على التصريح اللازم فى آخر لحظة؛ لذلك حول وجهة سفره إلى غرب إفريقيا، وواتته الفرصة فى ركوب السفينة الحربية سنجر إلى ساحل الذهب، فوصل إليه فى ١٥ من أكتوبر سنة ١٨٢٢، وبعد شهر كان قد وصل إلى مصب نهر بنين، ومن هناك اصطحب تاجراً يسمى هوستن فى رحلة إلى بنين نفسها، فلما وصلاها استقبلا بكل ترحيب، لكن بلزونى ما لبث أن فاجأته دوسنتريا حادة، لم تمهله سوى أسبوع واحد قضت على حياته، وهكذا مات رحالتنا الجرئ.

دفن بلزونى تحت شجرة ضخمة، ووضع على قبره شاهد خشبى سجل عليه تاريخ الوفاة وظروفها مع رجاء مهذب بالمحافظة على المكان نظيفاً ومسوراً، وفيما بعد زار المنطقة الرحالة المعروف السير ريتشارد وحاول العثور على القبر لكنه فشل، لكنه وجد الأهالى مازالوا يذكرون هذا الجوال المارد الذى مات بينهم، وهكذا مات الرجل، وأسدل الستار على حياة رجل فذ حقق بالخبرة والإقدام ما لم يحققه سواه فى فترة العشرين عاماً التى قضاها فى الاستكشاف، وانتهت بذلك حلقة فى الكشف عن آثار مصر بأسلوب مفجع.

كان ما قام به بلزونى فى مصر محل تقدير وتقريظ علماء الآثار، أما قنصلا بريطانيا وفرنسا فإن علماء الآثار لم يستسيغوا قط جشعهما واحتكارهما لحقوق الآثار المكتشفة، على أى حال استمر سولت يوالى جمع الآثار لنفسه وكتب إلى أحد أصدقائه يقول إنه قضى معظم وقته فى «السطو على المقابر ودراسة النقوش البارزة وحل الكتابة التصويرية (المونوجرامات) التى أؤكد لك أننى بلغت فيها غاية الخبرة «ولم يفتر حقد سولت على بلزونى أبدا، فقد كان يشعر أن هذا الإيطالى خطف منه الأضواء والشهرة، فى حين أن ما اكتشفه لم يتم إلا بتمويل من سولت نفسه، وزاد من أسفه فظاظة المتحف البريطانى فى التعامل معه، ولم يتوقف شريط أحزانه، فقد ماتت زوجته بالحمى القرمزية فى ريعان شبابها، ثم أصابه ضعف عام فى صحته، وعبر عن أحزانه ومرارته فى رسالة أرسلها لوكيله فى لندن منها: «ليس لى سوى رغبة واحدة.. ألا يقرن اسمى باسمه (بلزونى) أبدا».

فى الفترة الأخيرة تعاقد سولت مع البريطانى «ينى أثناسيو» لجمع الآثار لحسابه. وكان ينى كما نعرف ممن عمل مع بلزونى، لكنه انقلب عليه وصار من أكبر أعدائه، وفى هذه الفترة تمكن سولت من تكوين مجموعتين أثريتين أخريين، وقد جمع أولى المجموعتين فى الفترة من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤، وهذه المجموعة اشتراها منه ملك فرنسا مقابل عشرة آلاف جنيه استرلينى بتزكية من الأثرى الضليع فرانسوا شمبليون شخصيا، وكان سولت يرفع شمبليون فوق جميع علماء الآثار، أما المجموعة الثانية. وكانت أكبر حجماً من الأولى فقد بيعت بصالة

سوبتى الشهيرة بلندن فى المزاد العلنى بعد ثمانية سنوات من موته، وقسمت المجموعة إلى أكثر من ١٠٨٣ من الأنصبة (لوط) حققت سبعة آلاف جنيه. أى أن سولت خلال عمله القنصلى الذى استغرق أحد عشر عاماً، استغل فيها مركزه ونفوذه فى الإتجار بالآثار، قد حقق ربحاً صافياً يربوا على عشرين ألفا من الجنيهات (الإسترلينية)، لكن سولت لم يعش ليهنأ بما حققه من مكاسب، فقد مات بمرض معوى فى أكتوبر سنة ١٨٢٧، وكان مازال قنصلا لم يتقاعد بعد، فلا حقق ما كان يصبوا إليه من معاش مريح، ولا نال تقدير الأوساط العلمية، رغم أن ذلك كان أمله طوال عمله الدبلوماسى.

عاش دروفيتى حياة أطول من سول بعدة سنوات، وأعيد تعيينه قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٢١، واستمر فى العمل حتى اضطر للاستقالة لأسباب صحية سنة ١٨٢٩، فتكون فترة نشاطه سبعة وعشرين عاماً اتجر فيها بالآثار كيفما شاء، بعد ذلك كون لنفسه مجموعة آثار شخصية كان لها قيمتها، وحاول دروفيتى بيع المجموعة إلى الحكومة الفرنسية لكن الإخفاق كان نصيبه، والسبب فى ذلك أن الحكومة الفرنسية ظلت تماطله، وذلك مداراة للتعصب الكنسى الذى ثار فى وجهها، وكان رأى الكنيسة أن مجموعة دروفيتى إذا عرضت ستثبت للناس أن مصر كانت موجودة مزدهرة قبل سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ولكن هذه السنة هى السنة التى بدأ فيها الخلق تبعا لحسابات كبير الأساقفة جيمس أسشار التى استخرجها من نصوص الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر، وأضيفت إلى العقائد اللاهوتية، وأثناء التسويف والجدل العقيم فوجئ الجميع بأن دروفيتى باع المجموعة إلى ملك سردينيا نظير ثلاثة عشر ألفا من الجنيهات وخلاف هذه المجموعة جمع دروفيتى مجموعتين أثريتين أخريين، وقد اشترى الأولى منها الملك شارل الخامس ملك فرنسا بمبلغ ربع مليون فرنك -وهى الآن زينة متحف اللوفر، أما الثانية فقد اشتراها الباحث الألمانى ريتشارد لبسيوس لحساب متحف برلين.

انتهى المطاف بدروفيتى إلى إصابته بخلل فى قواه العقلية، فأدخل إلى مصحة للأمراض العقلية حيث مات سنة ١٨٥٢، ولم يعترف أحد قط بهذا

الرجل رائدا ولا خبيراً فى الآثار المصرية، وكانت وسائله هو وأعوانه فى جمع الآثار والتنقيب عنها عنيفة ومخربة، وقد جعله أسلوبه الوصولى وجشعه فى التعامل مع العرب والأوروبيين من الشخصيات البغيضة، رغم ذلك كان ما نقله هو وغيره من الدبلوماسيين من آثار مصر إلى متاحف أوروبا من العوامل المؤثرة فى توجيه المنقبين الأوروبيين نحو مصر، والاهتمام بتاريخها القديم وآثارها الفريدة.

من عجائب القدر أن التنافس بين الثلاثى اللدود، دورفيتى وسولت وبلزونى، فى جمع الآثار كان نتيجة التنافس على نبش قبور طيبة وانتهاكها وتخريبها، واستمر ذلك فترة طويلة، والأغرب أن كلا منهم أثرى المتاحف المنافسة لمتاحف وطنه الأصلى، فبلزونى الإيطالى صاحب الجناح بالمتحف البريطانى. ودروفيتى كانت مجموعته هى التى قام عليها متحف تورين الإيطالى، ومقتنيات سولت كثير منها - حالياً - موجود بمتحف اللوفر، جميعهم جروا وراء الشهرة والربح وذيوع الصيت، وكلهم حقق ولو بعض ما كان يصبو إليه، فكلهم خرج رابحا بشكل أو بآخر، لكن الخاسر الوحيد كان علم المصريات.

الجزء الثالث

تخريب الآثار

١٦ـ رغبة جارفة

بلزونى هو الذى فتح الباب للسطو على آثار مصر، وسرعان ما تبعه الباقون، لقد بدأ مع منافسيه فى الاندفاع نحو حيازة الآثار، وسرعان ما تحولت هذه الرغبة إلى غارة شديدة الوطأة، وبعد عشرين سنة من رحيل بلزونى عن مصر زارها الآلاف من جامعى التحف والأثريين الهواة والجوالين الفضوليين، وبعض هؤلاء قنع بمجرد المشاهدة والمتعة، لكن غيرهم كان هدفه النهب والاستيلاء على الكنوز أو الربح، ومعظم الآثار المغتصبة تحمل اسم من نهبوها، وقد عرفنا بعضها من المعروضات التى تحمل أسماءهم فى شتى المتاحف العالمية، وعرفنا بعضها الآخر من كتالوجات صالات المزادات، أو من المجموعات الخاصة، وكثير من الشخصيات لها وزنها فى تجارة الآثار المسجلة فى النشرة المتخصصة الرائعة الموسومة بدليل تجار الآثار Who is Who in Egyptology، وهى نشرة جامعة مانعة، لم تترك صالحاً ولا طالحاً من تجار الآثار إلا ذكرته.

فى هذه الفترة كان من أشهر تجار الآثار رجل إنجليزى الجنسية يقطن الإسكندرية يسمى شارلز هاريس، هذا الرجل كان يتجر بالآثار من كل نوع خصوصاً البرديات، وقد ضمت مجموعة هاريس للمتحف البريطانى سنة ١٨٧٢ إلى بقية المجموعات الشبيهة، وقد استغرق جمع هذه المجموعات جميعاً مدة ثمانين عاما منذ رحيل بلزونى عن مصر إلى نهاية القرن التاسع عشر، فى هذه

الفترة بلغ تهريب الآثار المصرية مداه، من برديات إى موميـاوات إلى جعلان وغيرها، لدرجة أنه هربت إلى أوروبا أحياناً معابد صغيرة كاملة، وكان وراء ذلك بالطبع أشخاصاً أرادوا تحقيق أرباح سريعة أو إشباع هواية ونزوات عملائهم، ولقد أصبحت هواية جمع الآثار وتجارتها هوساً أشبه بالمرض حينذاك حتى لقد وصفها عالم فرنسى بأنها «رغبة جارفة لا تختلف عن الحب أو الطموح إلا فى كونها أكثر خسة لتفاهة أهدافها».

وقد تفاقمت المشكلة فى ذلك الوقت لتقاعس حكومة محمد على فى إصدار التشريعات المنظمة للبحث عن الآثار وحيازتها، ولم يكن لدى حكام مصر الأتراك الإحساس الكافى بخطورة هذه المشكلة؛ وذلك لأنهم لم يعيروا ماضى مصر وتاريخها القديم أهمية تذكر، وكثيراً ما كانت الآثار فى ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسى، أما الأهالى فقد درجوا على استغلال الآثار أسوأ استغلال، وكانوا يستغلونها كمصدر للحجارة لبناء قراهم فوق مستوى الفيضان.

أما متاحف أوروبا فلم تتورع بدورها عن استغلال الموقف، وحثت التجار على شحن غرف وأفاريز ومقابر أثرية كاملة - أحياناً - للعرض فى صالاتها وكان للفيلسوف الفرنسى الشهير إرنست رينان رأى فى الموضوع عبر عنه بأنه: «أصبح متعهدوا بيع الآثار للمتاحف يتجولون فى البلد بشكل همجى، يلهثون وراء شطر من رأس أو كسرة من نقش، بل كثيراً ما حطموا الآثار القيمة ليحولوها إلى كسرات، هؤلاء الطماعون المخربون كانوا يعيثون فى مصر كأنها ملك خاص لهم، وكان أشد هؤلاء فتكا بالآثار المصرية السياح من الإنجليز والأمريكيين، (والمؤسف) أن هؤلاء الأغبياء سيذكرون من جيل إلى جيل لأنهم سجلوا أسماءهم على أشهر الآثار المصرية فأتلفوها وطمسوا نقوشها الجميلة».

وفى سنة ١٨٥٩، زار مصر فرنسى اسمه «فيفيان دى سان مارتن» فأصابته الحسرة: «لقد نزعوا من إلفنتين معبدها الجميل، وتنازعته السماسرة، وأجمل شطرى بوابته استخدمها مصنع أرمنت لإنتاج السكر، وضاعت إلى الأبد المعابد الصغيرة فى إسنا والكاب، وتيفونية إدفو Typhonium of Edfu وكذلك مقبرة

«ونفرع» بسقارة، ونصف سرداب ليكوبوليس «فى ذلك الوقت كانت الأبجدية الهيروغليفية قد حلت طلاسمها، فأصبح بالإمكان قراءة النقوش الهيروغليفية، وأمكن للعقلاء تقدير مدى فداحة التخريب الذى حدث، لكن بعد فوات الأوان، كان الموقف يقتضى تدخل الحكومة المصرية بإصدار التشريعات اللازمة للسيطرة على الموقف، لكن لم يحدث حتى بعد صدور موسوعة «وصف مصر».

من القضايا المدوية فى مجال نهب الآثار فضيحة مشهورة كان بطلها -أيضاً- فرنسى من محترفى جمع الآثار اسمه «سباستيان لويس سولينيه»، قام هو ووكيلة جين بابتيست ليلوريان بنزع النقش البارز المشهور الذى يمثل دائرة الأبراج السماوية بكامله من سقف معبد دندرة، والنقش يصور القبة السماوية بأبراجها ويرجع تاريخه إلى أواخر العصر البطلمى . وربما بعده بقليل، وأهمية النقش تتلخص فى أنه تصوير «لمصر السماوية» التى آمن المصريون القدماء أنها صورة طبق الأصل فى السماء لمصر الأرضية بما فيها من أقاليم وتفاصيل أخرى.

كان سولينيه وليلوريان قد قررا (هكذا!) أن القبة المذكورة قد اكتشفها الجنرال ديزيه أثناء الحملة الفرنسية، ومن ثم «أصبحت على نحو ما أثراً قومياً (فرنسياً)»، ومن ثم يتعين نقلها من دندرة إلى باريس، لذلك حضر ليلوريان إلى الإسكندرية فى أكتوبر سنة ١٨٢٠ لعمل على شحن القبة (إلى باريس) بأى طريقة، ولإخفاء غرضه الحقيقى، أعلن أنه ينوى الحفر فى طيبة، ورغم حرصه عثر على جاسوس لسولت على المركب نفسه يقوم برصد تحركاته - زرعه سولت بنفسه - فقام ليلوريان بطرده.

كان بعض السياح الإنجليز يقومون بأخذ بعض الاسكتشات فى دندرة عندما كان ليلوريان يشاهد القبة للمرة الأولى، وللتمويه توجه ليلوريان إلى طيبة (جنوب دندرة) واشترى بعض المومياوات والآثار الأخرى، ولما عاد ذلك الفرنسى (الماكر) إلى دندرة كان السياح قد غادروها، وأصبح الجو خالياً له ليبدأ فى تنفيذ مخططاته، كانت قبة البروج مركبة فى سقف الغرفة الوسطى من الغرف الثلاثة الموجودة فى مبنى صغير مجاور للمعبد الرائع الذى خلب لب عساكر نابليون،

وكان تخليص القبة من السقف عملاً خطيراً؛ لأن القبة منقوشة على حجرين فى منتهى الضخامة والسمك، إذا كان سمك كل منهما ثلاثة أقدام، بينما لم يكن معه من الأدوات سوى الأزاميل والمناشير؛ لذلك لجأ ليلوريان إلى استخدام البارود لإحداث فتحات فى سقف المعبد (أى المبنى الصغير)، ومن حسن الحظ أنه كان ماهراً فى استخدام البارود فتمت العملية دون أن ينهار السقف، بعد ذلك ثبتت المناشير فى الأسافين الناتجة وعهد إلى عربان أشداء بموالاة النشر فى الجرانيت الصلب بلا انقطاع.

تم نزع القبة السماوية بعد ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك وضعت على قمة المنحدر الترابى بالمعبد، ووضعت تحتها اسطوانات خشبية تمهيداً لنقلها إلى المركب الراسية على بعد أربعة أميال، لكن الاسطوانات لم تتحمل ثقل الحمل فانكسرت؛ لذلك استعيض عنها بالروافع مع القوة البدنية لتحريك «البضاعة» حتى شط النيل، وبعد مجهود ضخم تمكن العمال العرب من وضع البلاطتين الثمينتين فى قلب المركب بأمان، لكن الماء كان يتسرب داخل المركب بشدة، وبسرعة عملت الجلفطة اللازمة (أى سد الخروم)، ولولاها لفشلت العملية والسبب فى نجاح ذلك كله كانت حصافة ليلوريان وبعد نظره فقد كان سخياً مع عماله فى الأجور، فكانوا لا يدخرون وسعاً فى العمل للخروج من المأزق فى سلام، رغبة فى إنجاح نقل القبة.

لكن الريس رفض الإبحار؛ والسبب أن سائحاً أمريكياً تصادف أن رأى ليلوريان ينزع القبة فأخطر سولت بما رآه، وعلى الفور قام سولت برشوة الريس، ولم يتأخر ليلوريان فى المقابل من نفح الريس «ألفى» قرش كبقشيش فأمر بالإبحار، وفى منتصف المسافة إلى القاهرة أوقفهما أوروبى من أعوان سولت وسلمهما أمراً من كبير وزراء الباشا (محمد على) يمنع ليلوريان من نقل القبة، فما كان من ليلوريان إلا أن رفع الرايات الفرنسية وبجرأة تحدى الإنجليز ومنعهم من مهاجمة سفينته، ونجحت خطته الجريئة، فابتعد الوكيل وهو يتميز غيظاً، واستشاط سولت غضباً لأنه كان يريد أن يغتصب القبة لنفسه، كما أهدى مسلة من قبل لوليام بانكس؛ لذلك تعقب ليلوريان إلى الإسكندرية، ثم توسط لدى

الباشا بزعم أنه بدأ حفائر فى دندرة قبل أن يسمع الفرنسى حتى بأن هناك مكان بهذا الاسم، ومن ثم فهو صاحب القبة، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح.

فى النهاية، وصلت القبة السماوية إلى باريس وكان استقبال وصولها حاشداً، وربح سولونيه وليلوريان من ورائها ١٥٠ ألف فرنك دفعها فيها الملك لويس الثامن عشر، والقبة - الآن - فى اللوفر، أما زوار معبد دندرة فعليهم أن يقنعوا بمجرد صورة منسوخة منها.

هذه الخدعة التى كان يقوم بها أمثال ليلوريان وسولت ببساطة وتبجح كانت شيئاً طبيعياً مقبولاً بين الأثريين فى ذلك الوقت، حيث كان البعض مثل يولونيه ودروفيتى وأثناسيوس يتميزون بالفضول والطمع والنظرة القومية الضيقة، وكانت المشكلة تكمن فى عدم فهم أى منهم لما يرونه أو ينقلونه لأن قراءة الهيروغليفية كانت فى ذلك الوقت مستحيلة، فى ذلك الوقت كان حجر رشيد الثلاثى النصوص (يونانى - ديموطيقى - هيروغليفى) أمل العلماء فى حل مشكلة الهيروغليفية، ونسخت من النصوص نسخ عديدة عكف على دراستها كثير من علماء اللغات القديمة فى أوروبا، وقد ترجم النص اليونانى بسهولة وبسرعة، وكان المأمول أن يؤدى ذلك إلى حل للمشكلة، لكن «العلامات التصويرية» ظلت مستغلقةعلى أفهامهم، فظل الأمر معلقاً، والغريب أن الذى شاع عنها أنها تمثل أفكاراً لا أصواتاً، أما الديموطيقية فكانت أقل صعوبة، ولم يصعب على العلماء إدراك أنها حروف أبجدية مستمدة من اللغة المصرية القديمة.

كانت الخطوة التالية تتبع وتحديد أصل الخط الديموطيقى، وفى هذا المجال تصدى من الباحثين المبرزين سلفستر دى ساسى (فرنسى مشهور فى اللغات الشرقية) وجين دافيد أكربلاد السويدى للتعرف على الأبجدية الديموطيقية، لكن نتائج بحوثهما لم تتطابق، وأصاب الجميع الإحباط عندما ظهرت آراء توماس يونج، وهو شخصية متعددة المواهب إذ كان طبيباً باطنياً ومن علماء الفلسفة الطبيعية ومن علماء الرياضيات واللغات، هذا الرجل «الموسوعة» أهدى إليه أحد أصدقائه بردية كانت السبب فى تحول اهتمامه إلى اللغة المصرية القديمة؛ لذلك حصل هلى نسخة من نقوش حجر رشيد وشرع فى المقارنة بين

الخطين اليونانى والديموطيقى، واعتماداً على الحدس والإلهام توصل إلى أن الديموطيقية شكل انسيابى متشابك (متصل الحروف) من النقوش الهيروغليفية؛ ونص كلامه أنها «كتابة جارية» لأنه لاحظ قرب شبهها من الهيروغليفية بمقدار بعدها عن الكتابات الرمزية (المعروفة).

لكن الفضل الأكبر فى حسم موضوع حل لغز النقش الهيروغليفى يعود إلى العالم الفرنسى الفذ جان فرانسوا شمبليون، ولد شمبليون فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٧٩٠ فى مدينة فيجيا الفرنسية، لأب غير ميسور الحال يعمل فى بيع الكتب، وفى سن الخامسة تعلم القراءة، وفى سن الحادية عشرة صحبه أبوه لزيارة العالم الرياضى جان بابتيست فورييه، وهو من علماء بعثة نابليون، ويبدو أن فورييه أشعل حماس الفتى شمبليون وغذى رغبته فى حل ألغاز الهيروغليفية، وفى سن السابعة عشرة كان شمبليون قد أتم تعلم لغات شرقية منها العبرية والعربية والسنسكريتية والفارسية، وكان فى الوقت نفسه ملماً باللغات الإنجليزية والألمانية والإيطالية، وهداه ذكاؤه إلى تعلم القبطية ليضيفها إلى هذه الذخيرة اللغوية المتميزة، وكان شمبليون يؤمن أن القبطية الامتداد الطبيعى للهيروغليفية فى صورتها الدارجة.

رحل شمبليون إلى باريس وتحمل شظف العيش ليدرس على يدى المستشرق «ساسى» ثم أخذ فى دراسة نصوص حجر رشيد عدة أشهر لكن يبدو أنها استعصت عليه، على أى حال لم ييأس عالمنا من مواصلة البحث سبع سنين دأباً، ثم أصدر مجلدين ضمنهما أسماء بعض المواقع الجغرافية القديمة، وفى فورة من الحماس أعلن أنه قد سيطر على الديموطيقية ويستطيع قراءتها على حجر رشيد، والحقيقة أن حماس شمبليون واندفاعه كان مبنياً فى الواقع على أساس سليم، فتقريره منذ البداية أن القبطية أقرب اللغات - حالياً - للهيروغليفية كان استنتاجاً فى محله تماماً.

فى سنة ١٨١٩ ظهر مقال طويل فى دائرة المعارف البريطانية بقلم توماس يونج عن مصر القديمة، احتوى على ملخص لمحاولاته فى قراءة الهيروغليفية، ورغم أن شمبليون فى حينها رفض التسليم بأن الهيروغليفية ما هى إلا أبجدية،

إلا أنه بعد سنتين كان فى طريقه إلى الاهتداء لحل المشكلة، ويبدو أن إسراعه فى التوصل إلى حل كان بسبب أخذه أخيراً بوجهة نظر يونج، ففى سنة ١٨٢٢ اكتشف خرطوشة (ختم الملك) من أبى سنبل استطاع أن يميز فيها اسم فرعون مصرى رمسيس، ولاحظ أن أسماء الفراعنة تكتب منطوقة، وبلغ به الانفعال - لهذا النجاح - حدا جعله يخرج مندفعا من شقته الصغيرة باحثاً عن أخيه ليقول له منفعلا «لقد وجدتها»، ثم يخر مغشياً عليه، بعد ذلك تقدم ببحث عنوانه «الأبجدية الهيروغليفية المنطوقة»، قدم إلى أكاديمية الآداب الفرنسية ونشر فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٨٢٢، إعلاناً عن اكتشافه، وفى مبدأ الأمر قوبلت أفكاره بالرفض والاستهجان حسب رؤية كل باحث، لكن البحوث المستقلة بعد ذلك أيدت وجهة نظره وأثبتت إن الباحث الشاب قد توصل لحل لغز الهيروغليفية بدون شك، وفى ظرف سنتين أتم شمبليون بحثه المعروف باسم «الوجيز فى النظام الهيروغليفى» أثبت فيه أن الهيروغليفية فى حقيقتها مزيج بين الكتابة الرمزية والحروف المنطوقة؛ أى أنها أبجدية رمزية هجائية معاً.

سرعان ما إصبح شمبليون من المشهورين، ثم عين أميناً بمتحف اللوفر، وفى سنة ١٨٢٨ سنحت له الفرصة لزيارة مصر، مكافأة له على جهوده، وكانت الرحلة ناجحة بكل المقاييس، سافر شمبليون إلى مصر على رأس مجموعة مكونة من أربعة عشر عضوا من الفنانين والمهندسين منهم تلميذه نيكولو روسيللينى، وكانت الرحلة فوق نجاحها بمثابة تجربة مثيرة لهم، فللمرة الأولى يزور المعابد الكبرى من يستطع أن يقرأ نقوشها، ويفهم ويدرك قيمتها الحقيقية، كذلك أثبتت بحوثهم الميدانية أن نظريات شمبليون صحيحة وسهلة التطبيق عمليا، ومن ثم أصبح شمبليون - الباحث الفذ - أول رواد قراءة الهيروغليفية على آثار مصرية حقيقية.

واستأجرت البعثة سفينتين أقلت أفرادها إلى النوبة وتوغلت فيها، ونسخت ما استطاعت أن تنسخه من نقوش وصور فى عدة مواقع فيها، وبعد الفراغ من مهمة النسخ ارتدت البعثة إلى طيبة، وفى طيبة نصبوا أسرتهم فى قلب مقبرة رمسيس السادس، واستراحوا بين الآثار ولم يرعوا لها حرمة، وفى دندرة بهروا

بمعبدها الجميل وفاضت مشاعرهم، تماماً كما فعل جنود حملة نابليون قبل سنة ١٧٩٩ عندما لم يتمالكوا أنفسهم فاصطفوا تلقائيا ليحيوه ويعظموه.

اندفع شامبليون وصحبه من السفينتين نحو الشاطئ فى ليلة كانت مقمرة مضيئة، وهم فى ثورة عارمة، وعبر شامبليون عما يجيش فى صدره قائلا: «لنا أن نعذر المصرى إذا عدنا بالنسبة له أجلافاً» وفى مسيرة صاخبة واصلوا السير نحو المعبد حتى وصلوا إليه بعد ساعتين، وكان يغمره ضوء القمر، «وهى صورة أسكرتنا من شدة الإعجاب» كما كتب واحد منهم، «وفى الطريق أخذنا نغنى تصبراً، ولكن هنا أمام صحن المعبد المغمور بالنور - نور القمر - غمر قلوبنا سلام حقيقى؛ وأحسسنا بسحر غامض نحن تحت هذا الصحن المعمد بأساطين ضخمة... وفى الخارج كان القمر ساكنا! ويا لها من مفارقة عجيبة» وعلى مدى ساعتين من ساعات العمر التى لا تعوض فحص أفراد البعثة المعبد وتجولوا فيه فى جو مفعم بالحماس والانفعال.

استغرقت رحلة شامبليون سبعة عشر شهراً شهدت أروع إنجازاته، ولم يكن برنامجه يتضمن إجراء حفائر أو اكتشاف أية آثار، وكان هو نفسه معنياً أكثر بالمشاهدات والبحث، ومحاولة تصنيف الآثار حسب تسلسلها التاريخى، ونجح شامبليون بضربة واحدة فى توسيع حدود التاريخ ألفى سنة أو تزيد فظهرت لنا أصول الحضارة المصرية القديمة فى أزمنة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت.

كانت إمكانات البحث العلمى فى الآثار هائلة آنذاك، لكن غطى عليها لدى شامبليون فداحة ما وقعت عليه عيناه من تخريب ودمار، ذلك رغم أنه هو نفسه لم يسلم من الشبهات، فقد تقدم باقتراح لنقل إحدى المسلات من الأقصر إلى باريس فى ذكرى حملة نابليون، وقد وافق محمد على باشا على طلبه رغم أنه سبق أن أهدى مسلات الأقصر إلى الإنجليز، وبالفعل نقلت إحدى المسلتين الضخمتين من مكانها أمام معبد الأقصر إلى باريس سنة ١٨٣٠ بتكاليف باهظة، وتم نقل المسلة على ظهر السفينة دروماديز وفى أكتوبر سنة ١٨٣٦ تم وضع

المسلة فى مكانها الحالى بميدان الكونكورد الشهير بباريس فى حضور ملك فرنسا وسط جمع حاشد وصل إلى مائتى ألف مشاهد.

لكن شامبليون لم يتهاون فى كتابة مذكرة رفعها إلى الحكومة المصرية يشجب فيها التخريب الواسع النطاق الذى كانت تتعرض له المواقع الأثرية، كما تناول فى تقريره ما تسببه تجارة الآثار من سلبيات بهذا الصدد، وأشار فى تقريره إلى أن أهم عوامل جذب السياح إلى مصر آثار وعجائب ماضيها، وأشار أن السياحة مصدر دخل للبلد يحقق على المدى البعيد ربما يفوق كثيراً ما ينتج عن تدمير الآثار ونهبها للتجارة فيها، وفى النهاية أوصى بأن تخضع أعمال التنقيب عن الآثار للسيطرة الحكومية، كما أوصى بمنع تفكيك حجارة المعبد والاستيلاء عليها، وأخيراً نصح بضرورة تنظيم تصدير الآثار تنظيماً دقيقاً صارماً.

وقد كتب لنصائح شامبليون النجاح، واستجاب لها محمد على باشا، وصدر قانون نشر فى ١٥ من أغسطس ١٨٣٥، وهو قانون يعد فى زمنه طفرة حقيقية فى هذا المجال، وقد أشار القانون فى ديباجته إلى أن المتاحف وهواة الآثار أصابتهم حمى اقتنائها لدرجة يخشى معها أن تتسرب إلى الخارج آثار الحضارة المدنية الفرعونية وتسلب من مهدها الأصلى، فيحرم منها بينما تظهر فى البلاد الأجنبية وتثرى متاحفها، ويحظر القانون قيام الأفراد بالبحث والتنقيب عن الآثار المصرية؛ ثم ينص على إنشاء دار للآثار تعرض فيها الآثار التى تملكها الدولة وما تكتشفه منها بمعرفتها، ونص القانون على تجريم تحطيم الآثار وتخريبها كما نص على ضرورة المحافظة عليها وصيانتها، على إثر ذلك عين محمد على باشا موظفاً مختصاً بالتفتيش على أهم المواقع الأثرية بالصعيد.

كان القانون نقله هامة فى الاتجاه الصحيح رغم أنه لم يكن ملزماً، ورغم بدايته المهزوزة لأن الوالى نفسه وخلفائه من بعده لم يلتزموا به، والحقيقة أن الحفائر الفردية لم تتوقف، لكن أصبح من حق الدولة مصادرة المكتشفات الأثرية، وأصبح تصدير الآثار أكثر صعوبة عن ذى قبل، وكان لحل مشكلة الهيروغليفية أثر إيجابى فى هذا الصدد، إذ أدى فهمها إلى زيادة الوعى بأهمية الآثار كأحد مصادر المعلومات التاريخية، ومن ثم زاد الاهتمام بالمحافظة عليها،

لكن شامبليون لم يحظ بمشاهدة ذلك كله ولم يعش ليسعد بنجاح جهوده فقد أصيب فى باريس بسكتة دماغية مات على إثرها فى ٤ من مارس سنة ١٨٣٢، وكان عاكفا على إعداد تقرير للنشر متضمنا أنباء رحلته فى مصر.

١٧ـ هناك واحد أقوى منى

فتح شامبليون بجهوده - وحل مشكلة الهيروغليفية - الباب أمام الدراسات الأثرية والمصرية عموماً، ومنذ ذلك الوقت أخذ الاهتمام يتزايد للحصول على المدونات الأصلية، وأخذ الباحثون يهتمون بالتحليلات الدقيقة؛ لذلك أخذ دور التخريب والسطو على الماضى يتراجع منذ رحيل بلزونى.. وأصبح يفد إلى مصر باحثون جادون وإن لم ينقطع ورود المتلصصين، من هؤلاء الدارسين الجادين نذكر «جون جاردنر ويلكنسون»، أحد رواد علوم المصريات فى إنجلترا فيما بعد، الذى زار مصر أول مرة سنة ١٨١٢، وأقام فيما اثنى عشر عاماً اهتم فيها بتسجيل الآثار ودراسة العربية والقبطية، وما لبث أن اهتم بدراسة الهيروغليفية وتصحيح نتائج بحوث شامبليون، وأنهى زيارته الأولى سنة ١٨٣٣ بعد أن فرغ من أول مسح أسلوبى منظم لأهم المواقع الأثرية فى مصر والنوبة.

كان ويلكنسون يعمل منفردا، وأفلح فى قراءة عشرات النصوص والخراطيش الملكية بطريقة صحيحة لأول مرة، وهو الذى قام بأول محاولة لتصحيح ترتيب الأسرات الملكية الفرعونية، كذلك قام بنسخ المناظر المقبرية فى بنى حسن بوضوح ودقة ولم يكن شامبليون ونيكولو روسيللينى قد زاراها بعد، ومن إنجازاته اكتشاف الموقع الصحيح لقصر اللابيرانت المنيف بهوارة وكانت له مذكرات أكثر تطوراً من بقية معاصريه، وكانت معظم ملاحظاته وتسجيلاته دقيقة، ويعتبر ما

قام به ويلكنسون شبه إعجاز، علماً بأنه لم يتلق أى دعم من حكومته بعكس شامبليون الذى كانت تشجعه الحكومة الفرنسية وتدعمه.

رغم ذلك كله ظل ويلكنسون من رجال الظل ولم ينل ما يستحق من التقدير، فالجانب الأكبر من بحوثه لم ينشر، ولم يقم أحد بكتابة سيرته رغم تأثيره العميق على علوم المصريات فى القرن التاسع عشر، لكن الأوساط المثقفة - بصفة عامة - كانت تعرف ويلكنسون عن طريق كتابه الذى يحمل عنوان «طباع وعادات المصريين القدماء»، الذى ظهر سنة ١٨٣٧ فى ثلاثة أجزاء، والكتاب أول محاولة للبحث المستفيض عن حياة المصريين القدماء، عالج فيه المؤلف موضوعه بطريقة تشعر القارئ أنه يقرأ عن شعب من الشعوب الحية المعاصرة، وحرص المؤلف على إلقاء الضوء على الديانة والثقافة والحياة اليومية الجارية للشعب أكثر من حرصه على معالجة الأمور السياسية، وهذا الكتاب أول كتاب منذ قرون يتجاوز فى موضوعاته ما كتبه هيرودوت والأساطير الموروثة ويحاول بحث الإنسان المصرى القديم نفسه، لقد كان جاردنر ويلكنسن فى الحقيقة أحد الأفذاذ من الباحثين، وكان له وزنه رغم عدم إيفاء البعض حقه، وكان ذا جلد على البحث والاستقصاء، مع مزج البحث العميق بالكتابة المشرقة الجميلة التى تنقل بسلاسة للجمهور العادى أكثر المواضيع جدية.

لكن ويلكنسن لم يكن فارس الميدان وحده، كان هناك مثلا روبرت هاى أير اسكتلندى من هواة السياحة، زار مصر لأول مرة سنة ١٨٢٤ عقب مقابلة مع الفنان الشهير «فردريك كاتروود» وهو فنان تحققت له شهرة عظيمة بعد ذلك عن لوحاته التى صورها للمعابد المفقودة لحضارة المايا Maya فى أمريكا الوسطى، وكان له موارده المستقلة وكان من عشاق مصر، وظل الرجل لمدة تزيد على عشر سنوات (١٨٢٨ - ١٨٣٩) يقوم بتسجيل الأطلال الأثرية فى وادى النيل. وقد استعان فى عمله بعدد من الفنانين العظام منهم المصور الفذ «فردريك كاثروود» نفسه و«جوزيف بونومى» الذى صار من خبراء نسخ النقوش الهيروغليفية؛ و «أوين براونى كارتر» المهندس المعروف - وكانت مهمته رسم المساقط التخطيطية للمواقع، وبدأت المجموعة نشاطها فى منف والجيزة ببطء،

فتمكنت من جمع كم هائل من المعلومات لم ينشر معظمها فى أوراق هاى بمتحف برلين، والآن، تعتبر الصور والوصف المسجل بواسطة هذه المجموعة المصدر الأساسى عن آثار هذه المنطقة التى أصابها التخريب بشدة منذ زارها هاى.

قوبل ما كتبه شامبليون وتلميذه روسيللينى عن مصر بحماس شديد، وشرعت حكومات أوروبا فى الاهتمام بجدية البحوث وتسجيل النقوش الهيروغليفية. ومما يذكر أن ملك بروسيا بدأ يولى مصر اهتمامه منذ سنة ١٨٤٢، متأثرا ببلاغة الرحالة العلمى المشهور «ألكسندر فون هامبولدت» واختار الملك عالماً شاباً فى الثلاثينات من عمرة كان يعمل محاضراً فى جامعة برلين يسمى كارل ريتشارد لبسيوس ليرأس بعثة كشفية إلى وادى النيل مدتها ثلاث سنوات، وافق هؤلاء العلماء البروسيين كلا من الفنان بونومى والمهندس المعمارى الإنجليزى «جيمس وايلد»، وقامت البعثة بعمل مسح شامل مستفيض للمواقع الأثرية الكبرى.

كان نجاح هذه البعثة باهراً حقاً؛ وذلك لأن التحضير لها كان جيدا، فقبل مغادرة أوروبا كان لبسيوس قد تفقد أشهر المجامع الأثرية فى أوروبا، كما درس أجرومية شامبليون الهيروغليفية، وتعلم الطباعة الحجرية والحفر على النحاس، ورغم أن مهمته كانت أساساً البحث عن الآثار واقتنائها، إلا أنه تجاوز هذا الهدف فقام بإجراء حفائر فى مواقع اللابيرانت فى الفيوم ورسم تخطيطاً (قطاعاً) متقناً لطبقات الحفر بالموقع، وهذه فكرة جديدة لم يهتد إليها أحد قبله.

حمل لبسيوس وزملاؤه عند مغادرة مصر خمسة عشر ألف قطعة ما بين قوالب (نماذج تماثيل منسوخة) وآثار (أصلية) مصرية، كانت نواة المتحف المصرى فى برلين، وصدر عن البعثة مطبوعات فاخرة فى اثنى عشر ألبوما تضم ٨٩٤ لوحة - ربما كانت أعظم إنتاج من نوعه، ثم نشرت بعد ذلك خمسة مجلدات أخرى تحتوى نصوصاً وصفية، بعد وفاة لبسيوس سنة ١٨٨٤، ومجموع ذلك كله يمثل حصيلة جهود بعثة لبسيوس، وقد أصبحت منبعا لا ينضب عن آثار مصر القديمة، لن تبلى جدته أبداً.

قبل أن يهل منتصف القرن التاسع عشر كانت معظم آثار الوجه القبلى قد رصدت ولو من باب الفضول، لكن الوجه البحرى والدلتا كانتا شبه مجهولة من الناحية الأثرية؛ لأن أحداً لم يحاول الحفر فى السهول العميقة فى تلك المناطق، وبالجملة لم يكن الحفر العلمى المنظم قد بدأ فى مصر كلها بعد، وكان الإنجاز الوحيد تقريباً هذه المخططات والمساقط التى عملها السيد «وليام هوارد فيز «للأهرام؛ وهو سيد مهذب من العسكريين يحمل فى قلبه إيماناً عميقاً بالكتاب المقدس ومن الخبراء فى البارود، وكان ينوى عمل تفجيرات لكشف مدخل هرم منكاورع، أما غالبية علماء المصريات فقد انصب اهتمامهم على النقوش الأثرية وعلى متابعة التسلسل التاريخى للأحداث؛ لأن معظم الجدل الأكاديمى انحصر فى تحديد زمن بدء الحضارة المصرية، أو فى تفسير النقوش الهيروغليفية.

استمرت سيطرت لصوص المقابر وتجار الآثار على الحفائر الأثرية، وكانت أعمالهم واسعة النطاق ونتيجتها التخريب المأساوى للآثار الثمينة، وكان الوقوف فى وجه هذه الظاهرة متميعا لا يكاد يسمع له صوت؛ لأن المتاحف الأوروبية والقنصليات الأجنبية كانت ضالعة فى البحث المحموم عن الآثار الجديدة، ولم يخل الأمر من أصوات عاقلة أخذت تندد بهذا العمل، من هؤلاء السيد «جورج روبينز جليدون» أمريكى سبق له العمل كنائب للقنصل الأمريكى بالإسكندرية وبعدها ذاع صيته كمؤلف ومحاضر عن مصر القديمة حملته أسفاره بعيداً حتى سان لويس بأقصى الغرب، فى سنة ١٨٤٩ كتب جليدون نداء توجه به لأصحاب الوعى الأثرى، وكان فى صورة مذكرة غامضة إلى حد ما، لم يلتفت لها كثير من الناس عنوانها «التماس إلى الأثريين الأوروبيين حول تخريب آثار مصر» وقد حدث تجاهل شبه تام لهذا الالتماس.

كان نداء جليدون طويلاً رناناً سجل فيه التخريب الذى نال الآثار المصرية منذ حروب نابليون، سواء على أيدى اللصوص أو الأثريين، لكنه خص بالتنويه دور محمد على باشا وحكومته بهذا الخصوص، وأشار إلى أن معبد فيلة لم ينقذه من التدمير سوى دوامات الشلال الأول، وأبدى عميق أسفه على انتزاع سلالم مقياس النيل لبناء أحد القصور، ثم بين أن طيبة استمر تخريبها منذ بدء

استكشافات ويلكنسون بها سنة ١٨٣٦، واستخدم البارود داخل معابد الكرنك، وكانت أى رشوة مهما قل مقدارها كفيلة بحصول من يقدمها على أساطين تمثالية من بهو الأساطين، حتى باب مقبرة سيتى الخشبى الذى أعاده بلزونى بكفاءة إلى حالته الأصلية، استولى عليه الجنود الألبان بعد وفاة سولت، وربع معبد دندرة استخدمت حجارته فى بناء مصنع للسماد سنة ١٨٣٥، ولم يوقف التخريب سوى احتجاجات القنصل الفرنسى، ويبدى جليدون أسفه قائلا: «من العجيب أن الأساطين التى أقامها هادريان للعبادة تستخدم - الآن - فى مصنع لتكرير الروم!».

عندما ظهرت عجالة جليدون كانت بعض الأصوات قد علت وأصبح الرأى العام مؤيداً لاتخاذ إجراءات لحماية الآثار. فقد سبق أن احتج شمبليون سنة ١٨٢٩، واحتج القنصل الفرنسى «جين فرانسو ميمو» سنة ١٨٣٩ عندما نقل من مصر، وقد تحمس قبل ذلك بسنتين اللورد «الجيرنون بيرسى» للتعليق على حجم التدمير الواقع على آثار مصر، وفى الفترة بين سنتى ١٨٣٩، ١٨٤٠ أعدت الحكومة البريطانية بياناً عن عمليات التدمير والتخريب رفعته لمحمد على باشا، لكن رؤى تأجيل الرأى العام وإثارته حتى يكون لدى الحكومة المصرية مهلة تتمكن فيها من معالجة الوضع، هذا التقرير تم إعداده بعد الرجوع إلى تقرير مهم يدور حول الأنشطة الدبلوماسية والتجارية للقناصل، أعده «لورد» «بورينج»، ينتقد فيه بشدة تجار الآثار، وعندما درس التقرير سنة ١٨٤٢ استخرج منه الأجزاء الخاصة بأنشطة القناصل فى مجال الآثار - رغم أن الدبلوماسيين منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لم يكن عملهم يدع لهم فرصة للبحث الأثرى - وكان قانون الآثار الذى أصدره الباشا سنة ١٨٣٥ قد ظهر - على الورق على أقل تقرير.

يبدو أن نداءات جليدون المدوية كان تأثيرها ضئيلاً جداً على ضمائر السياح وصائدى الكنوز، فكم ندد بمن نعته «السيد الأنجلو هندى» الذى لا يتورع عن استخدام المعاول والمناشير فى قطع النقوش الغائرة من جدران مقبرة أمنحتب الثالث ليسهل حملها إلى سفينته، وعندما ينتهى الفنان من عمله يلقى بالأصل فى النهر، (هذا هو نص كلام المؤلف، ويفهم من السياق أن النقوش المنزوعة كان

يمكن نسخها داخل المعبد، لكن الكسل والاستهتار جعل الفنان ينزعها ثم يتخلص منها بعد النسخ، فتكون الجريمة أفدح)، وحتى عندما كان لبسيوس ومن معه من مصورين موجودين بالصعيد، تسلل فنان فرنسى منحرف الأطوار من هواة السياحة اسمه «أخيل كونسات تيودور إميل بريس دافن» إلى معبد الكرنك واستولى على قائمة الملوك الموجودة بها - وهى مجموعة حجرية محفور عليها صور الوجوه والخراطيش لكثير من الفراعنة، وللعلم لم يكن لدى دافن أى تصريح يخول له هذا، وفى ذلك تحدٍ صريح لقانون الآثار.

كان بريس يعمل فى الليل بهمة حتى أفلح فى تعبئة الأحجار فى ثمانية عشر صندوقاً قبل الإبلاغ عنه لحاكم إسنا، وقرر الحاكم فرض الحراسة على خيمة بريس، وبعد شهر رشا بريس الحاكم نفسه فسهل له نقل الصناديق إلى مركبه أثناء الليل، وفى رحلة العودة التقى بليبسوس الذى كان فى طريقه إلى الكرنك، وقام بما يلزم من إكرام العالم الكبير الذى جلس على أحد صناديق الحجارة الثمينة يتناول القهوة، حتى القنصل الفرنسى نفسه تقاعس عن اتخاذ أى إجراء ضد بريس؛ لأن الشحنة الثمينة استقرت فى النهاية فى اللوفر.

إلى حد ما لم يكن هناك لوم على أمناء المتاحف والأثريين إن كانوا قد نظروا إلى صائدى الكنوز نظرة تنطوى على التسامح، فقد كانوا أينما قلبوا وجوههم يشاهدون تفتيت وتدمير المعابد والأهرام للحصول على حجارة للبناء، وكان التجار يلحون على السياح لشراء الآثار؛ لذلك أقنعوا أنفسهم أنه من الأفضل ترك العلماء والتجار ينقلون ما استطاعوا نقله من الآثار القيمة التى يجدونها إلى أوروبا، حيث تتوفر الحماية ضد النهب والضياع، وحيث أنه لم يكن فى مصر دار للآثار فإن هذا الإجراء يكون إجراء وقائياً فعالاً، وربما كان هذا خير حل بعد هدم متحف القاهرة الذى كان بحديقة الأزبكية؛ لذلك كانت اللهفة على النسخ والتسجيل بالإضافة إلى التصدير لصيانة المكتشفات الأثرية ظاهرة متفشية بين العلماء والثقات فى ذلك الوقت.

وقد طرحت أو أحرقت آلاف النقوش والبرديات، أو تحطمت وتلفت أثناء الحفر المحموم للبحث عن الآثار الضخمة، وكانت الآثار الضخمة بغية متاحف

أوروبا مع البرديات الجميلة والمخطوطات القيمة، لكن لا أحد من هؤلاء كان يولى أدنى اهتمام لتحسين وسائل استكشاف الآثار فى مواقعها.

كانت المخطوطات التى أغرت شاباً فرنسياً لزيارة مصر، وكان له اهتمام بالغ بالآثار المصرية، هذا الشاب هو أوجست مرييت من مواليد بولونيا بفرنسا، وكان مولده فى ١١ من فبراير سنة ١٨٢١، وكانت طفولته عادية ولكن يبدو أنها كانت سعيدة، وفى سن الثامنة عشرة سافر إلى إنجلترا لتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة خاصة هى «سترا تفورد - ابن - أفون» واستمر فى التدريس سنة واحدة وهى على أى حال مغامرة قصيرة المدة، بعد ذلك عاد مرييت إلى بولونيا واشتغل مدرساً فى كليتها المحلية التى تلقى فيها تعليمه من قبل، ثم اكتشف فى نفسه موهبة الكتابة فبدأ يكتب مقالات فى أوقات فراغه يعالج فيها شتى الموضوعات لتنشر فى الصحف والمجلات، وحتى سن الثامنة والعشرين لم يكن لمرييت صلة بمصر أو بعلوم المصريات، وفى سنة ١٨٤٢ توفى شخص يدعى نستور لوط الذى كان ضمن البعثة العلمية فى حملة نابليون على مصر، وكانت وفاته أثناء رحلة صحراوية، هذا الرجل انتقل أبوه للإقامة فى بولونيا، وقد ترك الابن وراءه بعد وفاته كمًّا ضخما من الأبحاث والمدونات كانت فى أمس الحاجة للتنظيم والنشر، وكان أبو لوط هذا من رجال الجمرك، ومن أقارب عائلة مرييت، فطلب من مرييت فحص هذه الأوراق، وسرعان ما وجد مرييت نفسه مفتوناً بذلك العالم الجديد الذى انفتح أمام ناظريه، وأصبح مستغرقا تماماً فى الاهتمام بالنقوش الهيروغليفية المعقدة ومحاولة قراءتها.

سرعان ما استغرقته هوايته الجديدة لدرجة أنه كتب مقالاً عن الآثار القليلة الموجودة فى متحف بولونيا، ونظراً لقوة المقال تمكن من كسب تأييد مدينته ومساندتها فى مطالبة الجهات الرسمية بإرساله لبعثة كشفية فى مصر، فلما رفض طلبه استقال من وظيفته ونفض يديه من الارتباط بكتابة المقالات وسافر إلى باريس، وفى باريس تردد على اللوفر ودرس قائمة الملوك التى استقرت هناك بعد أن كانت فى الكرنك: ثم إنه كتب مقالاً مستفيضاً يقع فى سبعين صفحة تحدث فيه عن نقوشها. ولفت المقال نظر عالم المصريات شارل لينورمان بكلية

باريس فتوسط للشاب النشيط لدى إدارة اللوفر حتى أسندت إلى مرييت وظيفة صغيرة بالمتحف الشهير، وكان مرييت يقضى نهاره فى تبويب البرديات، ومساءه فى قراءة المصريات بنهم، أو فى التدريب على إتقان قراءة النصوص الهيروغليفية حتى أصبح فيها من المحترفين.

حانت فرصة مرييت الكبرى سنة ١٨٥٠، فقد استمر تعضيد لينورمان له، وتحولت تزكية العالم الكبير إلى تكليف يتعين بموجبه على مرييت أن يحصل على مخطوطات قبطية من مصر، وسافر مرييت إلى الإسكندرية يملؤه الحماس، ثم اتصل ببطريرك القبط فى القاهرة، ليفاجأ بأن الرجل كان موغر الصدر حنقا على جامعى الوثائق الأجانب، واتضح أنه منذ سنوات اتصل اثنان من الإنجليز ببعض القساوسة ونادموهم حتى سكروا، فلما غاب القساوسةعن الوعى هرب الإنجليزيان بمكتبة كاملة من الوثائق؛ لذلك كان يعارض بشدة تسرب مزيد من الوثائق من بين يدى الكنيسة.

أسقط فى يدى مرييت لأنه أيقن بأن حصوله على مخطوطات قبطية فى حكم المستحيل؛ لذلك فكر فى توجيه نشاطه إلى مجال الكشوف الأثرية، معتمداً على نص إضافى فى أمر التكليف يخول له الحفر فى المواقع الأثرية لجمع ما يثرى به المجموعة الموجودة فى اللوفر، وفى آخر أكتوبر سنة ١٨٥٠ كان مرييت قد أعد للأمر عدته واتخذ لنفسه معسكراً وسط جبانة سقارة، لم يكن لدى مرييت تصريح بالحفر من الباشا، ولم يكن معه من المال إلا قليلاً، وكانت السلطة المخولة له من المتحف محدودة للغاية، لكن كانت هناك إحدى رءوس أبى الهول ظاهرة بين الرمال تشبه ما رآه منها من قبل فى القاهرة والإسكندرية وهى من المنطقة نفسها. هذه الرأس أشعلت حماسه، فأخذ يفكر فى أمرها وأمر نظائرها، وأسعفته سعة اطلاعه فاسترجع فى خاطره ملحوظة قرأها فى كتابات استرابو فحواها أن هناك سيرابيوم فى منف، فى مكان رملى فيه ممر على جانبيه تماثيل أبى الهول يؤدى إلى مقبرة عجول أبيس حيث كان يجرى دفنها فى الرمال. واستولت على مرييت روح المغامرة فقامر على كشف المقبرة؛ لذلك جمع ثلاثين عاملاً عند رأس أبى الهول وأمرهم بالحفر بحثاً عن المقبرة.

كان نجاح مرييت فوريا، وسرعان ما أخذت تماثيل أبى الهول تظهر الواحد تلو الآخر محددة للطريق، وظهرت مع الحفر آثار أخرى: مقابر وتماثيل جالسة، وتمثال خصوبة، ومعبدان لعبادة أبيس أحدهما يونانى والآخر مصرى، وكان بالمعبد المصرى أحد تماثيل أبيس الرائعة، فى ذلك الوقت كانت ميزانية الحكومة الفرنسية على وشك النفاذ، لكن القنصل الفرنسى أرنو لومين أعجب بنشاط ذلك الشاب المتحمس فأعانه بالمال ليستأنف نشاطه، وفى الوقت نفسه تقدم مرييت بطلب إلى رؤسائه ليمدوه بالمال، ويبدو أن مرييت كسب الرهان، فقد كانت المعونات المالية فى طريقها للوصول إليه.

فى غضون أسابيع قليلة من الأزمة المالية كان مرييت يحفر لكشف مخبأ يحتوى على تماثيل برونزية لأوزيريس وأبيس وآلهة مصرية أخرى تحت أرضية المعبد أوقدت الغيرة والحماس فى قلوب المصريين والأجانب معا، واستثيرت مصر كلها، وركب الحسد تجار الآثار، وتدخل الخديو عباس بن محمد على لمصادرة الآثار، لكن القنصل الفرنسى أمكنه تلطيف الجو ونجح فى السماح باستحواذ فرنسا على المكتشفات الأثرية فى المستقبل، وقد أثار التصريح انزعاجاً كبيراً فى فرنسا؛ لأن الحكومة الفرنسية كانت قد فرغت للتو من الموافقة على تخصيص ثلاثين ألف فرنك للاستكشافات الأثرية المقبلة.

لم ينزعج مرييت للشروط واستمر فى حفائره بهدوء، وفى نوفمبر سنة ١٨٥١ وفق فى الحصول على مقبرة عجول أبيس بعينها، وكان يسدها باب رائع منحوت من كتلة صخرية واحدة، وسرعان ما كان مرييت بنفسه داخل المقبرة فاندهش إذ وجد كثيرا من توابيت العجول المقدسة الحجرية قد نزعت أغطيتها وتناثرت بفعل لصوص المقابر، لكن الذى بقى أكثر مما نهب، وحسب الفرمان يذهب كل ما اكتشفه إلى الخديو فكل ما احتفظ به فى متحفه أهداه لمن شاء من ذوى النفوذ الأجانب لأغراض سياسة، واستقر رأى مرييت على اتباع خطة معينة، فقد وضع ما شاء أن يستولى عليه فى صناديق أخفاها فى قاع هوة عميقة فى أرضيتها باب سرى يفتح على المقابر التى تحته، وبذلك ذهب ما ذهب إلى متحف اللوفر

بينما كان مرييت يتلاعب بالمسئولين المصريين ويطلعهم على المقابر المكتشفة فارغة.

أمضى مرييت عدة شهور يستكشف مدققا حتى أعمق السراديب وأبعدها. وكانت مكافأة كده وصبره عثوره على مومياء لأحد عجول أبيس سليماً تماماً، يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثانى، حتى آثار أقدام العمال الذين دفنوا العجل كانت واضحة على تراب المقبرة، وكان التابوت الذى فيه الجثة - أيضاً - سليماً، كما كان العجل نفسه محاطاً بالذهب والمجوهرات بكثافة، ابتهج الفرنسيون وانفعلوا عند مشاهدة مكتشفات السيرابيوم معروضة فى متحف اللوفر، فكان ذلك من أسباب شهرة مرييت وذيوع اسمه فى أنحاء العالم، ومكافأة له على جهوده رقى إلى درجة أمين مساعد بمتحف اللوفر، وأسرع مرييت فى إصدار ألبوم به لوحات للسيرابيوم تحت عنوان «المختار من آثار مصر» يمكن النظر إليه على أنه إرهاص لمجلد فخم غزير المادة عن هذه المكتشفات.

كان مرييت إنسانا قلقا يتميز بالحيوية ولا يحب حياة الاستقرار. كذلك كان معروفا بميوله الاجتماعية، فلما أصبح معروفاً بين علماء المصريات اتصل ببعضهم وأصبح من أعز أصدقاء عالم المصريات الألمانى إميل بروجش الخبير فى الخط الديموطيقى، فقد تصادف أن زار بروجش السيرابيوم زيارة عابرة لكنها أدت إلى نشوء صداقة بين الرجلين استمرت العمر كله، وكان الرجلان ذوى ميول متشابهة ويحبان حياة المتعة والتنعم، ورغم أن مرييت لم يكشف لنا النقاب عن حياته الشخصية، فإن بروجش قد كشف لنا جانباً منها، فتكلم عن بيت مرييت الفلاحى (مبنى بالطوب النئ) وسط السيرابيوم، وكان - دائماً - ممتلئاً بالعمال والنساء والأطفال... والقردة. وكان أثاثه «إسبرطيا» - أى رخيصا، وشكا بروجش أن «الخفافيش تطير فى مخدعى... فأحكمت الناموسية تحت الفراش وفوضت أمرى لله - بينما كانت أبناء آوى والذئاب والضباع تعوى فى الخارج».

أدى نشاط مرييت وطموحه إلى لفت نظر المهندس الدبلوماسى الشهير «فردناند دى ليسيبس» صاحب مشروع قناة السويس، واستمع دى ليسيبس لآراء

مرييت ومقترحاته بخصوص إنقاذ آثار مصر، فى ذلك الوقت كان الوالى الجديد سعيد باشا الذى شغل المنصب سنة ١٨٥٤ فى أعقاب اغتيال الوالى السابق عباس باشا الذى يعرفه مرييت، وتكلم دى ليسيبس مع الوالى الجديد فى شأن مرييت (لكن يبدو أن الموضوع وقف عند هذا الحد)، ثم حدث أنه بعد ثلاث سنوات وجه سعيد باشا الدعوة عن طريق الحكومة الفرنسية إلى مرييت للحضور إلى مصر بمناسبة الإعداد لزيارة الأمير نابليون للأراضى المصرية، فلما حضر كلفوه بالتنقيب عن بعض التحف الأثرية الجميلة لإهدائها للزائر الملكى، ولم يتردد مرييت فى تنفيذ ما طلب منه، وكان يعمل هذه المرة مدعوماً بالمال، وتحت يده رفاص حكومى لتنقلاته، بدأ مرييت حفائره فى سقارة، وسرعان ما نقل نشاطه إلى طيبة وأبيدوس حيث وافاه صديقه بروجش ليشاركه فى العمل، وكانت نتائج الحفر سخية، لكن لسبب ما ألغيت زيارة الأمير، فانتهز دى ليسيبس الفرصة فاقترح على الباشا تعيين مرييت مفتشاً عاماً للآثار المصرية، كما طلب من الباشا تأسيس متحف جديد للآثار يكون مرييت - أيضاً - أميناً له، وقد كانت هذه الاقتراحات من قبل مثار اعتراض مستمر وشجب من جانب تجار الآثار والدبلوماسيين الغارقين لآذانهم فى تجارة الآثار بطرق ملتوية غير مشروعة.

رغم التوصيات كان وضع مرييت مهزوزاً، فقد كان أمر تمويل مشاريعه يخضع تماماً لإرادة الباشا وحسن نواياه، وكانت نواة دار الآثار تتكون من «مسجد صغير مهجور، وسقائف فقيرة، وبيت للسكن تملؤه الهوام» والأخير طبعاً مخصص لإقامة مرييت، لكن مرييت كان سعيداً جداً بذلك، وجمع حوله عائلته ومستشاريه وشمروا جميعا للعمل والاستكشاف بكل همة ونشاط، كانت العمالة رخيصة ومتوفرة، ولم تكن لديه صعوبة فى استئجار رجال قرية بأسرها إذا شاء، وكان الرجل يجرى الحفائر بأسلوب فج متهور لا يوافقه عليه أحد، لكنه مثمر، وكان يعمل تحت إمرته فى وقت واحد مجموعات عمالية تحفر فى سبعة وثلاثين موقعاً مختلفاً تغطى مصر كلها من الدلتا حتى الشلال الأول.

كانت مكتشفات مرييت غزيرة وعظيمة، لكن وفرة الإنتاج صاحبه إهمال جسيم واتباع أساليب متخلفة فى الحفر، كان مرييت بطبيعته يسعى للحصول على آثار مظهرية تعجب المشاهد لمعرضه، ويقدرها الوالى، ومن مساوئ أسلوبه أنه لم يتورع عن استخدام الديناميت، ومن الناحية الفنية ضرب صفحاً عن تسجيل المكتشفات ولم يهتم بتدوين أى ملاحظات، كان كل همه الحصول على قطع أثرية، لقد كان اهتمامه بالأشياء أكثر من اهتمامه بالمضمون، ومما يذكر أنه استولى على محتويات ثلثمائة مقبرة فى منطقتى الجيزة وسقارة وحدهما وجردها من كل ما فيها، لكن يحسب له أنه هو الذى أجلى السكان وأخلى سطح معبد إدفو، فأظهر المقبرة العظيمة للعيان لأول مرة منذ قرون، وفى طيبة نجح عماله فى تنظيف وإظهار معبد حتشبسوت بالدير البحرى، وفى هذه الأثناء حدث احتكاك، كاد يتطور إلى عراك، بينه وبين مركيس دوفرين وآفا الذى كان يقوم سراً بالاستيلاء على كمية كبيرة من الشقفات الأثرية المنقوشة من معبد منتوحتب فى المنطقة نفسها، كذلك استعاد مرييت معبد حتحور الكبير ومعبد آمون بالكرنك وأكثر من خمسة عشر ألفا من الآثار الخفيفة.

كانت صيانة الآثار فى ذلك الوقت شيئاً جديداً، وكانوا يفهمونها على أنها مجرد حظر تفكيك وتفتيت المنشآت الأثرية للحصول على حجارة للأغراض الإنشائية الجارية، أو مصادرة الآثار المنهوبة لصالح الحكومة، وحاول مرييت تطوير مفهوم الصيانة وجعله يعنى السيطرة الحكومية عليها بالكامل وقصر حقوق الاكتشافات على مندوبيها، وهذا ما يعنى عملياً وضعها بالكامل تحت سيطرة مرييت الشخصية، لكن ذلك كان أبعد مما يتصور، فالوالى نفسه لم يكن يهمه من أمر مرييت شيئا، كان استخدامه مجرد عمل سياسى من جانب الوالى استجابة لإلحاح دى ليسيبس والأمير نابليون، والواقع أن الباشا كان بيده أن يقطع الاعتمادات المالية المخصصة للمتحف بدون إخطار سابق، ولم يكن يبالى بتجريد المتحف من أى قطعة أثرية يريد إهداءها لأى زائر مقرب، ووجد مرييت أنه ليس أمامه من حل سوى استثارة اهتمام الوالى شخصياً بالآثار، فلم يكن

أمامه سوى موالاة إغراق المتحف بالآثار الجديدة المظهرية المبهرة. وكان هذا السبب فى الجرى المسعور وراء مكتشفات أثرية جديد، دون مراعاة لما تقتضيه قواعد التخطيط المنظم للكشوف الأثرية، وهذا الإهمال المتعمد لاحظه وأشار إليه بعض علماء الآثار واعتبروه من سلبيات الرجل.

فى سنة ١٨٥٩، وصل إلى علم مرييت فى القاهرة أن التابوت الحجرى المزخرف بالذهب والخاص بالملكة «إعح حتب» أم الفرعون أحمس قد وجد سليماً فى طيبة، وعلم أن حاكم طيبة استولى على التابوت ثم جرده من الزخارف وأرسلها كمجوهرات ثمينة إلى الباشا كهدية سياسية عالية المستوى، هذا الخبر أفقد مرييت شعوره فركب رفاصاً حكومياً وتوجه فوراً للصعيد ومعه أمر رسمى يخول له إيقاف أى سفينة يشك فى أنها تحمل آثاراً، والتقت السفينتان فكان لا مناص من نشأة عراك عنيف، وحدث نزاع حاد بخصوص الذهب استمر لأكثر من نصف ساعة، بعدها أمسك مرييت بين يديه نسخة الأمر الذى يخوله حق المصادرة وأخذ يلوح به بضراوة، وكاد أحد الرجال يسقط فى النهر، ولوح آخر بالضرب فى المليان، ولكن الأمر انتهى بتسليم الذهب والجواهر إلى مرييت، وأسرع مرييت لمقابلة الباشا وأهداه جُعلاً ثميناً وقلادة لإحدى زوجاته وبذلك حول المكسب السياسى إلى نفسه، وأظهر الباشا سروراً بالغاً بالمكتشفات - ربما كان جزء منه شماتة فى حاكم طيبة، وفى فورة سروره أصدر أوامر ببناء متحف جديد كى تعرض فيه آثار الملكة (أم أحمس)، ونفذ المشروع بسرعة وأصبح لدى مرييت متحفاً أثرياً جديداً سرعان ما حشده بالكنوز الفرعونية.

ونظراً لطول مقام مرييت عهدت إليه حكومته بالاتصال بسعيد باشا وإقناعه بزيارة فرنسا بمناسبة توقيع أحد قروضه المالية، وكان مرييت بطبعه يكره المهام الدبلوماسية، لكن وساطته نجحت، وصحب الباشا فى رحلته إلى فرنسا، وهناك زارا مسقط رأس مرييت فى بولونيا حيث استقبل الباشا بحفاوة، ووصل اغتباط سعيد باشا بالزيارة درجة جعلته ينعم على مرييت برتبة الباكوية ويخصص له معاشاً ثابتاً. لكن هذه الصداقة التى توطدت أواصرها انقطعت فجأة بموت سعيد باشا بعد ستة أشهر، فى ذلك الوقت كان متحف بولاق قد تحول إلى

معرض، لذلك زادت الأعباء على كاهل مرييت (بك) لاضطراره لمرافقة كبار الزوار فى جولاتهم، وضرورة مداومة اتصاله بأقرانه فى أوروبا، ولطول مقامه توطدت علاقاته فى مصر مع موظفى الحكومة وتجار الآثار والأهالى جميعاً، وقد سهل ذلك كثيراً من سعيه للمحافظة على الآثار الثمينة التى جمعها، وكان مرييت شعلة من النشاط لا يكف عن التواجد إما بمكتبه أو بأحد ميادين الحفر والاستكشاف، وكان يخرج للعمل كل يوم مع الفجر، وكان يقضى وقت راحته فى منزله حيث يتغذى مع زوجته اليانورا، وكانت هذه السيدة قد حولت البيت إلى مضيفة تعج - دائماً - بالأصدقاء والزائرين، هذه الزوجة الوفية قدر لها أن تموت بالطاعون سنة ١٨٦٥، فلم يصبح لمرييت سلوى إلا بمزيد من العمل، وانتشلته من همومه مهمة كلفه بها الخديو إذ أرسله إلى باريس لمدة سنة ليشرف بنفسه على إعداد الجناح المصرى فى معرض باريس الذى أقيم سنة ١٨٦٧.

انبهرت باريس بمعروضات مرييت التى أحيت أمام أعينهم الحياة المصرية القديمة، وكان مرييت قد عرض فيه بذكاء أجمل ما خف حمله وغلا ثمنه من مقتنيات متحف بولاق، وكانت تتصدر المعروضات مجوهرات الملكة إعح حتب، وأخذت المجوهرات بألباب الفرنسيين وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجينى، وأرادت أوجينى أن تستولى على المجوهرات فخاطبت الخديو مباشرة أن يهديها إياها بعد انتهاء المعرض، كانت اللحظة حرجة وحاسمة بالنسبة لمستقبل الآثار المصرية، لكن الخديو قال لها بحصافة «هناك - فى بولاق - واحد أقوى منى؛ يجب عليك أن تقدمى طلبك إليه» وكان مرييت رجلاً لا تؤثر فيه الرشاوى ولا التهديدات لا يتهاون ولا يحيد عن موقفه مهما أغضب شخصية لها وزنها مثل الإمبراطورة القوية أو الخديو المتكبر؛ لذلك (رفض الطلب) فعادت المجوهرات سليمة إلى مصر.

شغلت مسألة صيانة الآثار بال مرييت فى سنواته الأخيرة، وقد صرح بأنه «يجب علينا أن نصون آثار مصر ونعنى بها ... وأن نعمل على تمكين العلماء حتى بعد خمسمائة سنة من دراسة الآثار ومشاهدة آثار مصر الموجودة فى وقتنا الحالى»، لقد كان استهتار السياح كالشوكة فى جنب مرييت، ومن الأمثلة

الصارخة على عبث بعض السياح ما يحكى عن سائح أمريكى أراد إثبات وجوده فى مصر سنة ١٨٧٠، فلم يجد وسيلة ترضيه سوى طوافه حاملا «فرشاة ودواة مملوءة بالقطران. ثم أخذ كلما مر على معبد لطخه بالإعلان عن زيارته المستهجنة».

كانت مشكلة التخريب لا تقل فداحة عن مشكلة الصيانة، ومما أشار إليه مرييت أن مقبرة «تى» بسقارة على سبيل المثال «لحقها من التخريب على أيدى السياح فى عشر سنوات أضعاف ما لحقها خلال الستة آلاف سنة الماضية». وقد تعترينا الدهشة إذا عرفنا أن هدف مرييت من تكثيف حفائره كان العمل على إنقاذ آثار مصر لتراها الأجيال القادمة، ومما وصل إلينا من معلومات عرفنا أن مرييت قد استخدم خلال مدة عمله الوظيفى أكثر من ٢٧٨٠ عاملاً وهو عدد لا يتيسر لأى فرد أن يحكم سيطرته عليه بمفرده، لكن مرييت بنى الورش فى إدفو وطيبة وأبيدوس ومنف، لاستقبال الآثار المكتشفة وترميمها، وهى فكرة جديدة لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى.

كان مرييت رجلاً متعدد المواهب ولم يقصر اهتمامه على الآثار، فقد شارك مشاركة فعالة فى حفلات افتتاح قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩، ففى ذلك اليوم افتتحت غريمته القديمة الإمبراطورة أوجينى هذا المجرى المائى على ظهر اليخت الإمبراطورى آيجل Aigle وأسعد مرييت أن يكون ضمن بعثة الشرف المرافقة لسموها. وأراد الخديو أن يستغل مواهب مرييت فى مجال آخر فطرح عليه فكرة طريفة وكلفه بتنفيذها بنفسه، وكان طلب الخديو قيام مرييت بنفسه بكتابة نص أوبرالى (أوبرا عايدة) لكى يلحنها الملحن الإيطالى الكبير فيردى احتفالا بالمناسبة، وبالفعل كتب مرييت النص بمعاونة مواطن فرنسى اسمه دى لود.

فى أواخر حياته الوظيفية الحافلة أحاطت المآسى الشخصية والوظيفة بمرييت من كل جانب، فحفائره تعثرت لنقص الاعتمادات المالية بسبب ديون مصر الخارجية - التى أطاحت فى النهاية بالخديو نفسه، وخلفه غيره فى سنة ١٨٧٩، وقبل ذلك بسنة أغرق الفيضان متحف بولاق فضاع بسببه كثير من الآثار

ومعظم كتبه ومذكراته القيمة عن السيرابيوم، وفى الوقت الذى أخذ صيته يعلو على المستوى الدولى، ومع أن أكاديمية الفنون كرمته، إلا أنه فقد أبناءه الأعزاء الواحد تلو الآخر فأصبح وحيداً لا يجد للحياة معنى.

وصف أحد النبلاء الفرنسيين سنة ١٨٧٢ مرييت بأنه عندما رآه وجده «رجلاً ضخماً - طويلاً عريضاً - وكان مسناً لكنه ليس عجوزاً.. متين البنيان كأحد تماثيله العملاقة.. وجهه محدد المعالم.. نظرته حالمة تتسم بالكآبة.. لكنه اعتاد الجلوس على شط النيل يتحدث ويعبر عن حبه لمصر العجيبة ونيلها وصفاء سمائها».

بعد تولى الإنجليز والفرنسيين الإشراف المالى على مصر، أخذت الأمور تستقر، وانتظم صرف مرتب مرييت، لكن صحة الرجل أخذت فى التدهور بسبب البول السكرى، وعاد من أوروبا إلى مصر رغم ضعفه، حيث مات فى سلام فى بيته المجاور للمتحف الذى أسسه وأحبه، وكانت وفاته فى يناير سنة ١٨٨١، قبل أن يظهر كتابه عن السيرابيوم فى الأسواق، لكن الأحوال عموماً قد تبدلت، فقد تأسست دار آثار جديدة مستديمة حوت كافة أشكال آثار مصر القديمة، وتغير الحال فأصبحت الحكومة مسيطرة على قطاع الآثار، وصار نهب آثار مصر وتهريبها عملية صعبة للغاية، والحقيقة أن مصر عرفت لمرييت قدره، وقدرت أفضاله وإخلاصه، فدفنته بما يستحق من الاحترام عند باب متحفه البولاقى.

١٨ـ فى المتحف البريطانى
وضع فى الحفظ والصون

تزامن موت أوجست مرييت مع تغير فى أوضاع مصر السياسية، سببها سلبية الخديو فى مواجهة المشاكل، ثم الثورة الشعبية التى قامت ضده فى القاهرة. واهتمت بريطانيا وفرنسا بالموضوع خوفاً من تأثر الأوضاع بقناة السويس ولحماية الاستثمارات الصناعية الأجنبية فى مصر، وهددت الدولتان بالتدخل العسكرى وإرسال أساطيلها إلى الأسكندرية عند ظهور أى بوادر تدل على عدم استقرار الأوضاع، وهذه إشارة واضحة إلى الأتراك بأن الأمور فى مصر أخذت تتحول.

أدت ثورة الجيش فى سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى تأليف حكومة شعبية لم تستمر فى الحكم سوى عام واحد، كانت هذه الحكومة يرأسها الخديو توفيق إسماً، والضابط الشاب أحمد عرابى فعلاً، وطالبت بريطانيا باستقالة الحكومة بحجة تدهور الموقف الأمنى وقتل الأوروبيين فى شوارع الأسكندرية علناً، ولم تلبث بريطانيا أن أرسلت أسطولها فى البحر المتوسط وعليه قوة عسكرية إلى مصر، وفى وقت قصير تغلب الجيش الإنجليزى بقيادة الجنرال السير جارنيت ولسلى على مقاومة الجيش المصرى، فى أثرها دخلت القوات البريطانية القاهرة وأقرت الأمن والنظام فيها، وانتقلت مقاليد الحكم الفعلية إلى أيدى القنصل البريطانى

العام (السير إيفلين بارنج - لورد كرومر فيما بعد)، بينما ظل الخديو حاكماً إسمياً بلا سلطات تقريباً، واستمر إشرافه على شئون الحكم فى مصر عشرين عاماً، كانت كلمته فيها هى العليا، وسياساته مملاة من مدن لندن، وكان الرجل من خبراء الاقتصاد لذلك كان معظم نشاطه موجهاً لإصلاح اقتصاد مصر المثقل بالديون، وعمت إصلاحاته كل المصالح الحكومية ومنها بالطبع مصلحة الآثار. وسيطر على إدارة الدفاع، وأحوال الشرطة، والشئون الأجنبية، والمالية والأشغال العامة خبراء بريطانيون. لكن التعليم والآثار والفنون ظلت بأيدى الفرنسيين.

عندما اعتلت صحة مرييت اهتمت الحكومة الفرنسية بالأمر اهتماماً بالغاً؛ لأنها كانت حريصة على دعم نفوذها فى قطاع الآثار المصرية، من أجل ذلك اختارت أحد العلماء الشبان وإسمه ماسبيرو وأرسلته إلى مصر قبيل وفاة مرييت، وكان ماسبيرو ضليعاً فى علوم المصريات وخبيراً فى الهيروغليفية، وعلى معرفة وثيقة بمرييت منذ سنة ١٨٦٧ وهو طالب، ولد ماسبيرو فى باريس سنة ١٨٤٦، وكان أبوه مهاجراً إيطالياً من ميلانو، ومنذ الصغر شغف ماسبيرو بالمصريات فأصبحت مناط اهتمامه، لذلك اجتهد حتى أتقن الهيروغليفية فى وقت قصير، ولم يتح لماسبيرو زيارة مصر إلا فى سن الرابعة والثلاثين عندما أرسلته حكومته ليعد نفسه لخلافة مرييت فى إدارة متحف بولاق.

كان ماسبيرو من الأفذاذ الذين لا يشق لهم غبار فى علوم المصريات حتى أنه فاق أستاذه مرييت نفسه فى هذا المجال، هذا بالإضافة إلى صغر سنه وحيويته وذكائه المتوقد، ولم يدخر ماسبيرو جهداً فى الإحاطة الشاملة بالمصريات فغطت جهوده كافة جوانبها من حفر وتنقيب إلى كتابة وقراءة الهيروغليفية، هذا بالإضافة إلى نشاطه فى التأليف، وكانت لماسبيرو مؤلفات رائجة فى زمنه تناولت المصريات وغيرها من الموضوعات، وكان له جمهور غفير من القراء فى أوروبا وأمريكا، وكان لكتاباته أثر فى زيادة وعى الناس بالآثار المصرية فأخذ يظهر اتجاه عام يتعامل مع مصر القديمة بروح تتسم بالاهتمام والمسئولية.

تحت إدارة ماسبيرو تم ترتيب وتنظيم المجموعة الأثرية الضخمة بالمتحف، وسهل اللورد كرومر لماسبيرو تأسيس مصلحة الآثار المصرية وتطويرها حتى

أصبحت مؤسسة قوية تضم خمس مراكز تفتيشية لتنظيم ومراقبة الحفائر الأثرية فى ربوع مصر، وألزم المنقبون الأجانب بإجراء حفائرهم تحت رقابة مفتشى المصلحة، وهذا الإجراء وإن حد من الأعمال غير الشرعية، إلا أنه لم يوقفها تماماً، فقد استمرت عمليات التهرب لأن المتاحف وجامعى التحف ووكلائهم كانت لهم طرقهم الملتوية فى تنفيذ مخططاتهم.

كان لدى تجار الصعيد - دائماً - بضاعة حاضرة من الآثار. فلما نشطت السياحة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأخذت وفود السياح تتزايد، زاد الإقبال على شراء الآثار، فحقق أهل القرنة من وراء ذلك مكاسب ضخمة، وكان معين المعروض من الآثار والمومياوات لا يكاد ينضب، ونخص بالذكر الأخوين أحمد ومحمد عبدالرسول، اللذين اعتادا على تهريب الآثار داخل لفائف من القماش أو فى سلال الخضروات، هذان الأخوان كان بدء اشتغالهما بتجارة الآثار بطريق الصدفة البحتة، فقد ضلت للأخوين معزاه (من قطيع الماعز) فسعى وراءها أحمد ليبحث عنها، وأثناء بحثه عثر بالصدفة على مخبأ به مومياوات وأثاث جنائزى فى قاع صخرى عميق، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإخوان فى سلب الكنز الموجود تدريجياً وبمقادير محدودة، واستمرا على هذا الحال عشر سنين متوالية، وقد هداهما ذكاؤهما الفطرى إلى هذا الأسلوب خشية أن يؤدى إغراق السوق بالآثار إلى هبوط حاد فى أسعار بيعها، وكان السياح الإنجليز والأمريكيون على وجه الخصوص يتهافتون على الآثار الصغيرة الثمينة، خصوصاً ما كان يحمل منها شعارات ملكية، ونما إلى علم ماسبيرو نبأ هذه التجارة المريبة، فأدرك على الفور أنها تعتمد على اكتشاف سرى كبير فى وادى الملوك، وقد بنى ماسبيرو شكوكه على أساس أن بعض القطع المتداولة منها كانت فريدة فى نوعها، ليس هذا فقط وإنما كان بعضها يحمل الشعارات الملكية، كما أن بعض المومياوات المعروضة للبيع كانت مومياوات فراعنة حقيقيين.

تصرف ماسبيرو بحذر لأن تفتيش آثار الأقصر لم تكن أموره قد انتظمت بعد، لذلك سارع بإرسال برقية إلى شرطة الأقصر طالباً تشديد الرقابة على تجار الآثار من أهاليها، ثم أرسل مبعوثاً خاصاً إلى هناك متظاهراً بأنه سائح

ثرى مستعد للصرف ببذخ، وبادر المبعوث بشراء بعض القطع الأثرية المختارة لكسب ثقة التجار، وكانت النتيجة أن التجار بدأوا ينظرون إليه باعتباره (عميل فوق العادة) وأصبحوا يعرضون عليه أنفس ما لديهم، وفى إحدى المرات عرض عليه تمثال جنازى صغير من عهد الأسرة الحادية والعشرين، أيقن المندوب أنه لابد قد سرق من مقبرة ملكية، واشترى الرجل التمثال بعد مساومة عنيدة، أمكنه خلالها أن يتعرف على أحمد عبد الرسول، واتجهت شبهات المبعوث وشرطة المدينة إلى عائلة عبد الرسول، وتأكد أن العائلة كانت تؤثر شخصاً تركياً بعينه على غيره من العملاء، هذا العميل إسمه مصطفى أغا آيات يعمل وكيلاً لقنصليات بلچيكا وفرنسا وروسيا، فكان يتجر فى الآثار ويقتنيها مستظلاً بالحصانة الدبلوماسية.

طبقاً للقانون كان أغا آيات فوق المساءلة القانونية، لكن الأخوين عبدالرسول كانا تحت طائلة القانون لذلك اعتقلتهما الشرطة فى أبريل سنة ١٨٨١ وأرسلا فى أصفادهما إلى محافظ قنا لاستجوابهما، ودافع الأخوان بفصاحة عن نفسيهما ونفيا التهمة، واعتمدا فى دفاعهما على أنه لم يعثر على أى آثار فى بيتهما (هما طبعاً ليسا من السذاجة ليحتفظا بدليل الإدانة)، بالإضافة إلى ذلك حشدا جمعاً من الأهالى شهدوا لهما بنظافة اليد والبعد عن الشبهات، ولم يُجدِ معهما الترهيب ولا الترغيب؛ لذلك أطلق المحافظ داوود باشا سراحهما لعدم كفاية الأدلة - وهناك شك كبير فى أن داوود باشا نفسه كان على صلة بهما، وعاد الرجلان منتصرين سعيدين كل منهما إلى داره، وهدأت الأحوال بعض الوقت، ثم نشب نزاع عائلى حاد داخل أسرة عبد الرسول نفسها بسبب قسمة غنائم المخبأ الأثرى، حيث طالب أحمد بنصيب أكبر لتعرضه للتعذيب والاعتقال، وانتشرت أنباء هذا النزاع بسرعة فى طيبة، فانتهزت مصلحة الآثار الفرصة وفتحت باب التحقيق فى الموضوع مرة أخرى، وبعد تضييق الخناق عليه لم يجد محمد مفرّاً من الاعتراف التفصيلى بكل شىء حتى ينجو بنفسه، وبعد ثلاثة أشهر أعيد إلى قنا ومثل أمام داوود باشا المحافظ واعترف اعترافاً رسمياً وطلب اعتباره شاهد ملك. وبعد أيام أرشدهم إلى مكان المخبأ، كان ماسبيرو فى

هذه الأثناء متواجداً بالخارج؛ لذلك عهدت الحكومة إلى إميل بروجش بتمثيلها فى هذا الموضوع، ومن ثم فقد كان على رأس القوة التى صحبت عبد الرسول إلى المخبأ، كان بروجش فى حالة عصبية أثناء اعتلائه التل الصخرى المنحدر ثم نزوله فى القبر العميق حيث يوجد الكنز الأثرى، والحق أننا يجب أن نعذره فى ذلك فقد كان يخشى غدر الأهالى به، لذلك تسلح تسليحاً كثيفاً قبل أن يدلوه فى البئر بواسطة حبل متين ومعه ما يكفى من الشمع لإضاءة القبو، ولم تكد تمضى بضع دقائق حتى فوجئ بمنظر لم يخطر له على بال وقد فصل وصف هذا المنظر ماسبيبرو فيما بعد بأسلوب درامى من واقع تقدير بروجش، فقد كان بروجش واقعاً تحت تأثير أحمد الذى أفهمه أن المقبرة خاصة ببعض كبار الموظفين، لكن:

«ما اكتشفه العريان كان قبواً كاملاً للفراعنة.. وأى فراعنة! أعظم الفراعنة فى تاريخ مصر! تحتمس الثالث، وسيتى الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس الثانى الفاتح، هذا ما عاينه السيد إميل بروجش وهؤلاء زمرة جعلته يسبح فى الأحلام، وأنا مثله أظن نفسى فى حلم وأنا أرى وألمس أجساد هذه الشخصيات الفريدة، التى ما كنا نظن أننا سنعرف عنهم سوى أسماءهم».

ووجد بالقبو ـ أيضاً ـ جرار من النبيذ القربانى، وأوانى كانوبية، ثم توابيت ملكات مصر الشامخات مكومة فى صفوف.

بعدما أفاق بروجش من دهشته بدأ يرتب أمور نقل الموجودات، وعلى الفور استأجر ثلاثمائة عامل للقيام بأعمال تنظيف القبو ونقل المحتويات تحت إشراف موظفى مصلحة الآثار الموجودين، وكلف الرفاص الحكومى المسمى المنشية بنقل الشحنة إلى القاهرة، وفى ظرف يومين (٤٨ ساعة) كانت الدفعة لأولى من الفراعنة الأربعين مع كثير من الآثار الثمينة قد حملت فوق الرفاص الذى توجه بها إلى القاهرة، ويحدثنا ماسبيرو بأن النساء من الأهالى تبعن الرفاص وقد علا عويلهن، بينما أطلق رجالهم أعيرة نارية على شرف ملوكهم القدماء ـ وبعض الشامتين يقول إن العويل كن بسبب ضياع مورد رزق سهل لهن، وفيما بعد فكت

أربطة بعض المومياوات ليتمكن علماء الآثار من دراسة ملامح أشهر فراعنة مصر، وكانت رأس سيتى الأول أحسن الرؤوس حالاً،

«رأس ملك حقيقى رائعة وكانت على شفتيه ابتسامة رقيقة لا تخطئها العين، وكانت عيناه نصف مغلقتين، تشعان من تحت الجفون، وشفافتين ثابتتين فى محجريهما كما كانا منذ تحنيط الجثة» وربما شهد بلزونى ذلك لأسعده إلى أقصى درجة أن يرى هذا الملك - الذى كان اكتشاف مقبرته أهم إنجازات بلزونى - قد وجدت جثته لتشاهدها الأجيال القادمة.

اضطر ماسبيرو بعد استلام جثث الفراعنه إلى مضاعفة الاحتياطيات؛ لذلك عزز الحراسة على المتحف ووضع ضوابط لمنع تهريب الآثار والإتجار فيها أو بيعها لمندوبى المتاحف الأجنبية، لكن ذلك لم يكف لردع أمناء المتاحف الأوروبية والأمريكية عن البحث عن قطع أثرية مزيدة لعرضها فى أروقة المتاحف؛ لذلك انتشعت السوق السوداء لتجارة الآثار إشباعاً لرغبة العملاء.

كان «واليس بادج» واحداً من أشد مسئولى جمع الآثار المتخفية جشعاً فى القرن التاسع عشر، هذا الرجل بدأ حياته الوظيفية الطويلة مساعداً لأمين جناح الآثار المصرية بالمتحف البريطانى، وكان دائم السفر إلى مصر والسودان والعراق لشراء آثار المتحف البريطانى، كذلك كان من مكتشفى الآثار والكتاب النابهين، وكانت وسائله فى جمع الآثار فجة غير مستساغة، وكان ذلك مما أسخط عليه كرومر وماسبيرو، وكذلك الإنجليز والفرنسيين من موظفى الحكومتين - وهذه قائمة طويلة تمثل النظرة التطورية المتعلقة إلى الآثار المصرية، لكن بادج لم يعبأ بذلك كله بدعوى ولائه للمتحف البريطانى وأهدافه الكبيرة، هذا السائح العنيد زار مصر للمرة الأولى سنة ١٨٨٦ فى رحلة هدفها جمع آثار لمتحفه، واستعد للرحلة بجمع معلومات عن الآثار المصرية وأسعارها السوقية، استقاها من «صمويل بيرش» كبير أمناء الآثار الشرقية بالمتحف البريطانى، وكان بيرش قد اكتسب شهرة كبيرة فى المصريات رغم أنه لم يزر مصر قط، تسلح بادج بالمعلومات التى حصل عليها وحمل معه خمسين جنيهاً استرلينياً وحضر إلى

مصر لأداء المهمة ، لكن السير إيفيلين بارنج (لورد كرومر) استقبله بفتور لأنه كان ضيق الصدر بسبب عدم رضاه عن أساليب الأثريين الإنجليز فى جمعها، لكن بادج العنيد لم يهتز وصمم على تحقيق أغراضه بأى طريقة ولو عن طريق مهربى الآثار.

أنشأ بادج لنفسه علاقات وطيدة ومفيدة فى الأوساط الرسمية ومع الأهالى بسرعة، فى كل من القاهرة وطيبة، ففتحت له المقابر، وكانت نصف محتوياتها قد نهبت بالفعل، ووجد الرجل أن كثيراً من آثارها الجميلة «اختفى بطريقة غامضة»، لكنه رغم ذلك وفق فى الحصول على بعض القطع الأثرية النادرة، والتحق به فى أسوان للتشجيع والمعاونة مجموعة من كبار رجال القوات المسلحة البريطانية، وكانت الشركات الهندسية الملكية قد جندت للمساهمة فى الحفائر ونقل المكتشفات وبالأخص التماثيل الضخمة، وضمن ما جمعه بادج ثمانمائة جمجمة على فترات لكى يرسلها إلى طبيب فى كمبريدج تخصص فى فحص الجماجم الأثرية، فكوّمها فى أحد أركان كوخه حتى يتسنى له تغليفها، وحدث أن بنات عرس كانت تتسلل وتهاجم هذا الركن، وأفلحت بالفعل فى سرقة عشرات منها، ولم يجد بادج وسيلة للإفلات من الجمرك إلا بادعاء أنها «فتات عظام للتسميد». ويقول بادج «عندما تعاملت مع الجمارك، وجدت مساومتهم سهلة باستخدام هذه التسمية».

علا قدر بادج بين جامعى التحف عندما حذر مفتش الأهالى المقيم منه الأهالى باعتباره عميلاً ثرياً ذا أساليب ملتوية (فكأنه أفاده من حيث أراد أن يحد نشاطه)، أدى هذا التحذير طبعاً إلى نتيجة عكسية فأصبح بادج قبلة التجار المحليين يعرضون عليه الآثار من كل لون سراً فى كوخه عندما يأتى المساء، والطريف أن المتحف البريطانى نفسه قد علا فى أنظارهم لدرجة أنهم أبدوا استعدادهم لتسليم التحف وتأجيل الدفع حتى يعود المندوب إلى لندن فيرسل لهم الثمن من هناك، وكثير من الآثار الجميلة التى حصل عليها توصل إليها بمعونة القنصلية البريطانية فى طيبة التى عرفته على عائلة عبد الرسول. وكانت مكافأته علي التعارف تزويده بالخرائط التى استخدمها المختصون من

قبل فى استخراج كنز الدير البحرى الذى سبق الإشارة إليه، وعندما أنهى رحلته كان قد جمع أربعة وعشرين صندوقاً حاوية لمختلف التحف الأثرية، كل هذه التحف شحنها إلى إنجلترا رغم اعتراض اللورد كرومر وأمناء المتحف المصرى، وقد نجح فى تحديهم بهذا الشكل لأنه وضع الشحنة تحت رعاية البحرية البريطانية، وكان رأى رجال البحرية نفسه رأى بادج الذى ينظر إلى تجارة الأهالى فى الآثار باعتبارها عملاً مبرراً ومعقولاً لكسب العيش، واستحق بادج بذلك التقريظ الذى حظى به من المتحف سنة ١٨٨٧ مكافأة له على «نشاطه».

قام بادج بزيارة مصر مرة ثانية، وهذه المرة طلبت مصلحة الآثار وضعه تحت رقابة الأمن العام، لكن ذلك لم يؤثر فى بادج فقد كان يتقن أساليب الإفلات من الرقابة، ومما يحكى فى هذا الصدد أن صاحبنا اشترى من رجل فرنسى فى أخميم قبطية، وتمت الصفقة بهدوء (تحت سمع وبصر الرقابة)، ذلك بأن الفرنسى أولم وليمة للرقباء أنفسهم، تحين الرجلان أثناءهما فرصة فانفردا معاً وأتما الصفقة.

صادفت بادج فى الأقصر بعض المشاكل، فقد صحبه بعض التجار فى ظلام الليل إلى مقبرة فى البر الغربى وجدها تحتوى على برديات مهمة، منها واحدة هائلة طولها ٧٨ قدماً فيها النص الكامل لكتاب الموتى، ووجد أنها تخص الرجل المرموق «آنى: كاتب الملك والمشرف على قرابين كل الألهة وخازن غلال آلهة أبيدوس وكاتب قرابين آلهة طيبة» سجل بادج بعناية ما هو موجود على ختم البردية ثم فك جزءاً صغيراً من البردية باحتراس فوجد ما بهره لدرجة أنه كتب يقول «لقد ذهلت لروعة الصور البشرية والحيوانية المصورة وجمال ألوانها حتى بدت لى كأنها حية» وكانت معها (كما ذكرنا) برديات أخرى من المقبرة نفسها فتحفظ بادج على ذلك كله وقام بتعبئته فى صناديق أخفاها فى مكان أمين.

بعد عودته بساعات جلس مع التاجر الذى صحبه لمخبأ البرديات وشرعا فى تناول القهوة، وفجأة داهمتهما الشرطة ووجد بادج نفسه رهن الاعتقال، كانت الشرطة قد رصدت عيوناً على بيوت تجار الأقصر جميعاً، بإيعاز من «يوجن جرييبو» مدير الآثار الذى خلف ماسبيرو، والمح جاسوس جرييو الذى أتى بنبأ

الاعتقال إلى أن سفينته قد جنحت على الشاطئ الرملى بعيداً عن قنا بنحو إثنى عشر ميلاً، وأحاط بادج علماً بأن ريس هذه المركب تصادف أن كان عرس ابنته فى اليوم نفسه، ومن ثم فإن المركب لن تعوم مرة أخرى (قبل انقضاء العرس)، وحاول جريبو أن يعثر على ركوبة تقلة إلى الأقصر فلم يجد حميراً، إذ كان الأهالى قد قاموا بتهريبها إلى الحقول لعدم رغبتهم فى تأجيرها.

لم يمض على ذلك إلا قليلاً حتى بلغهم خبر تعويم السفينة وأن السيد جريبو ينتظر أن يصل بين لحظة وأخرى، فقام مدير شرطة المدينة بإغلاق بيوت التجار كافة حتى البيت المرتكز على جدار فندق الأقصر، وكان البيت مخبأ مقتنيات بادج الأثرية، وأراد التجار أن يبعدوا الحراس فدعوهم للسمر وشرب البراندى المسكر، لكن الحراس رفضوا بحزم ترك مواقعهم، ترك التجار الحراس وما هم فيه وتحولوا إلى أسلوب آخر، وكانت الخطة تتلخص فى إرسالهم فريقاً من العمال بادعاء أنهم أتوا لفلاحة الحديقة فدخلوها عند المغرب، ولما كان الجدار المرتكز عليه البيت سميكاً - حوالى قدمين - فقد قاموا بحفر سرداب تحته أوصلهم إلى بدروم البيت المخزون فيه التحف، وأعجب بادج بأدائهم فقال «لما راقبت عملهم أيقنت أن هؤلاء الجنائنية محترفو السطو على البيوت، وأن لهم باعاً طويلاً».

تمت العملية كلها فى تكتم دون إزعاج الحراس المتخذين أماكنهم فوق سطح البيت، ذلك لأن التجار أولموا للحراس وليمة دسمة، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تهريب الآثار عن طريق السرداب، ويفتخر بادج بذلك: «بهذه الوسيلة أنقذنا بردية آنى، وباقى ما اشتريته من آثار، أنقذناه من براثن موظفى مصلحة الآثار، وعمت الأقصر الأفراح» لا يمكننا التشهير بما فعله بادج ولا توجيه اللوم إليه لأنه لجأ لهذه الوسيلة، وللحق فقد كان الموظفون تحت إمرة جريبو أنفسهم يبيعون ما يجمعه رئيسهم وهم على ظهر الرفاص للمشترين المحليين ويشاطرونهم الشراب، بينما رئيسهم يتناول عشاءه غافلاً عما يفعلون، وفى القاهرة وبمنتهى الثبات والبرود طلب بادج من جهاز الشرطة نفسه معاونته فى نقل المقتنيات (لأنهم طبعاً

يجهلون ما تحتويه الصناديق!)، وفى اليوم نفسه كانت الرسالة الأثرية (برديات وألواح وخلافها) قد شحنت إلى إنجلترا ضمن الحمولات الحربية الرسمية.

لم يخرج بادج فى تصرفاته عن روح العصر الذى يعيش فيه، فقد كان كل موظفو المتاحف مثله، وكان شديد الاحتقار لهيئة الآثار والعاملين بها، ورغم أنه كان على علاقة لا بأس بها بماسبيرو، ورغم تعاونه - أحياناً - مع متحف الآثار، فقد آمن أن تعاونه مع التجار كان أجدى عليه وقد انتقدته مجلة Egyptian Gazette لأنه «معروف بطرقه الملتوية فى الحصول على الآثار لمتحفه(المتحف البريطانى)» وكان التكتيك الذى التزم به عدم بخس السعر (أى أن يشترى بسعر معقول)؛ وكان كثير الانفاق على الشراء وكان يحرض التجار المحليين على الإغارة على الجبانات الخاصة بالفترة قبل التاريخية مرة أخرى بعد انتهاء الحفائر العلمية هناك، ويقول أنه حصل على المخطوطات القبطية «بعد مداولات كثيرة أثناء تناول القهوة أو المسكرات» وكان سبباً فى ثراء المتحف البريطانى بالتراث القبطى بشكل يحسده عليه باقى متاحف أوروبا.

فى الوقت الذى كانت فيه مصلحة الآثار الممثلة للشرعية تحاول فيه أن تثبت أقدامها وتشب عن الطوق، كان بادج يمثل عدم الشرعية والالتواء والخداع وكل التكتيكات المنفرة للحصول على الآثار، وكان بادج يهوى نزح المكتشفات بالجملة لأنه كان موقناً أن تصريفها سهل: لقد كان يحاول حماية مصر القديمة! وقد كان ضمن ما كتبه: «كان كبار لصوص المقابر ومحطمو المومياوات المصريون أنفسهم، والهجمة على هواة الآثار تصرف طائش، وما يوجه لهم من لوم لا محل له... إذا رفض أحد الأثريين الشراء فغيره سوف يشترى، فإن لم يجد الأهالى مشترين البته فسوف يحطمون المومياوات ويستخدمونها وقوداً».

ومن مقولات بادج المنطقية الطلية: «مهما وجه اللائمون اللوم لمن يخرج آثاراً من مصر، فإن العقلاء لابد أن يعترفوا بأن المومياء فى المتحف البريطانى ستكون فرصتها من العناية والصيانة أضعاف فرصتها فيما لو تركت فى مقبرتها ملكية كانت أو عادية.

وبعد وصف مستفيض للمصير الرهيب الذى ينتظر المومياوات يعود فيقول: «كان المصرى يبتهل - دائماً - لإبعاد الشر عن نفسه، كما يستقى مما هو مكتوب على التمائم التى يدفنونها معهم، وفى المتحف البريطانى فسوف يحفظ بعيداً عن الشرور» ليس هذا فقط ، وإنما يدعى بادج أن «المرحوم» صاحب المومياء سوف يعلو ذكره ويشتهر أمره حيث ستتوفر له الحراسة، وبطاقات التعريف، وسيسهل تصويره، وإصدار بطاقات بريدية عليها صورته، كان بادج يفاخر بأنه يدعم المصريين القدماء أنفسهم، ويباهى بنفسه مدعياً أن القانون الأخلاقى فى صفه وأن نهب مواقع الآثار المصرية عمل مشروع تماماً وحضارى... بشرط ترك بعض الآثار للمصريين للمشاهدة والفرجة أو للبحث.

١٩ـ السفينة النيلية
وما بها من آثار

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، كانت مصر قد تبوأت مكانها بين المشاتى العالمية، فقد أصبح ميسوراً لطبقة الأثرياء ومحدودى الدخل على السواء أن يسافروا إليها بعدتطور السفن البخارية، وكان هناك خط منتظم للملاحة بين إيطاليا والإسكندرية يقطع المسافة فى ثلاثة أيام ونصف، وكانت أيام الرومان تقطع المسافة فى ستة أيام على الأقل، ومنذ سنة ١٨٧٢ صار السفر من الأسكندرية إلى القاهرة ميسوراً بالقطار، ومنها كان يسهل تأجير رفاص أو سفينة بخارية صغيرة إلى فيلة وأسوان وبالعكس،، فأصبح بالإمكان تغطية زيارة لأهم الآثار والمعالم السياحية فى مصر فى مدة تقع بين ثلاثة أسابيع والشهر على أكثر تقدير، علماً بأن الدهبيات التى كانت شائعة قبل ذلك كانت تؤدى الرحلة نفسها فى ثلاثة أشهر ولا تتناسب - عادة - إلا مع الفنانين ومن فى حكمهم ممن يحتاجون لوقت كاف للتوقف عند كل أثر هام للتصوير أو للدراسة، وأصبح من الممكن للمرفهين الاتصال بشركات الرحلات مثل شركة كوك للتوكيلات الملاحية لتنظيم رحلة مريحة لهم إلى مصر، وكانت هذه الشركات قد وصلت إلى مستوى يمكنها من تنظيم رحلات آمنة إلى أقصى أجزاء المعمورة.

رغم ذلك ظل هناك من يعتبر زيارة مصر هى «ركوب حمار، وركوب زورق وكلها مشقة وتعب» حسب ما قال عالم الآثار «جين أمبير» بسخريته اللاذعة، لذلك كان البعض ما زال عند حسن ظنه بالدهبيات من أجل الراحة والتسلية والتثقيف، ومنهم من كان يفضل المراكب الكبيرة، وقد علمنا من قبل أن بلزونى منذ خمسين سنة مضت صحب صديقه اللورد بلمور فى رحلة بحرية على شكل قافلة، مثل هؤلاء كان يمكنهم إذا تيسر لهم الوقت أن يتوغلوا جنوباً حتى أبى سمبل، وأغرى مناخ مصر الجاف بعض الناس بالإقامة الطويلة فى مصر، أو التردد عليها باستمرار فى فصل الشتاء، خصوصاً من كانت صحته تتأثر بالرطوبة أو يشعر بآلام فى الرئتين، وكثيرون كانوا ينتهزون الفرصة للعيش فترة فى الصحراء.

من الذين زاروا مصر وأقاموا فيها فترة طويلة سيدة فاضلة قوية العزيمة أسمها الليدى «دوف جوردن» هذه السيدة أقامت فى مصر سبع سنوات متتالية (١٨٦٣- ١٨٦٩) واختارت لسكنها مدينة الأقصر حيث أقامت فى دار متواضعة فى بيت فوق سطح معبد أثرى مجاور للنيل اشتهر باسم «البيت الفرنسى»، وكانت هذه السيدة ترتاد باستمرار المناطق المجاورة وتتباسط مع الجميع غنياً كان أم فقيراً، أوجيهاً كان أم وضيعاً. لذلك أحبها الجميع، وقد أمكنها أن تتأقلم مع طباع الأهالى لدرجة أدهشت معاصريها وطوال مدة إقامتها فى مصر كان طوفان رسائلها إلى عائلتها بانجلترا لا ينقطع، وقد جمعت هذه الرسائل ونشرت فى مجلدين لقيا رواجاً كبيراً، وكان أسلوب السيدة فى الكتابة يمتاز بالرشاقة والحيوية، رغم ما فيه من قسوة فى مهاجمة بعض أحوال المجتمع الذى تعيش فيه، وقد عبرت الليدى فى رسائلها عن شجبها لحكومة الوالى بسبب سوء معاملتها للأهالى، واتباعها لأساليب القمع والترهيب معهم، مما كان يؤدى إلى إثارتهم وتبرمهم فى كثير من الأحوال، لكن أسلوبها كان أكثر تشويقاً عندما تتحدث عن عادات الأهالى فى أمورهم الجارية مثل الزراعة والحصاد أو الأزمات التى تصيبهم.. أو عن السياح الذين استرعوا انتباهها.

كانت كتابات السيدة الفاضلة عن الأهالى فى البيئة المصرية التى لم يعتدها الأوروبيون تسبب الاندهاش لقرائها، وكانت تنظر للآثار باعتبارها جزءاً لا

ينفصل عن معالم البيئة المصرية، وتذكر السيدة أنها التقت بأحد رؤساء العمال المسنين الذين اشتغلوا مع بلزونى، وزارت (ربما معه؟) مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك، وفى إحدى الرسائل التى أرسلتها لزوجها ـ وشكرها فيما بعد على هديتها له ـ ذكرت له أنها تهديه تمثال سبع أثرى واعترفت فى الرسالة: «لقد سرقته من أحد المعابد لأجلك، فقد وجدتهم يستخدمونه موطئاً لأقدامهم كى يعتلوا ظهور حميرهم... وقد سرق فلاح لأجلى خاتماً فضياً جميلاً التقطه من بين أنقاض الحفائر وقال لى «لا تخطرى به مرييت، أنت أولى به من مرييت لأنه (إذا أخذه) سيبيعه للفرنسيين، ويستولى على ثمنه، ولو لم أسرقه أنا لسرقه هو. لذلك أخذت الخاتم لنفسى بكل هدوء».

سجلت القنصلية الأمريكية سنة ١٨٧٠ أسماء ثلاثمائة سائح ويبدو أن الذى أغراهم كى يزوروا مصر كتاب ظهر فى ذلك الوقت للكاتب ذائع الصيت مارك توين بعنوان «الأبرياء فى الخارج Innocents Abroad» كتب فيه طرفاً عن رحلاته بالخارج بأسلوبه الممتع الساخر المعروف، وقد زار مصر زيارة سريعة لم تتح له سوى زيارة الأهرام وأبى الهول عاد على أثرها إلى بلاده، وأعجبه فى مصر خصوبتها «والأرض المنبسطة الممتدة بلا نهاية، ولون الخضرة التى تكسوها لانتشار محاصيل الغلال على مدى البصر» وفى نهاية زيارته للأهرام حاول واحد من مرافقيه كسر شظية من وجه أبى الهول كتذكار. لكن مارك توين لم يفعل، فقد اهتم بما رآه من العبث بالمومياوات، ووجه اللوم للمصريين لإهمالهم شأنها حتى أنه شاهدهم يوقدون بها قزانات القطارات، وقبل ذلك بسبعة عشر عاماً زار مصر الروائى الفرنسى المعروف جوستاف فلوبير الذى وصل فى رحلته إلى الصعيد، لكنه كان أشد قسوة فى نقده لأهالى إدفو لأنه رآهم قد حولوا المعبد إلى مبولة، كما لم ينس أن يبث شكواه لكثرة القمل.

أحدث افتتاح قناة السويس تغيراً نوعياً فى معلومات الإنجليز وعلاقتهم بمصر، فقد أصبحت مصر بعد تشغيل القناة محطة رئيسية يتوقف فيها موظفو الإمبراطورية البريطانية المتوجهين للعمل فى الهند ـ لقضاء بعض الوقت قبل استئناف السفر، وكانت قبلة هؤلاء الإقامة في فندق شبرد المعروف، هذا الفندق

نزل فيه مارك توين ووصفه وصفاً لاذعاً فقال «إنه أسوأ فندق على وجه الأرض، فيما عدا واحد آخر اضطرتنى الظروف أن أنزل فيه فى أمريكا «وكان الفندق يرتب رحلات للنزلاء لزيارة الأهرام ويوفر للسياح وسائل الترف الممكنة - رغم تعليقات مارك توين اللاذعة، وكان نزلاء الفندق تقريباً من موظفى الحكومة البريطانية المتجهة للهند، والنصف الباقى إما من الوافدين لقضاء فصل الشتاء بمصر وإما من السياح العابرين.

كانت آميليا إدواردز من ذلك النوع الذى قلما نجده - الآن - من الروائيين الرومنطيقيين من أصحاب الإنتاج الغزير السيال - تعويضاً عن عدم وجود راديو أو تليفزيون فى ذلك الوقت، وخلال فترة حياتها التى استمرت واحداً وستين عاماً كتبت السيدة آميليا عدداً لا يحصى من المقالات والكتب والمذكرات والتعليقات والمحاضرات، هذه السيدة كان أبوها طبيباً، ممن رافقوا ولنجتون فى حملته القارية (إشارة إلى موقعة واترلو)، وقد ظهرت مواهبها منذ الطفولة. وقد بدأت موهبتها الشعرية تظهر فى السابعة من عمرها، وعندما شبت عن الطوق احترفت الصحافة، وكانت تراسل بعض الصحف الدورية مثل Chamber's Journal وSaturday Review، وألفت السيدة الفاضلة فيما بين سنتى ١٨٥٥ - ١٨٨٥ ثمانى روايات، وبعض الكتب الشعبية التى لاقت رواجاً كبيراً فى الفن والتاريخ، ولقد كانت أعمالها هذه تدر عليها ربحاً وفيراً يسمح لها بحياة مترفة وسهلت لها وفرة مواردها المالية سبل القيام برحلات ترفيهية متأنية للمتعة ولتجد مادة صالحة للكتابة، وكان ذلك مما يعتبره الجمهور فى ذلك الوقت (منذ قرن مضى) حقاً خالصاً للمؤلف الناجح.

كان اهتمام السيدة إدواردز بالتاريخ والمدنيات القديمة ما دفعها لزيارة سوريا ومصر زيارة طويلة (١٨٧٣ - ١٨٧٤)، وكانت النتيجة حدوث تحول فى حياتها أدى بها إلى تأليف أجمل كتبها المنشورة وهو كتاب «ألف ميل فى أعالى النيل A Thousand Miles up the Nile نشر بعد انتهاء زيارتها للمنطقة بثلاث سنوات، وفيه تظهر خصائص أسلوبها الحار بكل وضوح، وكانت رحلتها فى النيل رحلة مترفة نموذجية بالنسبة لأغنياء ذلك العصر، كانت رحلتها ضمن جماعة

سياحية إستأجرت دهبيتين لتقلهم فى رحلة بطيئة حتى الشلال الثانى، إحداهما كان فيها خمسة رجال والثانية خصصت للسيدتين المرافقتين ومنهما السيدة إدواردز، ووصفت الكاتبة الفوج بأنه نموذج «لعابرى النيل صغاراً وكباراً، مهذبين وغير مهذبين، مثقفين وغير مثقفين» (أى أنهم أثرياء لكن غير متجانسين)، لكن الجميع كانوا كأقرانهم فى ذلك العصر - العصر الفيكتورى - يشعرون بتفوق حضارة مجتمعهم الإنجليزى على غيره من المجتمعات فى سلوكياته وقيمه وعقائده.. ولم تشذ نظرتهم للمصريين عن ذلك، استغلت السيدة إدواردز رحلتها أحسن استغلال فى تأليف كتابها هذا، فجاء الكتاب فى كثير من الأحيان أجزائه معبراً مفعماً بالإحساسات، وقد نقلت فيه للقراء صورة حية لمشهد النيل الممتد الذى لا يكاد يتغير ووصفت الحياة السياحية منذ قرن مضى وصفاً ممتعاً. وكتاب الألف ميل هذا كتاب تثقيفى بالدرجة الأولى، لكنه كان بعيداً كل البعد عن الجفاف الذى يميزمثل هذا النوع من الكتب عادة، لقد كان دقيقاً فى سرد الحقائق، وقد راجع ذلك بيرش الموظف بالمتحف البريطانى (سبق ذكره) كما راجعه صاحبنا بادج (كان يرتاب فى صدقها)، لكن الكتاب جاء مسلياً، بثت فيه عواطفها الجياشة وإحساساتها براعة، من الأمثلة على ذلك وصفها لبهو الكرنك الكبير، فهى عندما شاهدته تدفق منها النثر الفنى فى أجمل صوره، واستخدمت تشبيهات بليغة خصوصاً عندما أحست بوجه الشبه بين الأساطين والنخل: ... الأشجار الضخمة تحتاج لكى تزدهر إلى ثلاثة آلاف سنة، لكنها فى دأبها هذا لا تثير فينا شفقة وتحمل فى طياتها غموضاً مثل العمال (تقصد بناة الأساطين) فمنذ ستة آلاف سنة لم يكسر بها جذر (الأشجار)، ولم ترو بدماء الملايين ودموعهم (تلميح لتسخير العمال)، وأوراقها لا تعرف من الأصوات إلا تغريد الطيور، ويتخللها فى الليل صفير الريح وهو يعصف على جبال كلاديوس! لكن.. الأنفاس التى تردد فى أبهاء الكرنك المزخرفة ما هى إلا صدى لأنفاس من ماتوا فى المحجر أو خلف المجداف أو تحت عجلات الطغاة.

وعندما شاهدت معابد فيلة الجميلة من فوق الذهبية عبرت عن إحساسها بما تراه، وانطباعها لمرآها:

«روعة الاقتراب من النهر نحو الجزيرة لا تعادله روعة أخرى، إنها تبدو من فوق المركب كما لو كانت أشجارها وصفوف أعمدتها وبواباتها البرجية تخرج من البحر كالأطياف، الجزيرة تحيط بها الصخور من جانبيها، والجبال الأرجوانية تسد الطريق، وكلما زادت السفينة قرباً كلما زادت البروج علواً حتى تكاد تصل إلى السماء، إنها لا تهرم ولا تتداعى، ولكن تظل متماسكة صلدة كاملة، وهنا يحس الإنسان بألا شىء يتغير، فلو أن صوت أغنية فرعونية انطلق فى هذا السكون، أو لو موكباً من مواكب الكهنة فى عباداتهم البيضاء سار رافعاً زورق الإله آمون يطوفون به بين النخيل والأبراج... لما شعرنا بالعجب».

ثم استؤنفت الرحلة النيلية حتى معبد أبى سنبل حسب البرنامج. ومكث الفوج فيها ثمانية عشر عاماً زاروا خلالها الشلال الثانى، تسلقوا جبل أبى صير كما فعل بلزونى من قبل، وشاهدوا أسماء من سبقوهم محفورة على قمته . ومنهم بلزونى نفسه، أما المجموعة فاحتفت بالمناسبة بطريقتها الخاصة، فقد شربوا «عصير الليمون المثلج» المعبأ فى قربة من جلد الماعز.

لكن الذى أسرهم وبهرهم كان أبو سنبل نفسه، فكانت آميليا تصحو كل صباح لتشهد منظر شروق الشمس ومعجزة نور الصباح يشمل المعبد، فهى تصحوا مبكرة: «كل صباح أرى إخوتنا يُبعثون أحياء، ثم ينقلبون تماثيل... وشعرت أنه سيأتى وقت تشرق فيه الشمس، فينفك سحر التعاويذ، فيبعث هؤلاء المردة ويتكلمون».

وبدا لهم أن يفتحوا مقبرة صغيرة فكلفوا بذلك خمسين عاملاً من الأهالى، واستولوا على ما وجدوه فيها، واستمتعوا بتجربة الكشف الأثرى بصورة مباشرة بما فيها من توتر وانفعالات، وفحصوا الصور الجدارية التى ظلت مختفية منذ أحقاب، وساوموا الكاشف على أجر فتح المقبرة حتى قبل أن يحصل هو ورجاله على «ستة جنيهات»، وقدرين من المربى، وصندوقين من السردين، وزجاجة عطر، وصندوق كرات لعب الجولف، ونصف جنيه ذهبى.

كانت زيارة إدواردز لأبى سنبل فى وقت نشاط حركة السياحة فكان يعج بالزائرين، ورصدت فى مكان واحد ما لا يقل عن ثلاث خيام أصحابها منهمكون

فى رسم وتصوير المعبد، وكان سرب من الدهبيات مرصوصاً على الساحل وعلى طول النهر انتشر الزوار وتزاحموا عند المعابد والآثار الكبرى، وكانت بطيبة مراكب كثيرة «تنتشر عليها الألوان الإنجليزية والأمريكية» (تقصد أن غالبية الزوار إنجليز وأمريكيون)، وكان هناك جنسيات أخرى: ألمان وفرنسيون، وتجار الآثار بالأقصر يسارعون ببضاعتهم إلى كل مركب ترسو فى المكان، وكانوا: «يطاردوننا وتعقبوننا أينما سرنا، وكان بين الأهالى بعض الرجال العبوسين يلبسون عباءات طويلة وعمائم كبيرة.. هؤلاء اعتلوا سطح السفينة فاحتلوه وأقاموا فيه.. كل الأسبوعين.. وظلوا هكذا وعليهم سيماء الوقار والصبر، حتى إذا رأونا هبوا واقفين لتحيتنا.. ثم يخرجون من مناطقهم وفى جعبتهم أكياساً صغيرة بها جعارين وتماثيل صغيرة.. هؤلاء السادة كانوا خليطاً من العريان والقبط... وكلهم مهذبون مجاملون..».

مما أدهش السيدة إدواردز ما لمسته من تغير سلوك الزوار حتى هى نفسها عند رؤية «الأنتيكات»، واستبشعت مظاهر العبث والتخريب الذى رأته فى المقابر فى سقارة، بعد زوال الصدمة كتبت تقول:

«سرعان ما تماسكنا بعد رؤية هذه المناظر» (تقصد آثار التخريب) «وتعودنا عليها، ثم اندمجنا فى التنقيب - والبحث بين التماثيل التى يعلوها التراب دون أن نشعر بأى حرج، حتى صرنا مثل محترفى السطو على المقابر الذين احترفوا الاستيلاء على الجثث المحنطة، هذه هى التجربة التى مررنا بها.. ومن يدرى لعلنا عندما نستعرضها فيما بعد يصيبنا العجب وربما الندم.. وهذه الخشونة من الزوار وجدناها متفشية على مستوى العالم(تقصد أن كل الجنسيات كذلك).. كان المسيطر على نفوس الجميع السطو على الآثار والاستحواذ عليها.. تملكنى هذا الإحساس لدرجة أننى أعتقد أنه لو تكررت الظروف نفسها فسوف أتصرف بالطريقة نفسها».

كانت تجارة الآثار فى طيبة تدر على الأهالى ربحاً جزيلاً - سواء أكانت أصلية أم مقلدة؟ وكانت أحسن «الأنتيكات» (تحب المؤلفة هذه الكلمة وتستعملها بكثرة - المترجم) يدخرها التجار ليبيعوها للسياح الأثرياء أو لمندوبى المتاحف، لكن الآثار

المقلدة كانت رائجة - أيضاً - ولها سوق كبير، وكانت هناك ورش تخصصت فى تقليد الآثار لا يعجزها إنتاج أى شىء من لوحات منقوشة إلى تماثيل مرمرية صغيرة إلى جعارين، وكانت الجعارين تعطى مظهراً يبدو أثرياً بتآكيلها بكثرة للديكة الرومية فتنزل مع نواتج الهضم «ولها مظهر وقور (أى للمشترى» ولكن التجارة كان لها منغصاتها لدى الأهالى، فكان الذين يحفرون بدون تراخيص عرضه لبطش المحافظ، ومع ذلك لم يكفوا عن الحفر كما كان يفعل أسلافهم منذ القدم، كذلك كما كانو أيام بلزونى يسكنون بين المقابر - يسوقون الحمير وينقلون المياه صباحاً، ويحفرون القبور ليلاً، كل مصرى بالمدينة كان معه «أنتيكات» جاهزة للبيع يستوى فى ذلك الموظف الوقور المعمم أو المواطن الفقير، راجت الآثار فى الأقصر إذ نشط العمل فى الحفر والتهريب أو فى التزييف فأصبحت مثل خلية النحل فى تجارة الآثار.

كان تجار الآثار المقلدة لا يخشون إلاالسائحين الذين قد يكتشفون التزييف، وتحدثنا السيدة إدواردز أنها مع إحدى رفيقاتها ألفيا نفسيهما بالصدفة فى إحدى ورش التزييف، دخلت ظناً منها أنها دار القنصلية البريطانية هناك، فلما دخلت وجدت نفسها فى غرفة عادية بها ثلاث مناضد، عليها كل ما يخطر على البال من آثار خفيفة (مقلدة): جعران وتمائم وتماثيل جنائزية صغيرة... وكانت فى مراحل مختلفة من التشطيب، وكانت أدوات العمل متناثرة حول القطع كما كان هناك صندوق تابوت (أثرى) لحفظ الخشب، ودخل عليهما عربي مهندم وطلب إليهما ثائراً أن يغادرا فوراً، وأن القنصلية انتقلت إلى مكان آخر، وتقول السيدة إدواردز: «لقد رأيت هذا العربى المهندم نفسه بعد يومين، لكنه زاغ منى فوراً واختفى فى مكان ما».

فى ذلك الوقت كان هناك نشاط لمندوبى مصلحة الآثار فى الحفر والتنقيب ولكن على نطاق محدود، وكانت المومياوات التى يكشف عنها ترسل فى صناديقها مغلقة إلى متحف بولاق، وقد حظيت مسز إدواردز ذات مرة بمشاهدة عملية كشف إحدى المومياوات، فتقص علينا أنه توجهت مع مجموعتها فى وقت مبكر من أحد الأيام إلى الرمسيوم فقد عبروا النهر فى زوارق ثم امتطوا ظهور الحمير

وساروا فى السهل الرملى نحو المعبد، وكان إفطارهم فوق ظهور الحمير حتى وصلوا إلى بغيتهم، وتقول السيدة إن صباحهم كان مشرقاً جميلاً، وكان منظر الشعير يغطى الوادى بالخضرة على مدى أميال مبهراً، وكان تمثالا ممنون الفارهان يتوهجان تحت أشعة الشمس المشرقة، والزهور البرية تتراءى وسط الشعير فتعطى مظهراً خلاباً، باختصار كانت الرحلة رائعة لا يمكن إن تنسى، وكان أكثر الأشياء إثارة في هذه الرحلة إكتشاف تابوت حجرى منقوش فى نفس لحظة وصولهم نفسها، وقد وجدت هذه المومياء سليمة فى قاع عميق جدرانه مبنية بالطوب، ووجدوا المحافظ بنفسه هناك يتفقد أعمال الحفر، فلما رأى السيدة إدواردز دعاها لتناول الغذاء معه فى مقبرة قريبة، يستخدمونها كمخزن مؤقت لجمع نواتج الحفر، وتكونت الوجبة من لبن رايب (لبن حامض معروف بالصعيد . المترجم) ثم «صينية بها كعك لا يمكن أن يكون هناك أردأ منه» فأكلوا مع رائحة وعفار الأسمدة (القصد عفار الحفر).

أحست السيدة إدواردز بالعطش والرغبة فى تناول المرطبات، والحق أن المجموعة أمتعت نفسها بوجبة أرستقراطية داخل الرمسيوم، حيث فرشت لهم الحصر بين أساطين المعبد، وأخذ الخدم يروحون عليهم ويغدون، بينما كانت بالقرب منهم جاموسة تحلب لهم لبناً شهياً سائغاً شرابه، تفوح منه رائحة زكية وكان «العريان السمر فى الخرق البالية» يطوفون عليهم ببضاعتهم المزجاة: جعلان مقلدة وكسرات من توابيت الموتى وتماثيل مزيفة، وكانوا كالعهد بهم طوال الرحلة مؤدبون (إلى حد ما)، وكانوا دائمى التحية والمديح لمن يرونهم رسل المدينة الذين كانوا حريصين على الظهور بالمستوى اللائق رغم اغترابهم عن أوطانهم.

كان وصف حياة السياح منذ قرن ينساب فى صفحات كتاب السيدة إدواردز تتكلم عن سياحتها، والقارئ للكتاب يجد نفسه هائماً بين البهجة والثقافة والتنوير والدهشة، وما أن وطأت قدماها أرض الوطن (إنجلترا) حتى بدأت تنشط نشاطاً غير معتاد، فأخذت تلقى المحاضرات فى النوادى والجمعيات، وتكتب المقال تلو المقال عن تجربتها السياحية فى مصر، وشجبت السيدة إدواردز ما شاهدته من نهب وتهريب للآثار، وتخريب للمعابد والمقابر الفرعونية، وأبدت

أسفها واستنكارها للفوضى التى تسود عمليات الكشف عن الآثار، ونعت على المستكشفين التزامهم بالتقنيات السليمة فى الحفر والتنقيب، وكان أسفها شديداً لقيام الأهالى بتخريب وتفكيك المعابد الأثرية للاستيلاء على حجارتها.

رغم أن قلم آميليا إدواردز كان سلاحاً فعالاً فى تشكيل رأى عام يقدر مصر القديمة إلا أن الاهتمام بما يتعلق بمصر كان قد أخذ فعلاً فى التبلور بين أوساط المنقبين، فقد أقبل الناس حتى فى الأرياف على شراء أحدث وأهم المونوجرافات عن طيبة، وبيعت عشرات الآلاف من نسخ الروايات التاريخية التى تتكلم عن الفراعنة، وكانت الكتب التى تربط بين مصر القديمة والكتاب المقدس، من أروج الهدايا بين الناس فى أعياد الميلاد وعيد الكريسماس، وانتابت الناس حمى الاهتمام بالفترة قبل التاريخية، ويعود الفضل فى ذلك إلى كل من: «هنريش شليمان» الذى أجرى استكشافاته فى طروادة و «أوستن هنرى لايار» وأقرانه الذين أجروا استكشافاتهم فى وادى النهرين (العراق)، وكان التعليم الكلاسيكى ما زال يميز الشخص المثقف، وكذلك كانت المعلومات الدقيقة عن الكتاب المقدس فى منتهى الأهمية، وكان لمصر فى كل ذلك مكان ملحوظ، وكان كل مثقف ينبهر بالأهرام والمومياوات والأشكال الهيروغليفية، فقبل زمن آميليا إدواردز بكثير، كانت المصريات قد بدأت تسيطر على الجماهير الأوروبية فاهتموا: بالمعمار المصرى والموضات، وبدرجة أقل بالأدب الجاد، ويعود الفضل فى ذلك إلى رجال مثل ويلكنسن ولبسيوس من المثقفين بالإضافة إلى آلاف المؤلفين ذوى الاهتمامات الدينية، لكن للأسف كان كثير من هذا الإنتاج الأدبى مضللاً بدرجة كبيرة، والسبب أن من المستحيل على أى كاتب من العصر الفيكتورى له نظرته الخاصة الضيقة ومبادئه الثقافية (أى القاطعة كالسيف) أن يتفهم البيئة المصرية المعاصرة له بسهولة.. فما بالك بمصر القديمة؟!

على أى حال تحمست آميليا إدواردز للدعوة لاتباع الأساليب العلمية فى الكشوف الأثرية، ولم تكل عن النشاط فى هذا المجال منذ رجوعها إلى إنجلترا حتى وفاتها سنة ١٨٩٢، واستمر فيض مقالاتها على نفس الوتيرة نفسها: «لن يقف تهريب آثار مصر وتخريبها إلا باتباع التقنيات العلمية فى الحفر والتنقيب

والبحث» وشغلها الموضوع لدرجة أنها كرست له كل جهودها وكفت عن الكتابة فى أى موضوع آخر.

كان علماء المصريات المتخصصين فى بريطانيا معنيين كثيراً بما يجرى فى مصر (فى مجال الآثار)، وقد طرحت من قبل سنة ١٨٨٠ فكرة تأسيس جمعية لحماية المبانى القديمة (الأثرية)، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، لذلك قامت آميليا إدواردز فى مارس سنة ١٨٨٢ بتبنى مشروع يرمى إلى تأسيس «صندوق الآثار المصرية» يكون هدفه الإشراف على الكشوف الأثرية على أسس علمية، وسعت لعقد اجتماع تأسيسى يضم شخصيات لها ثقلها فى المصريات منها المتستشرق المعروف «ريجينالد ستيوارت بول» والطبيب السير «أرازموس ويلسون» الجراح المشهور - الذى مول نقل المسلة التى اشتهرت باسم إبرة كليو باترا من الاسكندرية إلي لندن، وقد بلغت تكاليف نقل المسلة عشرة آلاف جنيه - وهو مبلغ طائل بمقاييس ذلك العصر، واجتمعت الجمعية التأسيسية للمشروع فى المتحف البريطانى وأسفر عن تأسيس «صندوق دعم الاستكشافات (الأثرية) المصرية» برئاسة الراعى الأكبر للمشروع - الطبيب ويلسون، وسكرتارية كل من السيدة إدواردز والسيد بول، وأعلن عن تأسيس الصندوق فى كل الصحف المهمة، واحتوى الإعلان على طلب التبرعات لتمويل الصندوق، مع بيان تفصيلى عن الموقع المزمع استكشافها، وحددت أهداف الصندوق كما يلى: «تنظيم البعثات الكشفية فى مصر، مع العناية ببحث تاريخ وفنون مصر القديمة، وتوضيح ما جاء فى قصص التوراة عن مصر والمصريين» وكان صندوق الكشوف المصرية من أوائل الهيئات التى تقدمت للحصول على تصاريح رسمية بالحفر والتنقيب عن الآثار، وكانت تولى عناية كبيرة للبحوث الجادة، وبهذه الصورة أصبح الصندوق منظمة علمية كشفية قانونية، له الحق فى إصدار مطبوعات عن الآثار، ومبرأ من شبهة النهب والتخريب، والجرى وراء الآثار المظهرية.

كانت الحفائر الأثرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ما زالت تجرى بطريقة عشوائية بعيدة عن الأسلوب العلمى؛ لذلك كان الحفر يؤدى فى كثير من الأحوال إلى تخريب قد يكون واسع المدى، ولم يكن يسبق أعمال الحفر دراسة

ولا تخطيط، وكان الهدف من الكشوف ـ دائماً ـ الحصول على «أكبر كمية فى أقصر وقت» وكانت تقنيات الحفر نفسها متخلفة تؤدى إلى مزيد من الخسائر، وكانت أساليب مرييت وماسبيرو ومن على شاكلتهم ذات أثر مدمر، وقد انتقد «بترى» الإنجليزى هذه الأساليب فى وقت تهيأت فيه رياح التغيير، وعاون على زيادة الوعى بأهمية تغيير أساليب جهود باحثين فى أماكن أخرى، مثل «لابار» فى العراق، و«شيلمان» فى طرواده، وطرح «بسيوس» تقنيات جديدة أخذ بها العلماء الألمان في الحضر والتسجيل، وأدي ذلك إلى تطور فى مفهوم التنقيب الحقلى فى المواقع الأثرية، وأصبح علماً حقيقياً له قواعده وأصوله، وأصبح له أهداف نبيلة، لا مجرد اصطياد للكنوز الأثرية، بذلك نشأ علم الحفائر الحديث،

نود أن نشير من بين رواد المصريات الذين تبنوا أساليب حديثة إلى المحامى الاسكتلندى الشاب «إسكندر هنرى ريند» ذى الطبع الهادئ الوديع، هذا الرجل كان يعانى من متاعب صحية فحضر إلى مصر فى شتاء سنة ١٨٨٥ للعلاج، وفى الشتاء التالى حضر إلى مصر وفى نيته التسلى بالبحث الأثرى، وأمضى موسمين باحثاً عن مقبرة سليمة كى يعاينها ويسجلها بأسلوب منظم لأنه حسب قوله كانت «عناية المستكشفين تتجه ـ دائماً ـ إلى الاستحواذ على الآثار، فلم يعبؤوا بذكر الظروف التى اكتشفت فيها الآثار» (أى بالتسجيل)، ثم يذكر أن ما قام به دروفيتى وسولت من حفائر فى طيبة عشوائى عنيف غير مسئول أدى إلى كثير من التخريب، ولم يترك لغيرهما سوى فرصة ضئيلة للعثور على مقبرة سليمة، وبعد طول عناء وجد ريند مقبرة مناسبة لأن آخر من دفنوا بها لم يقربهم أحد» ورصد «ريند» الموقع بدقة، وسجل خطوات الحفر أولاً بأول، وسجل محتويات المقبرة، وموضع كل شيء وجده فيها، وسجل ما لاحظه من الانتهاك المتكرر للمقبرة. وكشف الغطاء عن آخر من دفن فيها، وحدد أسماءهم التى وجدها مسجلة على البرديات المصاحبة لجثثهم، وأصدر فى النهاية كتاباً عنها تحت عنوان «طيبة: مقابرها وسكانها» وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢.

مما يؤسف له أن ريند مات فى ريعان شبابه فى الثلاثين من عمره أثناء عودته من رحلته الثالثة إلى مصر، ورغم أنه لم يكن أول من كشف عن مقبرة

سليمة إلا أنه يكاد يكون أول من اعتنى بالتسجيل والحفر السليم، ولا نشك أنه لو عاش أكثر لأفاد المصريات كثيراً؛ لأنه كان يتسم فى عمله بالصبر والدقة.

اختار صندوق دعم الكشوف أثرياً سويسرياً كأول وكلائها فى مصر، عقب الغزو البريطانى، هذا العالم هو «هنرى نافيل» أحد تلاميذ لبسيوس النابغين، وأجرى نافيل أول حفائره فى تل المسخوطة بجوار قناة السويس فى منطقة الدلتا، وكان ذلك بناء على تعليمات مشددة من الصندوق بالبعد عن الصعيد وتركيز النشاط الكشفى فى الوجه البحرى والدلتا لأنها منطقة بكر تحوى آثاراً مهمة.

أثارت حفائر نافيل فى المسخوطة اهتماماً شعبياً كبيراً، ذلك لأنه منذ سنوات ترسخ لدى العلماء اعتقادًا خاطئا بوجود مدينتين بناهما الإسرائيليون لرمسيس الثانى، هما «بر رمسيس» و«بيثوم»، وكان هدف نافيل فى الموسم الأول التوصل إلى خيط يربط المدينة بالنصوص التوراتية، وأسفر الحفر عن ظهور أطلال أحد المعابد، وأحد أحياء مدينة قديمة ومجموعة تحصينات ومعسكر حربى، وقدر نافيل أن المدينة بنيت ما بين ١٤٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. وكان ما وجده من آثار مكرساً للإله آتوم لذلك استنتج نافيل أن المدينة نفسها بيثوم أى مدينة آتوم التى تقرأ - أحياناً - بر آتوم (يعنى رأيه أن بى آتوم وبيثوم شىء واحد)، وهلل أمناء الصندوق ونوهوا بالكشف وعملوا له دعاية واسعة لجمع المعونات للاستكشافات، ورغم أن الكثير من علماء المصريات شككوا فى آراء نافيل إلا أن الجمهور أصبح مؤمناً بأن الحفائر الحديثة قد أيدت النصوص التوراتية بدرجة كافية.

كان نافيل مثل الكثيرين من رواد المصريات يمتلك قدرة لا حد لها على العمل الشاق الدءوب، وكان يفضل (مثلهم) اكتشاف الآثار العظيمة والمعابد، وكان ما زال متأثراً بأفكار مرييت وماسبيرو اللذين تدرب معهما، فلم يستطع التخلص - تماماً - من السعى وراء المظهريات، ورغم هذه السلبيات كان له إيجابياته. فقد كان يتميز بذكاء حاد وأفكار بناءة؛ لذلك أمكنه أن يرفع من شأن صندوق دعم الآثار المصرية حتى احتل مكانا بين المنظمات المهتمة بالبحوث الأثرية، وكانت

حفائره التى أجراها فى وادى الطميلات سنتى ١٨٨٥، ١٨٨٦ ثم فى تل بسطة من سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٨٩ مثار اهتمام كثير من الأثريين.

استمر هذا الأثرى الشهير فى العمل لحساب الصندوق حتى سنة ١٩١٣، وكان بينه وبين الأثريين الألمان خصام شديد، ويمكن تلخيص السبب فى أن نافيل ذلك الرجل الضخم اللطيف وتلميذ لبسيوس كان يبغض الطرق التيوتونية (أى الألمانية) التى تلتزم بالأسلوبية المدرسية التى تصر على الوصف التفصيلى والتسجيل على بطاقات التعريف.

ولكن المدرسة الألمانية المتزمتة فى أساليبها الأكاديمية، كان لها أفضال على المصريات فى أواخر القرن التاسع عشر، وتلاميذ هذه المدرسة ليسوا جميعاً من تلاميذ لبسيوس بل من تتلمذ على يد جورج مورتيز إيبرس G.M. Ebers، أستاذ المصريات فى ليبزج، وكان إيبرس الكاتب العظيم فى علوم المصريات، من أعظم المدرسين أيضاً، لكن أهم إنجازاته كان سلسلة من الروايات التاريخية ذات القيمة (النبرة أو الحس) المصرية القديمة، وأشهر كتب هذه السلسلة كتاب «الأميرة المصرية» الصادر سنة ١٨٦٤، وقد ترجمت القصة إلى ست عشرة لغة، وبيعت منها أربعمائة ألف نسخة حتى سنة ١٩٢٢، وتحكى القصة حكاية أميرة مصرية أيام الغزو الفارسى، هذه الأميرة يراودها الفاتح قمبيز عن نفسها؛ لأن جمالها كان باهراً، وكانت حساسة شامخة لكنها فوق كل شيء «إنسانة»، وهذه الشخصية تكاد تصف الأميرات العصريات المقهورات، ولا شك أن بطلة القصة وكانت «ذات دم أزرق (ملكى) يزيدها جمالاً على جمال» عصابة رأسها تتلألأ فوق جسدها الرشيق، فتزيدها طولاً ـ كانت تخلب لب القارئ، لكن إيبرز يوظف النص فيضمنه أوصافاً تفصيلية للصناعات المصرية والعادات والألوان، وكانت مثل هذه الروايات الرومانسية يقبل عليها بنهم سيدات عصره المتعطشات إلى الحب.

من أهم رواد المدرسة الألمانية العالم الفذ أدولف إيرمان Erman مدير الآثار المصرية بمتحف برلين، وقد دخل إسمه فى الموسوعة المعروفة Who is Who التى عرفته بأنه «إعصار، وهو الأعظم بعد شمبليون». كان إيرمان من المهتمين

بالهيروغليفية وبحوثه فيها مهمة جداً، ومن أهم إنجازاته أنه أثبت العلاقة بين الهيروغليفية واللغات السامية، وإيرمان طرح فكرة تقسيم التاريخ القديم فى مصر إلى العصور الثلاثة: العصر القديم والعصر المتوسط ثم العصر المتأخر، كذلك كان إيرمان من الرواد فى ترجمة وتفسير النصوص الهيروغليفية، وكان إيرمان من النوع الموسوعى سواء فى الفكر أو فى النشاط، فقد اهتم بمجالات كثيرة أهمها الآثار التاريخ واللغة، وإيرمان له كتاب مشهور إسمه «الحياة اليومية فى مصر القديمة»، وهو كتاب مبتكر فى موضوعه يصف المصريين القدماء فى حياتهم العادية، اعتمد فيه على مصادر فرعونية بحتة؛ لذلك خرج الكتاب فى شكل رائع لا تزول جدته، والكتاب حتى يومنا هذا من الكتب المتداولة المعروفة الفريدة فى بابها.

تضافرت ظروف وأحداث عديدة على إيصال علم الآثار المصرى إلى أعتاب مرحلة جديدة، أدت إلى تغيير جذرى إلى الأفضل. فقد أصبح لعلماء المصريات الألمان والفرنسيين تأثير كبير وارتفعت أصواتهم وكلماتهم البليغة والمؤثرة، وزاد من تأثيرهم تحسن الاتصالات، وتدفق المعلومات عن المصريين القدماء، وكلها تشير إلى ضرورة توفر المعلومات الموثقة المسجلة الدقيقة، كانت روايات إيبر يقبل عليها القراء بنهم، كما كانت كتب السيدة آميليا إدواردز ومقالاتها ذات صفة تنويرية لقطاع كبير من المثقفين لم يكن موجوداً من قبل، وكانت الأمور فى مصر قد أصبحت مستقرة تحت علم الإمبراطورية البريطانية، مما هيأ الجو سياسياً لمواصلة الحفائر الأثرية على الأسس العلمية (اللائقة).

قامت السيدة آميليا إدواردز برحلة إلى الولايات المتحدة فى ١٨٨٩/ ١٨٩٠ للدعاية لصندوق دعم الآثار، ودعوة الأمريكيين للتبرع له من أجل الاستكشافات الأثرية واستمرارها، وكانت رحلتها ناجحة للغاية، ومحاضراتها تلقى ترحيباً كبيراً، كانت السيدة قد كتبت قبل ذلك منذ سنة ١٨٨٣ «قام الفرنسيون فى الوجه القبلى والإنجليز فى الوجه البحرى ببذل الجهود المضنية للكشف عن الكنوز المدفونة لأعرق شعوب الأرض» ثم تستطرد فى ثقة «قدماء المصريين المدفونين فى ثرى مصر أكثر من كل الرجال والنساء الذين يعيشون فوق ثراها» وقبل ذلك

بست سنوات استأجر الصندوق (صندوق دعم الكشوف المصرية) شاباً إنجليزياً ليقوم لحساب الصندوق بإجراء حفائر فى الدلتا، واستمرت العلاقة بين الفتى والصندوق ثلاثة سنوات فقط، هذا الفتى اسمه فلندزر بترى F.Petrie، كتب له أن يكون واحداً من الرموز البارزة فى الاستكشافات الأثرية فى وادى النيل.

٢٠ـ نقوش وأدوات وأماكن واحتمالات

ولد فلندز بيترى Petrie سنة ١٨٥٣ فى أسرة معروفة بحب الأسفار والاهتمام بالبحث العلمى أحياناً. ولم ينل بيترى تعليماً نظامياً يذكر، لكنه تلقى على يدى أبيه تدريباً جيداً فى المساحة والهندسة، واعتاد بيترى التجول فى الريف ومعه بعض أدوات أبيه مثل مقياس الارتفاعات والتلسكوب لرصد بعض المواقع عند الحفائر الأثرية؛ وكان حسب قوله «يصرف خمسة ونصف على الطعام كل أسبوع، وضعفها على المبيت». ويقول بيترى: «لقد درست الأرض والناس فى جنوب إنجلترا كله، وكنت أبيت فى أحد الأكواخ». ويعتبر هذا تدرباً جيداً سوف يساعد بيترى فيما بعد فى عمله فى الصحراء بالإضافة إلى اهتمامه بدراسة العملات والاطلاع على الكتب فى المتحف البريطانى.

وكان بيترى وأبوه يوليان اهتماماً كبيراً بالأهرامات المصرية منذ فترة طويلة. وأحد أسباب هذا الأهتمام اطلاعهما على كتاب للفلكى «بيازى سميث» عنوانه «ميراثنا من الهرم الأكبر»، وهو كتاب تأملى ليس له أهمية تذكر اشتراه بيترى مصادفة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. وأزمع الأب وابنه على القيام برحلة لإجراء مسح شامل للهرم الأكبر، يكون أكثر دقة من محاولات مسحه السابقة.

لذلك اتصلا «بستونهنج» سنة ١٨٧٢ ثم شرعا فى وضع خطة مناسبة للمسح استغرق إعدادها عدة سنوات. وفى نوفمبر سنة ١٨٨٠ سبق بيترى أباه فى السفر إلى مصر ليبدأ حياة جديدة، وكان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره. وتأثر بيترى عندما علم أن أباه صرف النظر عن اللحاق به فى مصر وآثر البقاء فى وطنه. المهم أن بيترى وصل إلى الإسكندرية بعد رحلة عاصفة استغرقت شهراً كاملاً. ولم يمض أسبوع على وصوله حتى كان قد استقر فى هدوء داخل مقبرة عند الهرم فى الجيزة، بعد أن حصل بسهولة على التصريح اللازم لأنه لم يكن يسعى لإجراء أى حفائر يمكن لمرييت أو لمصلحة الآثار أن تعترض عليها.

كان مسح بيترى للهرم مبتكراً حسب المقاييس المعاصرة فى ذلك الوقت، فقد أمضى عدة أسابيع فى اختيار نقط الرصد ودراسة تركيب الأهرام، وقد توفر لديه وقت كاف ليراقب أسلوب مرييت ومعاونيه فى الحفر، فوجده منفراً متخلفاً.

كان مرييت لا يبالى بنسف كل الحجارة الجرانيتية الساقطة من المعبد ترافقه كتيبة ضخمة من العسكر، ولا يبالى برفع الحجارة ونقلها باستخدام الروافع... لم يكن العمل يجرى بنظام وانسجام، ولم تكن هناك خطة (للتنفيذ)، وما أن يبدأ العمل فى مكان حتى يترك دون إكمال، ولم يكن هناك أى اعتبار للمستقبل فى مجال الاستكشاف، كما لم تتبع أساليب متحضرة أو وسائل مناسبة لحماية العمال. إنه لشىء مؤلم أن نرى المدى الضخم لتخريب كل شىء.. وكان آخر ما ينال الاهتمام هو الحفظ والصيانة.

استرعى المسح الذى أجراه الشاب الإنجليزى الأثريين الجادين، فزاره كثيرون فى بيته المقبرى، منهم الجنرال الكبير «لين فوكس بت ريفرز» أحد رواد الحفائر الدقيقة، وأبدى حماساً شديداً وتشجيعاً لجهود بيترى . وقد افتتن بيترى بكرانكات الهرم ومقاييسها. (كرانك معناها ذراع.. والمعنى هنا مبهم. المترجم).

وفى أوقات راحته من أعمال المسح كان بيترى يجمع الشقفات الخزفية وما يستطيع من أدوات أثرية خفيفة. وكان ماسبيرو قد نصحه بإخفاء الآثار الخفيفة

فى جيوبه هرباً من التفتيش. كان ماسبيرو يستخف الآثار الخفيفة، أما بيترى فكان يعتقد أن مثل هذه الآثار كالأوانى الخزفية المزججة فيها ما يعين على كشف الغموض عن مصر القديمة، وهذا بالإضافة إلى ما رآه حوله من آثار التخريب هو الذى دفع بيترى كى يحول اهتمامه من مجرد المسح على الحفر نفسه. كانت عمليات المسح التى يقوم بها تؤيدها الجمعية الملكية، فلما عزم على الحفر توجه لصندوق دعم الكشوف لدعمه مادياً. وفى البداية كان أعضاء مجلس الإدارة ساخطين على هذا المارق حتى السيدة آميليا إدواردز نفسها. ولكن نجاحه فى مسح الهرم دفعهم للسماح له ببعض البحوث لكن بلا تمويل. ولم يمض إلا قليلاً من الوقت حتى وصلت من بيترى رسالة إلى السيدة إدواردز: «إن مجال الحفر الأثرى فى مصر يستهوينى كثيراً، وأرجو أن تكون النتيجة محققة للآمال وأشعر أن الأسلوب المناسب يتلخص فى العناية بالتدوين والمقارنة بين التفاصيل الدقيقة.. و (ليس) فى السعى وراء جمع (الآثار) بالجملة والارتجال في تنظيف (المواقع)».

كانت الاستكشافات الأثرية المصرية فى وضع خطير، وكان بيترى مدركاً لأوجه النقص فى هذا المجال من اتصالاته بالمتحف البريطانى؛ وكان مدهوشاً من هذا القصور. ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق بيرش طلب من بيترى أن يرسل له صندوقاً يحتوى على فخاريات متنوعة من «كل موقع مهم» لمساعدته فى تتبع التسلسل التاريخى فى مصر. ويقول بيترى إنه «بعد سنة من وجودى فى مصر أحسست أنها مثل البيت المشتعل بالنار... فقد كان التخريب يجرى بسرعة مذهلة. وكان يتعين على جمع ما أستطيع جمعه بسرعة، كى أحفظه حتى أبلغ الستين من عمرى فأتفرغ له ولم يكن هناك أى اهتمام بالدقة والإتقان.. أما النهب والسلب فكانا على أشدهما».

أسرع بيترى بالعودة إلى مصر، وبدأ يدخل فى الحفر فى بعض المواقع ومنها تانيش ونوقراطيس، وكانت الأرض فيها «غنية بالخزف الإغريقى القديم (الأثرى)، لدرجة يشعر المرء معها (بالذنب) كما لو كان يدنس المكان وهو يدوس أكوام الفخار الأسود اللامع فتتحطم تحت وطء قدميه. وانفرد بيترى عمن

سبقوه باتباع أسلوب تأجير العمال وإيوائهم بنفسه دون وساطة الشيوخ ليأمن مكرهم واستغلالهم للعمال، لأنهم اعتادوا على إبعاد العامل الذى لا يدفع «المعلوم»؛ وبهذا الأسلوب اختزلت مشاكل العمل بشكل ملحوظ.

سرعان ما اكتشف بيترى أن ماربيت كانت له أساليب مختلفة. كان ماربيت يترك الأمر برمته للمشرفين، فكانوا يتعهدون بإحضار العمال من القرى، ويتولون صرف أجورهم. فكان من الطبيعى أن يميل المشرفون إلى التغاضى عن تعبئة الموسرين من الفلاحين لأنهم أقدر على دفع الرشوة.أما فقراء الفلاحين فكانوا يساقون قسراً للعمل. وكانت أغلب الحفائر المحلية تجرى بصورة عشوائية. وكان الحفر الذى يقوم به الأهالى كما يقول بيترى ينحصر فى «عمل حفرة عميقة مستديرة ينثرون حولها ما يجدوه بلا نظام، وقد قاسيت الأمرين لحثهم على حفر خنادق مستقيمة ضيقة،، ورغم أن طرق بيترى فى تنفيذ الحفائر كانت أحسن من غيره، إلا أنها بالنسبة للطرق الحديثة كانت متخلفة ومخربة. كانت طبقات ثلاثة من العمال: الحفارون، والغواصون (الذين ينزلون إلى الأبيار)، والنزاحون (لرفع المخلفات وإخلاء المنافذ).وكان يصحب كل مجموعة عدد من العمال بمقاطفهم لإزالة الأتربة. وكان بيترى يحرص على توفير الرقابة على العمال، وإن كنا نجهل كيفية ذلك بالضبط ولم يمانع بيترى فى استخدام الفتيات فى الدق والتكسير. وكانت إحداهن فتاة«شقية ثرثارة، أدهشتنى كيفية تعاملها مع الشيخ الذى زاملته إلا أنها كانت تسلقه بلسانها بلا توقف، ولا تكف لسانها السليط حتى وهى تنهال عليه بمقطفها».

كان العمل يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً وينتهى فى السادسة والنصف مساءاً، مع فترة راحة قصيرة عند اشتداد الحرارة فى الظهر. وأحياناً كان بيترى يذهب لخيمته للإفطار ومن هناك يراقب العمل بالتلسكوب. وفى الأوقات الأخرى تجده دائماً فى مواقع العمل وعينه كعين الصقر لا تغفل عما يجرى. هذا بينما كان ماربيت لا يزور مواقع الحفر إلا مرة واحدة كل فترة (ثلاث أسابيع أحياناً). وفى كل زيارة كان يعطى تعليماته بما يراه جاهزاً فى زيارته القادمة. وكان يطلق يد المشرفين فى قيادة العمال فحققوا من توظيف العمال والرشاوى

أرباحاً طائلة. وكان هؤلاء يتخوفون من أن الإنتاج إن لم يكن غزيراً، فإن أعمال الحفر قد تتوقف؛ فكانوا أذا تعثرت الحفائر لا يتورعون عن شراء بعض الآثار الخفيفة من تجار الآثار بالقاهرة حتى تظل شهية مريبيت مفتوحة للحفر. أما نواتج الحفر المهمة فكانوا يخفونها حتى تحين الفرصة المناسبة التى تحقق لهم ما يطمعون من ربح فيظهرونها (المقصود طبعاً المنح الإضافية والبقشيش... إلخ). لذلك لا نستغرب كثيراً إذا ما كان يصرح به متحف القاهرة من احتوائه على كل ما ينتج من أعمال الحفر التى يقوم بها الأجانب موجود بالمتحف، لا يعنى سوى خدعة كبيرة (أى لا أساس لها من الصحة).

حصل بيترى من حفائره على نتائج جيدة مفيدة إذ تمكن من تنظيف وكشف جزء من معبد وفناء كبير مسور للفرعون بسوسنس الأول من الأسرة الحادية والعشرين، واكتشف كمية كبيرة من الفخار ومن الصناديق المليئة بالبرديات التى حُمِّل بعضها فيما بعد على الزجاج ثم ترجم. وقد أرسل الكثير مما اكتشفه إلى إنجلترا وعرض فى معهد الآثار الملكية بلندن. وأهم من ذلك كله أن بيترى أثناء وجوده فى انجلترا أمضى وقته فى تسجيل نتائج أعماله كى تنشر نتائج أعماله بسرعة. وكانت آميليا إدواردز تطلب ما ينشر له فى الصحف المتخصصة، وتعتمد عليها فى كتابة مقالات مشوقة تنشرها فى جريدة التيمز اللندنية London Times. كان هذا على وجه الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدمة فى الكشوف الأثرية التى استغرقت حياة بيترى كلها بعد ذلك فى مصر وفلسطين.

على الرغم من أن حفائر فلندرز كانت أكثر انضباطاً ممن سبقوه، إلا أن تقنياته كانت متخلفة حسب المقاييس الحديثة. فقد اعتاد على استخدام قوة عمل كبيرة تزيح بالكامل تلالاً من الترسيبات الأثرية. ففى حفائره فى نواقراطيس سنة ١٨٨٥، استخدم بيترى مائة عامل وسبعة عملوا تحت إشراف اثنين فقط من الأوروبيين؛ مما أربك عملية صرف البقشيش (المكافأة) نظير العثور على الآثار الخفيفة. وكان بيترى فى الواقع يتنافس فى ذلك مع تجار الآثار المحليين، مثل من سبقوه. وحاول حل المشكلة على أساس نوعى - كل نوع له

ثمنه، فإذا حدث خلاف على السعر رفض شراء الأثر. والظاهر أن هذه السياسة أثبتت نجاحها.

أدرك بيترى الأهمية القصوى للتبويب حسب التسلسل التاريخى أثناء إجراء حفائره فى نوقراطيس، وأهمية طبقات الحفر وأعماقها فى تصنيف التسلسل التاريخى للآثار. ونجح فى كثير من الأحيان فى تحديد تاريخ إنتاج الآثار التى حصل عليها. وحاول تحديد عمر المعابد والمبانى بربطها بالطبقات الرسوبية. ومن حسن حظه أنا لكثير من الآثار الخفيفة على أعماق مختلفة يتألف من جعارين وعملات وأشياء منقوشة يسهل تحديد عمرها من النصوص المنقوشة عليها إذا وجدت من يحسن قراءتها. هذا الاتجاه كان جديداً تماماً لم يستخدم فى مصر قبل بيترى.

فى سنة ١٨٨٧، ترأس بيترى بعثة كشفية مهمة فى الفيوم عقب انهاء عقده مع صندوق دعم الآثار اللندنى للعمل كوكيل مستقل. كان اهتمامه - فى الفيوم - موجهاً إلى هرم هوارة الذى أشاد به بلزونى منذ سبعين عاماً. ولم تكن ظروف العمل مريحة، إذ عسكر بيترى فى خيمة صغيرة، وكتب شاكياً «تصور كيف يمكن لإنسان ما أن يتكوم فى مساحة طولها ستة أقدام ونصف وعرضها مثل ذلك.. ومع السرير كان معى تسعة صناديق تحوى كل أنواع المؤن، بالإضافة إلى بانيو (للحمام) وموقد للطبخ وزير (للشرب) وحامل للزير ذى ثلاثة أرجل... وبعض الآثار (أيضاً). هكذا كتب علىَّ أن أعيش وأنام وأغتسل... وأستقبل زوارى». وكان يحفظ المومياوات المهمة تحت سريره زيادة فى الاحتياط.

وكان يعمل مع بيترى عدد ضخم من العمال، بدا له أنهم أحبوا العمل معه: «كان النفخ فى المزامير مستمراً، يصحبه الغناء والتصفيق والصياح، وحالة عامة من المرح» وشق العمال خندقاً يصل إلى قلب الهرم مصحوباً بالاستكشاف أولاً بأول داخل الهرم. ولم يؤد الخندق إلى شىء، إذ انتهى إلى سقف غرفة سميكاً جداً ولم يكن الوقت المحدد لإنهاء الاستكشاف يسمح بنقبه. ولكن بيترى حوالى ذلك الوقت كان قد وجه اهتمامه إلى مجموعة مومياوات رومانية واردة من جبانة

مجاورة، قدر عمرها بين سنتى ١٠٠ و ٢٥٠ ميلادية. كانت ألواح التوابيت الخشبية الخاصة بالمومياوات عليها نقوش بالشمع الملون تمثل صور وجوه بشرية (بورتريه). وهذا النوع معروف أنه كان قبل الوفاة ويعلق على جدران البيوت ثم يسوى منه التابوت ويوضع فيه الميت ثم يدفن. وكانت الجثث تدفن فى أبيار جماعية لكل أسرة تحفر بجوار البيوت وتستعمل لجيل من الأفراد وربما أكثر، ثم تنقل من المقبرة الأسرية الجبانة إلى الجماعية الكبيرة المجاورة للهرم.

كل هذه البورتريهات ومعها ستون صندوقاً حاوية لكثير من الآثار الأخرى شحنت إلى متحف بولاق حيث كومت فى العراء تحت رحمة الرطوبة وأمطار الربيع - والتلف. وكاد بيترى يصيبه الغثيان وعندما أصر المتحف على الاحتفاظ بأحسن ما فى الرسالة من البورتريهات والمنسوجات. رغم ذلك بقى لبيثرى ما مكنه إقامة معرض جميل لبعض البورتريهات والمومياوات فى صالة كبيرة من الجناح المصرى فى بيكادللى، هى القاعة نفسها التى أقام فيها جيوفانى بلزونى معرضه من قبل. وكانت هناك فرصة بالطبع لدى الزوار الذين طال بهم العمر (أى الكهول) لكى يجروا مقارنة بين المعرضين. على أى حال كان معرض بيترى ناجحاً وحضره جمع كبير، وقد أظهر من الإقبال على المعرض أن المصريات قد ثبتت أقدامها وأصبحت علماً له احترام وتقدير كبيران.

فى الموسم التالى عاد بيترى إلى الموقع ودخل الهرم بنفسه، وقد وجد أحد صائدى الكنوز الألمان يعمل فى الفيوم بتصريح رسمى. لكنه لم يحقق نجاحاً فتحول إلي المواقع التى أعدها بيترى للحفر فى الأسابيع التالية. من أجل ذلك قام بيترى بتكليف رجلين بالحفر فى المقابر الملحقة بهرم اللاهون، كما كلف اثنين أخرين بالحفر فى أبو غراب حفظاً لحقوقه. هذان الموقعان الإضافيان كان بيترى يضطر لزيارتهما مشياً على الأقدام لمسافة ١٧ كيلو متراً كل أسبوع. وقد أبدى بيترى ضيقه لذلك فقال «كانت متعبة للغاية». احتاج كسر السقف العائق لغرفة الدفن بهرم هوارة إلى شهر كامل لأنه كان من الكوارتز الصلد بطول ٢٠ قدماً وعرض ٨ أقدام وسمك ٦ أقدام. بعد أن دخل الغرفة وجد بها تابوتين حجريتين فارغتين، وكانت المياه تغمر الغرفة حتى وسط الزائر. بعد ذلك عثر على

خرطوش يحمل اسم الملك امنمحات الثالث (١٨٠٠ ق.م)، فتم بذلك تنسيب الهرم لصاحبه وتعريفه.

استمر العمل فى كشف هوارة واستؤنف تنظيف وكشف المدخل الأصلى لحجرة الدفن. كانت الممرات كلها مسدودة بالطين،نزع بيترى ملابسه وانزلق للداخل ليجرى قياساته. وفى هذه الأثناء كانت مجموعات العمال ترفع النفايات والأقذار، حتى أمكن رصد مكان باب الهرم الرئيسى. وجدت حجرة الدفن على عمق ٤٠ قدماً داخل الهرم ووجد بها مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتى وتابوت حجرى ضخم. كانت كل الموجودات غارقة حتى الوسط فى الماء وقد أصابتها ملوحة شديدة تكفى قطرة منها لجعل العين تلتهب. وتمكن بيترى من تحريك تماثيل الأوشابتى بالرقود فى الماء وتحريكها بقدميه. وكان تحريك التابوت الحجرى أكثر صعوبة فدقت خروم في غطاء التابوت، لوضع البكارات (حبال رفع ذات خطاطيف)؛ بينما كان بيترى نفسه وسط الأملاح ينظف التابوت من الرمل العالق به. وقال عند ذكره لهذه الواقعة: «كنت راقداً أنظر مثل الجاموس». المهم أنه أمكن نقل التابوت إلى مكان مضىء، لا يضطر فيه بيترى للخوض فى ماء عميق «وسط الخشب العفن والجماجم».

استمر العمل بكثافة في موسم ١٨٨٨ فى اللاهون ومدينة العمال بكاهون وهى القرية التى بنيت أثناء الأسرة الثانية عشرة لإيواء العائلات التى اشتركت فى بناء اللاهون. أخلى بيترى كثيراً من بيوت كاهون للفحص فوجد بالبيوت أدوات نحاسية ومساند قناديل وأثاث خشبية بالإضافة إلى أدوات أخرى تافهة. وعلى أساس حفائر كاهون بنى بيترى تصوراً معقولاً عن الحياة اليومية للعمال أثناء الأسرة الثانية عشرة. أما من سبقوه فكانوا يركزون اهتمامهم على الآثار والمقابر الضخمة على حساب المدن والقرى البسيطة. ومما يستحق الذكر أن مكتشفات بيترى الأثرية فى كاهون كانت الأساس الذى اعتمد عليه أدولف إيرمان فى تأليف كتابه المعروف «الحياة اليومية فى مصر القديمة» الذى صدر سنة ١٨٩٥.

كانت كشوف بيترى فى أبى غراب أقل أهمية من الناحية الأثرية، لكن موقع المدينة نفسه كان له دلالته التاريخية. وقد قام بيترى بتنظيف وإخلاء جزئى فى

المدينة، وبالأخص الساحة الكبيرة المسورة بجوار المعبد. وأظهرت المعاينة أنها كانت مخصصة لسكنى مجمموعة من الأجانب. ولاحظ بيترى وجود فخاريات على الأسطح وشقفات تنتمى إليها فى البيوت. وبالفحص ثبت أنها مصنوعة فى ميسينا ومماثلة لما عثر عليه شيلمان فى ميسنا باليونان، وما عثر عليه غيره فى الجزر الإيجية. من ذلك يثبت وجود علاقات تجارية بين المصريين والإجيين ترجع إلى سنة ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد. زار بيترى ميسينا بنفسه بعد ثلاث سنوات وتحقق من وجود هذه الأشياء التى كانت مصر تستوردها، وتنتمى لنفس الفترة ومطابقة لما وجد فى أبو غراب (الفترة هى الأسرة ١٨). من كل ذلك أظهر بيترى أن علاقات مصر التجارية مع ميسينا بدأت حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. التاريخ الذى بدأت فيه حضارة ميسينا، ثم تجددت بين سنتى ١٥٠٠، ١٠٠٠ قبل الميلاد. هذا الأسلوب يعتبر من الأمثلة المبكرة على الاستفادة من الآثار بأسلوب يعرف بالمقابلة التاريخية (crossdating) أى إسقاط تاريخ أدوات ما معروف تاريخ إنتاجها على الموقع الأثرى فى البلاد البعيدة لتحديد عمر هذا الموقع، وهو أسلوب مازال متبعاً حتى الآن فى دراسة الأزمنة العتيقة.

تحمس علماء الآثار العاملين بميسينا لهذه النظرية خصوصاً «جاردنر» تلميذ بيترى الذى قرر أن بيترى «أنجز فى أسبوع واحد أكثر مما أنجز الألمان فى عشر سنوات لتأكيد العلاقات بين ميسينا ومصر» وكان علم التاريخ وتسلسله قد استقر منذ عدة سنوات وعليه كان يعتمد السير «آرثر إيفانز» فى تاريخه لقصر مينوس فى كريت. وأمكن للمرة الأولى إثبات أن المدنية المصرية لم تزدهر فى عزلة أو فراغ، ولكن فى ظل علاقات تجارية نشطة مع المجتمعات الأخرى. كذلك ثبت أن العلاقات التجارية قد عكست آثارها على السجل الأثرى.

تميز فليندرز بيترى عن غيره من هواة جمع الآثار بمعلوماته الواسعة النقدية الشاملة عن الشرق الأدنى وعلم الاثار الأوروبى. وقد يكون مع زملاء آخرين دائرة من الباحثين تهتم بالتعميم أكثر من التخصيص وذات نظرة شمولية أكثر من التركيز على موقع واحد أو على مصر وحدها. واعتاد تلاميذ «شيلمان» و «إيفانز» و «بيترى» فى أواخر القرن التاسع عشر على إحاطة بحوثهم الأكاديمية

بجو منالزيارات الميدانية المتبادلة والمناقشات الحرة. بالإضافة إلى ذلك أتجروا فى الآثار، وتراسلوا مع شخصيات العصر الفيكتورى النشطة بصورة جعلت أكثر الباحثين انشغالاً فى القرن العشرين يصيبهم الرعب من جدول أعمالهم (العبارة مبهمة ولعلها تعنى أن الباحثين وجدوا أن النهب كان على أشده).

كان بيترى يوقن أن الشهرة آتية لا ريب فيها، فلم يتعجلها. وفى نهاية الموسم كتب إلى صديق له يقول «أعظم ما يسعدنى أن اتمكن من إصدار سلسلة من الكتب تظل أجيالاً وقروناً مرجعاً للحقائق والمعلومات فى موضوعها» وهذا الاتجاه يتعارض تماماً مع اتجاهات من سبقوه، لأنهم نادراً ما اهتموا بنشر أى شىء عن أعمالهم، أو اعتنوا بتسجيل مصادر الآثار التى اكتشفوها.

كان بيترى من المؤمنين بضرورة استيفاء السجلات والشروح (الوصف)، وبالأخص السجلات، وقد ذكر خمساً من الخبرات التى استخدمها هو شخصياً فى عمله:

أولاً: - «الفن الرفيع المسمى فن اقتناء الآثار، وجمع المعلومات الضرورية عنها وتقدير أهميتها بدون مبالغة أو شطح، وإثبات الفروض واختبار صحتها باستمرار أثناء العمل، والمحافظة على كل ما هو مهم - ليس لنفسى فقط، ولكن لغيرى أيضاً».

ثانياً: «نسج (تركيب) تاريخ يعتمد على الأدلة المتناثرة باستخدام المواد المتاحة مثل النقوش والأدوات والمواقع مع الأخذ (بكافة) الاحتمالات»».

أما الخبرات الأخرى التى سجلها فهى:

ثالثاً: - البيئة المادية (أى الموجود بها الأثر).

رابعاً: - المسح الأثرى (الحفر والتنقيب).

خامساً: - الأوزان (لعله يقصد إجراء المقارنات - المترجم).

هذه هى الخبرات والفنون التى يقول بيترى أنه التزم بها.

كان هدف بيترى هو النشر، والتخطيط الدقيق، والحفائر المتقنة، وإمساك السجلات (التسجيل الدقيق). والتزم بذلك فى كل الأحوال، وهو ما يتعارض

بشكل ملحوظ مع مرييت الذى استغرق ظهور كتاب عن السيرابيوم منه أربعين عاماً.

فى هذه الأثناءدخل بيتري - من حيث لا يدرى - فى دوامة الصراع السياسى الشائك بسبب تصاريح الحفر وتصدير الآثار. وكان الفرنسيون منذ أيام مرييت قد سيطروا على الإدارة فى قطاع الآثار ولاحظ بيترى أن البنية الإدارية بالقطاع فاسدة وعاجزة؛ كما لاحظ أن تصاريح الحفر كانت تعطى لتجار الآثار أو للمستكشفين غير المؤهلين. وكانت حالة المتحف نفسه يرثى لها، والموظفون يتسمون بعدم المبالاة. فتركوا المومياوات والتماثيل الثمينة مكدسة فى الممرات والهواء الطلق عرضة للصدأ والتلف، كذلك كان كثير منهم ضالعين فى معاملات مشبوهة مع تجار الآثار بالقاهرة. وحضر بيترى نفسه إبرام صفقة من هذا النوع بين تاجر كبير وأحد أمناء المتحف، ذكر أحد أصدقاء بيترى بعدها أن التاجر «انصرف وملء ذراعيه كراتين (صناديق ورق مقوى)». كذلك أشار بيترى إلى أن «المتحف كانت له أحوال غريبة من المتاجرة بدون رقيب ولا حسيب».

فى ذلك الوقت ارتفعت الأصوات فى إنجلترا مطالبة بالحد من تدمير الآثار المصرية وضرورة المحافظة عليها. وكان تبنى هذه النظرة نتيجة للمعارض التى أقامها بيترى ومحاضرات آميليا إدواردز ومنشوراتها. من أجل ذلك تأسست «جمعية الآثار المصرية» من ذوى النفوذ والمكانة. وعند التأسيس طالبت الجمعية بضرورة توظيف مفتش مستقل من إنجلترا، وهذا الاقتراح وقف ضده الفرنسيون بكل حزم.

شكلت لجنة للآثار لدراسة المشكلة، سيطر عليها الفرنسيون خصوصاً «جريبو» الذى كان متعاوناً مع التجار حسب ظن بيترى، استجابت بلا تردد لمشروع بيتري؛ وسرعان ما صدرت تشريعات جديدة تنظم تصدير الآثار جعلت من المستحيل على أية بعثة أجنبية أن تنقب عن الآثار فى مصر حتى بيترى نفسه حُرم من إجراء أى حفائر. عند ذلك «اشتعل الموقف وانهالت الرسائل والاستجوابات على البرلمان (الإنجليزى) بكثافة،، كما قال بيترى وهو فى حالة انتشاء. «وبذلت جهود سياسية مكثفة أدت إلى صدور قوانين حازمة لكنها أكثر

مرونة تحدد بوضوح مواصفات الأعمال الاستكشافية، منها ضرورة النشر، وتضييق الخناق على التجار حتى لا يحققوا أرباحاً بأسلوب انتهازى».

كان الباحثون منذ سنين يسعون للكشف عن أصل المدنية المصرية قبل ظهور حضارة عصر الأسرات، وكانت هناك نظرية تدعى أن أول من حموا مصر الموحدة غزاة أصلهم من بين النهرين (العراق). وتستطرد النظرية فتقول أن هؤلاء حملوا معهم إلى مصر مدنية وادى النهرين الأكثر تقدماً. لكن بيترى عثر سنة ١٨٩٤ على جبانة شاسعة بجوار بلدة نقادة؛ وبالحفر فى الموقع استخرج هياكل عظمية مع كثير من الأوانى والأثاث المقبرى. ولاحظ بيترى أن الأوانى الفخارية لهذه الحضارة لا تنتمى إلى الفار الذى عثر عليه فى مقابر الدولة القديمة إذ كان أكثر اتقاناً وينبئ عن حضارة تأصلت وأسست جذورها فى وادى النيل فى البيئة المصرية الصميمة. كان أول انطباع لدى الأستاذ فى موقعه الأكاديمى الجديد أن حضارة نقادة وافدة من ليبيا (لا العراق). لكن مع استمرار الحفائر لاحظ بيترى أن الجبانة كانت مكتظة بالجثث منذ العصور العتيقة. ثم واصل بيترى حفائره للكشف على ما فيها، وتمكن فى سنة ١٨٩٤ من الكشف عن ألفى مقبرة، وبعد سنوات قليلة من مواصلة الحفائر عثر على مدفن ملكى فى نقادة نفسها، وهو دليل قاطع على التواصل بين الحضارة العتيقة بأوائل حضارة عصر الأسرات. بذلك ثبت أن الحضارة المصرية القديمة جذورها ممتدة إلى حضارات سابقة له فى العصور العتيقة قبل عصر الاتحاد، وأنها نمت وتأصلت فى وادى النيل نفسه. وكان لبيترى أسلوبه المميز الذى ظل يطوره بنفسه فى الحفر والكشف واستخراج الآثار الموجوده بجبانة نقادة.

يلخص بيترى أسلوبه هذا كما يلى:

الخطوة الأولى أرسال أولاد (مهارتهم محدودة) لتحسس الأماكن سهلة الحفر (اللينة) فى أرض الجبانة، وحالما ينظفون حافة المرقد المقبرى يصرفون على الفور. بعد ذلك يتولى العمل عمال عاديون (مهارتهم غير عالية) يقومون بتنظيف المرقد حتى يلمسوا (بالفئوس) الأوانى الفخارية داخل الحفرة. بعد ذلك يتولى عمال من الدرجة الأولى (فى المهارة) يقومون بإزالة الأتربة حول الأوانى

الفخارية والمومياوات، دون أن يحركوها من مكانها وأخيراً يأتى دور (على السويفى) البارع لتنظيف الموجودات تماماً من آثار الأتربة، بحيث يكون كل شىء . الحفرة وما بها من عظام وآزرار... إلخ . ظاهراً للعيان وهنا ينتهى العمل»

يقول بيترى: «درست الفخار الموجود فى القبور بعناية حسب اشكاله وزخارفه». ومما لاحظه بيترى حدوث تغير تدريجى فى حجم الأوانى، كان أكثر ظهورًا فى مقابض نوع معين من الجرار. كانت التصميمات الفخارية المبكرة ذات وظيفة عملية لتسهيل الاستخدام اليومى، ثم بدأ يضاف إليها أشكال زخرفية تحولت مع الزمن إلى مجرد خطوط ملونة. وكشف عن جرار شبيهة فى مواقع أخرى مثل ديوسبوليس بارفا Diospolis Parva تمثل حضارات ما قبل الأسرات كانت منسجمة مع الأثاث الجنازى.

بعد ذلك اكتشف بيترى مقابر اخرى، استطاع بعد فحصها من تصنيف الأثاث الجنائزى فى مجموعات على أسس «مرحلية» تنسب لفترات متتابعة دل عليها التطور الأسلوبى فى صنع الجرار. أطلق بيترى على أولى المراحل اسم المرحلة الثلاثينية St 30 ، وهى مرحلة لم يعثر فيها على ما يدل على وجود مجتمعات قبل اسرية. وتوالت مراحل التصنيف، وبعد خمسين مرحلة وصل إلى المرحلة الثمانينية St 80 ، التى واكبت المرحلة الأسرية زمنيا، هذا التصنيف يعتبر أول محاولة لوضع تسلسل زمنى لعصر ما قبل الأسرات؛ ومنذ ذلك الوقت التزم بيترى وغيره بهذا الأسلوب فى كافة الحفائر فى وادى النيل بعد ذلك.

تعتبر نظرية بيترى عن التتابع التاريخى واحدة من أهم إنجازاته لأنها تسهل دراسة الآثار التى يستعصى تنسيبها بوسائل أخرى. وتزيد دقة التقديرات كلما زادت كمية الآثار المكتشفة. وقد علق بيترى على ذلك فقال: «لا أجد ما يبرر الغض من أهمية العصور التاريخية الموثقة» وهى نظرية تفاؤلية ذكرها بيترى فى كتاب له ظهر سنة ١٩٠٤ بعنوان «طرق وأهداف البحث الأثرى» ضمنه ما توصل إليه فى هذا المجال، هذه النظرية فى فحواها ليست أكثر من شكل معدل لترتيب الآثار لا يعرف تاريخها على أساس تطورى. على أى حال كان ظهور هذه النظرية خطوة جريئة ساهمت فى تحسين الأساليب التاريخية للآثار المصرية.

أدت استكشافات بيترى ذات الطابع الابتكارى إلى القيام برحلات عديدة بطول مصر وعرضها. لكن الصراع بينه وبين مصلحة الآثار والمتحف لم يهدأ، إذا لم يسكت بيترى عن الاعتراض والإدانة للصفقات سيئة السمعية بين المصلحة وتجار الآثار. وفى سيرته الذاتية المعنونة «سبعون عامًا مع الآثار» يروى لنا بيترى كثيرا من «خطايا الزملاء الفرنسيين». منذ ذلك أن باحثا غاليًا (أى فرنسيا) قام بكشوف فى مقبرة أبيدوس الملكية، فلم ينشر دراسة عنها، والأدهى «انه استعمل ما وجده من الأعمال الخشبية الخاصة بالاسرة الأولى كوقود فى مطبخه». أما ما اقتناه فقد تبعثر بين شركائه الذين مولوا الكشف حتى بيعت فى مزاد علنى بباريس. وكان بيترى يرى أن خلفاء ماسبيرو فى إدارة المتحف كونوا صفا من الموظفين عديمى الكفاءة. ووصلت الأمور إلى الحضيض فى عهد أخرهم . فيكتور لوريه V. Loret . ويذكر أن لوريه بلغت به السلبية واللامبالاة شأوا بعيدا؛ وكان . كما يقول بيترى . إذا نبهه أحد إلى إحدى حالات السطو والتلاعب فى الآثار ولو كانت واضحة، لا يزيد على أن يصيح «هذا مستحيل هناك قانون».

فى هذه الأثناء تجدد عقد ماسبيرو بشروط جيدة وراتب مجز بلغ ١٥٠٠ جنيها فى السنة خلاف البدلات. وصرح ماسبيرو لبيترى بالحفر فى أبيدوس ومعالجة الفوضى الضاربة هناك. وتمكن بيترى عند بدء العمل هناك من كشف مقابر أربعة ملوك من فراعنة الأسرة الأولى الثمانية، ومقبرة إحدى الملكات. وهؤلاء جميعا تمكن من تمييزهم وتحديد أسماءهم وشخصياتهم. وبالإضافة إلى ذلك كشف بيترى عن أكثر من ثلاثة آلاف مقبرة من مقابر الخدم والحاشية. واستغرق العمل فى هذه الكشوف من ٢٢ من يونيو سنة ١٨٩٩ إلى مارس سنة ١٩٠٠ . ونالت كشوفه فى أبيدوس ما تستحقه من أهمية لانه قام بتسجيلها ونشرها . وفى ٢٢ من يونيه من نفس السنة (١٩٠٠) انتهى بيترى من فهرسة التواريخ. وكان للفهارس وقعا عظيما لأن نشرها واكب عرض مكتشفاته فى لندن. كذلك شعور جماهيرى جيد، فبدلا من الاهتمام بأدوات الزينة والآثار المهرية، تجمهر الزوار حول المناضد يشاهدون بافتتان المعروض عليها من كسرات

وشقفات الأسرة الأولى حتى أن بعض العمال أمضوا استراحة ساعة الغذاء فى غرفة العرض».

لم ينقطع النزاع بين بيترى ولصوص الآثار والتجار فى الجزء الأول من المدة الطويلة التى قضاها بيترى فى الاستكشاف. ورغم أن أبيدوس لم تكن المكان الذى يسهل فيه ممارسة السلب والنهب، الا أن الأمر لم يسلم من تعرض بيترى لممارسات من هذا النوع. وفى إحدى المرات كان بيترى يعاين اثنى عشر مبنًا ملحقا بالمعبد الكبير، أثناء ترميمها. وأثناء تجوله للاطمئنان على جودة التشطيبات وألوان الأخاديد، تسلل لص إلى حديقة بيته محاولاً سرقة تمثال ثقيل وزنه مائة رطل والهروب به؛ لكن قدميه لم تسعفاه فوقع على الأرض وأمكن اعتقاله. لكن اللص أطلق سراحه لأنه قدم رشوة لرجال الشرطة. وفي مرة أخرى اقترب رجل من الكوخ واطلق غدارته عشوائيا فكادت تصيب الرصاصة السيدة بيترى، ولكن الله سلم وطاشت الرصاصة.

عندما أعيد اكتشاف مقبرة في لاهون سبق أن تعرضت للنهب، اتخذت احتياطات أمنية مكثفة. ووجد بيترى التابوت الحجرى فى المقبرة فارغًا، فلم يتوقع أن يعثر على شئ ذى بال. ووجد بجوار التابوت أختامًا أسطوانية ذهبية دقيقة الصنع، فصرف العمال فورا ولم يستبق منهم سوى واحدًا مع تلميذة «برانتون» لاحساسه أنه بصدد الكشف عن خبيئة ثمينة. شرع بيتري وبرانتون فى جمع القطع الذهبية، وكان برانتون يلازم المقبرة صباح مساء لتخليص الكنز فى المقبرة وتنظيف الاختام متحاشيا إتلافها، ثم تصويرها وتغليفها أولا بأول رغم ذلك كان بيترى يخشى تعرض الكنز للسرقةى فحذر كل العاملين معه وأمرهم بالكتمان وعدم الحديث أو الكتابة عن الكنز الذهبى المكتشف. وثبت أن المجموعة تنتمى إلى الأسرة الثانية عشرة. هذا الكنز اشتراه متحف المتروبوليتان بنيويورك بعد مفاوضات طويلة لم تنجح فى بيعه للمتحف البريطانى.

كان نشاط بيتري وسرعته في الانجاز مثار دهشة الباحثين بعده. وكان من عادته قضاء الشتاء بطوله فى مصر منهمكًا فى الاستكشاف الأثرى؛ ثم يعود لبلده حيث يقضى الربيع والصيف ليكتب عن كشوفه ويقيم المعارض. وكان بيترى

يتميز بغزارة الانتاج، فيصدر كل سنة كتابا على الأقل، بالاضافة إلى محاضراته الجامعية والعامة. وكان ينظم ويحضر حلقات البحث فى مقر عمله بجامعة لندن. وفى حياته الكشفية التى استغرقت اثنتين واربعين سنة زادت كشوف بيترى عن كشوف مرييت نفسه. وقد حقق من النتائج أكثر مما حقق سابقوه أو الحقوه. ويمثل اكتشاف مدينتا نقراطيس وكاهون عن نقوش العمارنة ومقابر أبيدوس والأختام الذهبية بها جانبا يسيرا من إنجازاته ويمكن اعتبار بيترى باعث حضارة مصر العتيقة بعد أن كانت راقدة فى نقادة، وفى ديوسبوليس. وبيترى هو الذى عثر على لوحة مرنبتاح - أول أثر مصرى يشير إلى الإسرائيليون، حتى أن أحد زملائه علق على الكشف بقوله «فليهنا المجيلون «أى الحاخامات». والخلاصة أن بيترى كان من المبتكرين فى فنه، وسابقا لعصره، ورغم ذلك كان يجد نفسه مضطرا لبيع الآثار التى يجمعها إلى متاحف أوروبا ليمول استكشافاته. مع كل هذه المزايا كان بيترى ضيق الصدر حاد الطبع لا يعبأ بشخص ومركز من يجادله، لدرجة أن الكاتب الموهوب «جيمس بيكى» الذى له مؤلفات كثيرة عن مصر القديمة لم يسلم من حدة لسانه، فقال يسخر منه «إنه رجل أنيس (يقصد محبا للثرثرة) .. يجادل كل من هب ودب بلكنه يونانية ويغنى الأغانى الاستكلندية بطريقة منفردة». ولما كان بيترى لم يتلق تعليمًا نظاميا فإنه لم يهتم أو يعبأ بالاطلاع على مولفات معاصرية مهما كانت قيمة. كذلك كان من طبعه الاصرار على أن الحق دائما معه. ولاشك أن هذا شئ غير مستساغ ولا مرغوب فيه فى مجال علم الآثار.

لم تقتصر إنجازات بيترى على تأسيس مدرسة إنجليزية فى المصريات، ولا على إدخال أساليب جديد لها احترامها فى الحفر والتنقيب إلى مصر، بل زاد على ذلك أنه درب بنفسه جيلا كاملامن الأثريين الذين تتلمذوا عليه فى الهيروغليفية وتلقوا عنه أساليبه فى الحفر والبحث عن الآثار. ومن تلاميذه من أدخل بعض التحسينات على هذه الأساليب. كان «هوارد كارتر» ممن عملوا معه، كما عمل معه آرثر جاردنب فى نقراطيس قبل انتقاله إلى أثينا ليدير مدرسة الآثار بها. وهناك عاون استاذه فى الكشف عن واردات ميسينا من السلع

المصرية. ويجدر أن نذكر أن السير «آلان جاردنر» من ألمع علماء المصريات فى العصر الحالى، وكان متحمسا لبيترى وقضى عمره فى دراسة الهيراطيقية ونصوصها. ويعتبر كتابه قواعد اللغة المصرية «الصادر سنة ١٩٢٧ مرجعا أساسيا للطلبة فى دراسة اللغة المصرية القديمة. ومن تلاميذه النوابغ «جى برانتون» الذى دخل دائرة الضوء بكشفه عن كنز اللاهون، ثم أصبح واحد من أشهر الأثريين لاكتشافه بعض مقابر وقرى عصر ما قبل الأسرات. أما تلميذته العظيمة» جرترود كاتوين طومسون» فكان لها السهم الوافر فى اكتشاف أقدم المزارع المصرية فى منخفض الفيوم فى عشرينات القرن العشرين (الحال)، قبل أن تتوجه للواحات الخارجة بحثا عن حضارة صيادى العصر الحجرى القديم.
هذه الباقة من التلاميذ النوابغ ما أحراها بالتنويه فى موسوعة Who is who.

٢١ ـ خاتمة

انقضى أكثر من مائة وخمسين عاماً منذ نفض بلزونى عن قدميه غبار الاسكندرية لآخر مرة، لكنه لو قدرت له العودة لوقعت عيناه على كثير من المناظر المألوفة له، فالاهرام مازالت شامخة فى مكانها كالقلاع، وأبو الهول مازال رابضًا فى مكانه يحوم حوله السياح الفضوليون، والشمس مازالت تشرق وتغمر الصحراء الشاسعة بنورها، وتنتشر على الأراضى الزراعية الخضراء على ضفتى النيل، ومازالت حرارة وسط النهار الحارقة تطوق هواء المعابد الكثيف أو المقابر الملكية كما كان الحال منذ قرون، ومازالت السفن ذات الأشرعة البيضاء تمخر عباب النهر فى المسار نفسه الذى كانت تسير فيه الزوارق والقوارب التى استخدمهابلزرونى وهو يحقق اكتشافاته العظيمة، فهناك نوع من الخلود فى وادى النيل لا ينال منه مر السنين والأحقاب، ومن يزر مصر يستنشق ما كان يستنشقه المصريون القدماء أنفسهم من غبار ساخن ومن رائحة عشبية، ومن روائح النيل المنساب إلى الشمال، وكل سنة فى دقة الساعة يأتى الفيضان ليجلب الخصب ويرعى الزراعة التى لم تتبدل طرقها كثيرًا من أيام الفراعنة (هذا رأى المؤلف ويبدو أنه غير مطلع على النهضة الزراعية فى مصر وطرق الزراعة الحديثة المتبعة الآن ـ المترجم)، هنا يحس المرء بحالة من التوازن الحق والصدق كما كان القدماء المصريون يحترمونه (أى القانون) ليتلاءموا مع بيئتهم المستقرة (التى لا تتغير).

كان حضور بلزونى إلى وادى النيل مواكبًا للوقت الذى ظهرت فيه للدنيا للمرة الأولى أمجاد حضارة مصر القديمة، وكان ما جمعه علماء بعثة نابليون (وعرضوه فى أوروبا) قد بعث الحرارة فى علماء أوروبا، وتسبب فى تهافت المثقفين على التحف المصرية فى العواصم الأوروبية، وكان المتحف البريطانى قد تسلم لتوه حجر رشيد، كما كان اللوفر قد فرغ بالكاد من فك العبوات المحتوية على الآثار التى جلبوها من مصر، وامتلأت نفوس الناس بالرغبة الجارفة فى حيازة كل جميل غريب، فعملت المتاحف القومية على اقتناء كل ما هو فريد من نتاج المقتنيات الغريبة، وكان من الأولويات فى قوائم الشراء لدى أمناء المتاحف - التحف والآثار المصرية، ومن ثم بدأ التهافت على نتاج المدنية المصرية القديمة، وبدأت حملة شرسة هدفها نهب آثار مصر تحت دعوى الظروف الدبلوماسية أو البحث الثقافى من قبل أناس فارغين (المقصود أغنياء منعمين لكن غير مؤهلين - المترجم)، وتفاقم الوضع حتى أدى إلى التخريب، والطمع والكسب غير المشروع، وقد بدأ علم الآثار سواء فى مصر أم فى غيرها من الأمم بسلب الكنوز الأثرية، وبالتدريج تحول إلى نظام عام مسلح بالطرق والتقنيات التى عرفت فى الزمن المعاصر (القرن العشرين) وأصبحت متبعة فى تنفيذ العمل الميدانى فى مواقع الآثار، لكن عندما بدأ تطبيق هذه التقنيات الحديثة كان الكثير من تراث مصر القديمة قد فقد إلى الأبد، إما على أيدى صائدى الكنوز، أو جامعى الآثار معدومى الضمير، أو السياح الفضوليين.

لم يكن رجال حملة نابليون فى تكالبهم على جمع الآثار المصرية يشذون عن القاعدة الإنسانية فى حب التملك. وكان الأثريون القدامى - دائمًا يسيطر عليهم حب البحث عن الآثار ونهبها، أو على الأقل نقلها إلى مكان آخر حيث يمكنهم ملاطفتها وتأملها فى هدوء بعيدًا عن جوها المحلى (واضح أن كل هذا الكلام المعقد معناه استسهال زيارتها فى أى وقت)، وسرعان ما تدخلت عناصر القومية والطمع الاجوف من جانب الدبلوماسيين والحكام فى ميدان جمع الآثار، التى تمثل المدينة المصرية القديمة، وأصبحت «الموضة» الإلمام بمصر القديمة والتعرف على حضارتها المبهرة، وليس هناك شك فى حقيقة أن مصر كانت أعظم ممثل

للحضارات القديمة، كان مجتمعها قويًا متماسكًا قمع الإسرائيليين، وعانى من الأوبئة الفتاكة (الطاعون)، وصمد للمحن حتى احتل مكانًا مرموقًا فى التاريخ، ولكن ما يدعو إلى الأسف أن المعرفة عادة ما تقترن بحب التملك والتربح فى ذهن كثير من الناس.

ليس من السهل أن نوجه اليوم اللوم إلى أمين متحف أو جامع آثار فى عهد ولى منذ مائة وخمسين عاما، على مبادئ السلوكيات التى كانت تحركهم، لقد كانوا حيثما تولوا لا يرون إلا معابد تحطم وتماثيل تكسر ومقابر تنهب بحثاً عن الجواهر (الكنوز)، لم يكن الأمان متوفرًا فى مصر، لكن إذا وقعت بردية فى يد المتحف البريطانى فسوف تفض وتفرد بعناية وتنجو من التلف تحت رعاية أعظم متاحف العالم، وعلى رأى ز«واليس بادج» فإن أى مومياء تعرض فى المتحف البريطانى ستكون فى وضع أفضل كثيرًا، من نظيرتها فى مقابر طيبة المعرضة للنهب، فمثلاً لا يجرؤ أحد على انتهاك أى مومياء بالمتحف البريطانى أو تحطيمها، كانت التكتيكات الشرسة التى تجرى فى تجارة الآثار عن طريق القطاع الخاص، مع القيام بالحفائر الأثرية سرًا تحت حماية السلطة (الظاهر أن السلطة المقصودة السلطة الدبلوماسية) كان مما يمكن التغاض عنه فى مقابل عدم وجود أى وسلة أخرى (فى ذلك الوقت) لإنقاذ تراث مصر القديمة من الضياع، وقد أثار كثير من الناس السؤال الآتى: «ما حاجة المصريين لماضيهم؟»ثم إن حكومة الباشا كانت لا تكف عن تحطيم الآثار وإهدائها (للأجانب) طول الوقت، فإذا انتقلنا إلى الفلاحين لوجدناهم لا يرعون حرمة للمقابر والمعابد القديمة ولا يشعرون بالانتماء إلى مصر القديمة ـ كل ما يهمهم كان ثمن الجثث (المحنطة)، لم يكن فى مصر احساس قومى مثل ذلك الذى ثار فى اليونان عندما استولى اللورد «الجين» على الأفاريز المرمرية من بوابة البارثينون (موجودة باسمه فى المتحف البريطانى الآن)، وآمن معظم مندوبى المتاحف والسياح منذ قرن ونصف أن المصريين القدماء أنفسهم استباحوا محتويات المقابر الملكية، لقد انتهكوا أكثر الأماكن قدسية والمقابر الملكية جريًا وراء الذهب والثراء الذى يمكنهم من الحياة حياة ناجحة ومقابلة تكاليف الحياة اليومية، وهذه الخطيئة التى بدأها الأسلاف ورثها الأخلاف، وكان جامعو الآثار فى القرن التاسع عشر

ينظرون إليها بازدراء، وإنها حقًا لمعجزة أن يكون قد بقى شئ حتى الآن نتمتع به (من ذلك التراث).

أمكن لرواد الكشف الأثرى مثل بلزونى وبادج أن يستنقذوا كثيرا من النتاج الرائع للعصور الفرعونية، رغم أنه لا يمكن التغاضى عن أساليبهما البدائية العنيفة فى الحفر، وعلى سبيل المثال لا الحصر أمكن استنقاذ بردية آنى وكتاب الموتى والمخطوطات القبطية - وهى موزعة بين المتحف البريطانى واللوفر، هذا بالاضافة إلى عدد من التماثيل والمسلات والكنوز الأثرية الجميلة، وهؤلاء الرواد رغم عيوبهم وأخطائهم كان لهم الفضل فى جذب أنظار العالم إلى مصر، وإلى الاهتمام بآثارها، والإيمان بضرورة صيانتها وحفظها للأجيال القادمة ولولا جهودهم لفقدت واختفت من الوجود.

والذى يدرس تاريخ المصريات سوف تقابله أسماء عمالقة، نخص بالذكر منهم شمبليون وويلكنسون اللذان فتحا الباب للدارسين بالتغلب على مشكلة قراءة الهيروغليفية، وهناك مرييت - أيضًا - الذى بدأ حفائره فى مصر ممثلاً لمتحف اللوفر، وما لبث أن أصبح كبير الدعاة للمحافظة على الآثار وصيانتها من أجل العلم والسياحة الرشيدة، وأخيرًا وليس آخرًا لا يجب أن ننسى بيترى أول من أدخل التقنيات الحديثة فى الحفر والتنقيب عن الآثار، وأدت دعوة شمبليون العبقرى، ومرييت صاحب الحماس والحيوية إلى تأسيس متحف للآثار يحميها من النهب والتخريب، وأصبحت مصر أول دولة فى الشرق الأدنى تقوم بتأسيس المتاحف القومية لحفظ الآثار، ولا يقلل من شأنها أنها بدأت متواضعة فى أحد الحدائق الخلفية ٠ى القاهرة، ولا تأثرد فى عملها بالضغوط السياسية أحيانًا، فقد كف الدبلوماسيون بالتدريج عن إقحام أنفسهم فى مجال الآثار وعادوا للاهتمام بأعمالهم الدبلوماسية الأصلية، كذلك أصبح السياح أكثر اهتمامًا بزيارة الأماكن الا ية والاسـ تاع بالتراث وأبعدوا أنفسهم عن الانغماس فى سلب الآثار أو تعـ ييها، ٢ .لك أصبحت مصر نفسها بلدًا مهمًا فى ذاتها وأصبحت قبلة للسياح الذين أصبحرا ويزورون معالمها الأثرية كالاهرام والمعابد كجزء من البرنامج لسياحى للزيارة.

يمكن القول إن السياح والمثقفين - إلى حد ما - كان لهم دور فى إنقاذ آثار مصر، وظهر أول قانون لحماية الآثار فى مصر سنة ١٨٣٥، وكانت فعاليته محدودة لعدم توافر وسائل تنفيذه، وكان عرض آثار مصر المنهوبة فى أوروبا المنبه الذى أيقظ الرأى العام العالمى لضرورة وضع حد لنزيف آثار مصر لأنها ملك للإنسانية جمعاء - من المفارقات العجيبة، وأدركت الجماهير أن عنف مرييت فى رفض طلب أوجينى إمبراطورة فرنسا للحصول على مجوهرات أثرية تخص متحف بولاق، كان له ما يبرره، ومن جهة أخرى كانت السياحة قد تطورت إلى نشاط وتجارة ونشطت حركتها؛ لذلك تساءل المهتمون بالسياحة كيف يمكن أن تزدهر الحركة السياحية إلى مصر إن خلت من المعابد والمقابر القديمة ومن متاحف الآثار؟ وماذا يفعل السياح وماذا يزورون؟

كان المنطق المدروس والبيروقراطية البريطانية الفعالة فى مصر - فى ذلك الوقت - وراء ظهور اتجاه يرمى لتغيير بعض عادات الجمهور المصرى، وكانت سياحة آميليا إدواردز فى مصر قد تمت خلال مدة طويلة تميزت فيها الحالة السياسية بالاستقرار، وكانت مصلحة الآثار قد أخذت فى تشديد الحراسة على الآثار وتعيين المفتشين والوكلاء النابهين لحماية الآثار من النهب والتخريب، والاستيلاء عليها بطرق غير قانونية، وبالطبع لم يسلم الأمر من وجود حالات صارخة من العبث والنهب المشبوه للمقابر الأثرية، ارتبط بعضها بأسماء متاحف أوروبية محترمة، لكن الاتجاه الجماهيرى والأخلاقيات الأثرية كانت قد تحولت لصالح المحافظة على الآثار واتباع الطرق العلمية فى الكشوف الأثرية، وحتى أولئك الذين استهواهم تلطيخ الآثار بكتابة أسمائهم (أو تعليقاتهم) عليها أصبحوا يواجهون بالشجب والاستهجان لهذه الخطيئة الشنعاء، وصارت عملية نزح الاثار من مصر أكثر صعوبة، وأصبح هناك تأييد لدعم متحف الآثار بالقاهرة ليكون على رأس المتاحف التى يحتفظ فيها بالتراث المصرى القديم على مستوى العالم، وسرعان ما سوف تتكون هيئته من المصريين بالكامل* .

(*) أصبح الآن متحف الآثار المصرى مصريا بكامل هيئته.

أدت غطرسة الامبراطورية البريطانية وتعاليها إلى تنامى الشعور بالوطنية فى مصر، وحلت فى النفوس رغبة مكبوتة فى التخلص من النفوذ الإمبريالى البريطانى، وصاحب ذلك تزايد الإحساس الوطنى بالتواصل التاريخى مع الماضى، وانعكست هذه الوطنية على الاحداث التاريخية التى يعرفها الجميع، لكنها انعكست - ايضا - على رفض «الامبريالية الثقافية» التى ترمى إلى نقل خير ما فى مصر من تراث الماضى إلى بيئات أجنبية، وقد ألهب توت عنخ أمون سنة ١٩٢٢ (المقصود كشف مقبرته» الشعور ضد الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية بواسطة الأجانب، على الرغم من تخلى عائلة اللورد كارنرفون عن محتويات مقبرته للمتحف المصرى، وفى عشرينيات القرن العشرين بدأت تقل بالتدريج فرص الكشف الأثرى أمام الأجانب، وفى الوقت نفسه بدأت الخلافات بين المتحف المصرى والمتاحف الأجنبية تزداد حدة لرفض المتحف السماح بنقل الآثار للخارج، لكن الخلافات خفت حدتها بعد مدة ورأت مصر من المصلحة أن تستأنف السماح للأثرين الأجانب بمعاودة الاستكشافات الأثرية، وهذه المرة كان السماح مشروطًا فى ظل ظروف جديدة وتحت السيطرة المصرية.

تغيرت فى وقتنا الحالى الأجواء الفكرية بالنسبة للآثار بحيث أصبحت عاملاً فى زيادة الانتماء القومى، وأصبح الناس أكثر إدراكا لأهمية الآثار والوعى بإدراك بما يمكن أن يؤدى إليه التنظيم فى مجال الدراسة الصحيحة للجنس البشرى، ويوجد تراث مصر القديم - الآن - مبعثرًا فى كثير من الدول، وتتراكم التوابيت والتماثيل المصرية القديمة فى مخازن المتاحف وأروقتها وقد علتها الأترية، وكانت هذه الآثار أصلا من مقتنيات هواة جمع الآثار، تنازلوا عنها بعد ذلك للمتاحف، وجاءت نتيجة تكثيف الحفائر فى مواسم قصيرة يقومون (هواة الآثار) بتمويله، وكان اهتمامهم بالكم - دائمًا - فوق اهتمامهم بالكيف، وحل محل هذا العبث الذى استمر خمسين عامًا موجة من الإتجار فى الآثار بطرق غير قانونية يحكمها مبدأ العرض والطلب لاستيفاء رغبات المتاحف والعملاء الاثرياء، هذه الظاهرة سجلها الصحفى المعروف «كارل ماير» فى كتابه «الماضى المنهوب The Plundered Past» واستهجنها، وأدان هذا العمل الذى تمتد جذوره إلى بلزونى

ومن يشاكلونه، والكتاب بشبه عريضة دعوى ضد التخريب الذى ينال آثار مصر فى القرن العشرين، ويصف «ماير» الوعى الجماهيرى بخطورة المشكلة بأنه مفقود «فى درجة الصفر»، ويقول إن ذلك سببه سهولة تفهم أهمية الآثار للبشرية من الوجهة النظرية، وصعوبة تكوين وعى أثرى لأن المشكلة نادرًا ما تثار فى الصحف، ويخلص المؤلف إلى أنه من الصعب إقناع دافعى الضرائب بجدوى الصرف على تمويل الكشوف الأثرية على حساب أولوياته الأخرى.

حدت الحكومة المصرية من السماح بالتنقيب عن الآثار، متبعة فى هذا الصدد سياسة قومية، لكنها كانت تصرح أحيانًا ببيع الآثار المكررة التى لها نظائر بمتاحفها، ولا تألو جهداً فى الاتصال بالمؤسسات الخارجية لصيانة ما لديها من تراث مصر الفرعونية والمحافظة عليه، ورغم ذلك لم يتوقف السطو على المقابر ولا التخريب فى معبد دندرة، ومازال اللصوص يبحثون عن البرديات، وما زالت تجارة الآثار بصورة غير قانونية موجودة، وهذا كله ممكن فهمه، فدأب المتلاعبين - دائمًا - الخروج على القانون، سواء فى الآثار أم فى غيرها، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله... والمهم أن قطاع الآثار - حاليًا - تحت السيطرة الحكومية.

لتشجيع السياحة والحفاظ على الماضى، توجه المصريون بنداءاتهم إلى العالم كله لأن التراث ملك للبشرية جمعاء، وعند بناء السد العالى تم الاتصال بالهيئات الدولية وجرت محاولة تحت إشراف اليونسكو لإنقاذ معبدى أبى سنبل وآثار النوبة من الغرق خلف السد تحت بحيرة ناصر، وقام مئات من الأثريين بتمشيط المنطقة التى سوف يغرقها السد وهى آلاف من الأميال المربعة، وأفلح النداء الذى وجه للعالم فى زيادة الاعتمادات، لنقل تماثيل معبد رمسيس الثانى إلى موقع جديد عال مرتفع عن مستوى ماء بحيرة ناصر وقد تولى التنفيذ هيئات دولية استعانت بالمقاولين والأثريين وجاءت النتيجة باهرة تمامًا، والآن، مازالت الشمس تشرق على باب المعبد الأصلى كما كانت أيام بلزونى وصحبه، وإن كان المكان غير المكان، والكاشف وقراه قد اختفت إلى الأبد، وقد كوفئ المشرفون على النقل بالسماح لهم بالاحتفاظ ببعض الآثار الصغيرة التى

وجدوها، ومما يقلل من حدة المشكلة أن المواقع الأثرية التى لم يمكن انتشالها سجل معظمها بدقة قبل ان يندثر إلى الأبد.

بعد ذلك نفذت منظمة اليونسكو مشروعًا طموحًا، هو إنقاذ معبد إيزيس بفيلة بنقله من موقعه الأصلى الذى كان يتعرض للغرق سنويا. منذ انشاء سد أسوان القديم، وقد أمكن للمهندسين بناء صورة طبق الأصل من الجزيرة الأصلية نقلوا إليها محتوياتها قطعة قطعة إلى مكانها نفسه (الملخص أن جزيرة فيلة بما عليها قد استنسخت بكاملها)، والآن ليس هناك من يعرف عن فيله الأصلية أى شئ، أما العالم فأسعده هذه النسخة منها حيث حافظت على التحفة المعمارية الرائعة (المعبد) سليمة.

لكن مشروع السد العالى له سلبياته، فقبل ذلك كان ماء الفيضان يغسل التربة ويمدها بالخصب، ولكن بعد السد ازدادت ملوحة التربة، وظهر تأثيرها على المحاصيل وعلى المعابد أيضًا، وهناك جهود تبذل من عدة مؤسسات نخص بالذكر منها مؤسسة جيتى The Getty Inst ومعهد الدراسات الشرقية: The Oriental Inst. التابعة لجامعة شيكاغو (أسسها جيمس بريستيد)، هذه الجهود هدفها تسجيل النقوش وترميم المعابد، للحفاظ على ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان، وهذا للأسف سباق ضد الزمن وليس فقط ضد لصوص الآثار، فتغير المقننات المائية لها تأثيرها على المدى القصير والطويل. حيث تزيد الملوحة فتؤدى إلى تدهور حالة الآثار، هذا بالإضافة إلى كثافة السياحة إلى هذه الأماكن وما تنطوى عليه من سلبيات.

أثرت طائرات الجامبو على النسيج السياحى المصرى وأدت إلى تغيير جذرى فى النمط السياحى، فقد كان السياح حتى ستينيات القرن الحالى (العشرين) يستعملون وسائل بطيئة نوعًا كالسفن والطائرات المروحية وطريق قناة السويس، فمنهم من كان يمضى أيامًا قليلة فى السياحة، ومنهم من كان يقضى الشتاء كله فى مصر، لكن النمط الذى أصبح سائدًا - الآن - هو السياحة الكثيفة السريعة، لذلك صار ضغط الزوار ثقيلا على الأقصر والكرنك ودندرة ووادى الملوك، وهذا

وضع مـرهق بالنسبـة لموظفى الآثار، ومـن سلبيـات الزيارات الكثـيفـة أنهـا بدأت تتسبب فى ظهور تلفيات فى المعابد والمقابر، من ذلك أن ألوان نقوش مقبرة سيتى أخذت تبهت، فـأغلقت فى وجه الزائرين لتـرميمهـا، والمفـروض للمحـافظةعلى الآثار أن تغلق إلى الأبد عـشـرات من المواقـع الأثرية مـثل وادي الملوك ولا يسـمح للجمهور بارتيادها، ولكن ذلك سوف يكون له تأثيـر سلبى على الحركة السياحية، وهكذا يجـد المشـرفـون على قطاع الآثار أنفسـهم بين نـارين ـ نار المحافظة على التـراث، ونار تشـجـيع السـيـاحـة وتنمـيـة الاقـتـصـاد، ووسط هذه الحـيـرة يقف المسـئـولون عـن الآثار وأيديهم عـلى قلوبهـم حـائرين خـوفًا على تراث مـصـر الخالد*.

يشاع أن المصريين القدماء لديهم قوة سحرية تسرى فى كل مكان فيما يعرف بسحـر الفـراعنة؛ لذلك افتتن الناس عندمـا سـمحت مصـر فى سبعينات القـرن العشـرين بعمل معـرض مـتجول لمجموعـة قيمـة من آثار توت عنخ آمون، وكانت صنوف الزائرين تتكدس خارج أمـاكن العـرض مثل المتـحف البـريطانـى والمتحف الإقليمى بلوس أنجلوس ومتـحف الفنون بسياتل (الأخيران أمـريكيان)، فاضطـرت المعـارض لعـمل سـيـاجـات تنظم مـرور الـزائرين وتقلل مـن زمن الزيـارة بقـدر الإمكان، وفى هذه المناسبة دعى المئات من الأثرين الذين لديهم علم بالكشف عن هذه الكنوز لإلقـاء مـحـاضـرات عـامـة عنهـا، وكـان إقبـال الجـمـهـور على هذه المحـاضرات كثيفـا، إذ قدر عـدد من حضرهـا فى شهـر واحد بنحو ثمانيـة عشـر ألف شـخص. لذلـك أطلق علـى هـذه الظـاهـرة الاجـتـمـاعـيـة الفـريدة توتمانيـا Tutmania، بعد ذلك ببضـع سنـوات أقيم معـرض مـحدود لـرمسيس الثانى شهد هو الآخـر إقبـالا منقطع النظير، وسحـر الفـراعنة اصطلاح غـامض لم يفسره أحدا تفـسـيـرًا مـقـنعًا حتى الآن، أهذا مـثـلا مـا يشـاع من أن هناك مـا يسـمى «قـوة الاهـرام» إذ يعتقـد البعض أن هـذه الصـروح الجبارة قـادرة علـى الوصول بالمشاهـد إلى قمة السكون النفسى (حالة النرفانا)؟ أم هـذا تأثير المومياء ولفائفها الكثيفة (أى تأثـيـر كـيـمـاوى)؟ أم هـذا تـأثيـر الـذهب الكثيف الذى يغطى توت عنخ أمـون

(*) يتبع المجلس الأعلى للآثار حاليا تبادل إغلاق مقابر وادى الملوك لفترات محددة بالتتابع.

نفسه؟ أم هذا مجموع الحضارة المصرية نفسها تلك الحضارة الغربية عن الأوروبيين، والتى ولدت لديهم الاعتقاد بأنها تفسر الحياة نفسها، أيًا كان السبب فى تفسير هذا السحر فإن افتتان الناس بالآثار المصرية والتكالب على اقتنائها أحد العوامل التى تسهم فى تخريب المتبقى من أثار هذه المدنية الفذة بين المدنيات القديمة.

لم يخف على متاحف العالم أمر افتتان الناس بمصر وآثارها، والجمهور بطبيعة متقلب المزاج ولابد من العمل على اجتذابه والتنافس عليه مع وسائل الترفيه الأخرى.

ومصر القديمة تعتبر ورقة رابحة فى أيدى المعارض. فعندما أهدت مصر للولايات المتحدة معبد دندور تقديرا لجهودها فى إنقاذ آثار النوبة تنافست عليه ثلاثة متاحف للفنون هى: متحف المتروبوليتان (الشهير فى نيويورك) ومؤسسة سميت سوينان وأخيرا أسرة كيندى - وكانت تنوى إقامته بجوار شواطئ البوتوماك الرطبة الباردة بجوار مجمع كيندى، ثم استقر أخيرا فى متحف الميتروبوليتان، وفى الوقت الذى فاز فيه هذا المتحف بالمعبد كان قد فرغ لتوه من بيع آثار مصرية خفيفة: مومياوات وجعلان وخرز وفخار من نتاج حفائر سابقة، وهذا التصرف بالبيع رغم مشروعيته أسخط المصريين لأن فيه إهدار لماضيهم، فهل كان واليس بادج محقا فى قوله إن المومياوات فى المتحف البريطانى «فى الحفظ والصون»؟ حتى الآن يعتبر قوله صحيحا، ولكن لاندرى ماالذى سيحدث مستقبلا فى دنيا لم يبق فيها من التراث الفرعونى سوى القليل للدراسة أو للتمتع به.

فى الوقت الحالى كاد الطلب على شراء الآثار المصرية ينعدم، لأن اسعارها قد ارتفعت بصورة خيالية، ثم كيف لنا أن نتصور أن يزدهر سوق الآثار إذا اعتنق الناس أفكارا مثل أفكار أندريه إمريش الذى وقف ليعلن على الملأ أن «الولايات المتحدة - دون غيرها - هى التى لها حق الوصاية على الفنون البشرية كلها «حقا إننا نعيش في زمن العلم والاستنارة إلا فى عالم الآثار وإذا استمر الحال فربما يفقد الناس اهتمامهم بها فتنعزل مصر القديمة وينالها النسيان، ولكن هيا بنا

نشارك شمبليون فى قوله: «مصر هى مصر. دائما وفى كل مراحل تاريخها، دائما عظيمة، ودائما جبارة: فى فنونها وقدرتها على التنوير، وفى كل العصور تتلألأ مصر... وبنفس العبقرية. أما نحن فينقصنا شئ واحد لنشبع غريزة حب الاستطلاع فينا، ذلك الشئ هو معرفة منشأ المدنية نفسها وتطورها».

وبعد فهل ما كتبناه فى هذه الصفحات يشبع حقا غريزة حب الاستطلاع التى ذكرها شمبليون... أشك فى ذلك..

انتهى

شكر وتقدير

كان النجاح الذى صادفته الطبعة الأولى من هذا الكتاب «السطو على النيل» مثار دهشة بالنسبة لى، فقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات وتلقيت مكاتبات عديدة عنه من شتى أنحاء العالم، ولا يسعنى سوى شكر كل من أجهد نفسه بالكتابة إلى معلقًا أو مبديًا ملاحظاته، ولا يفوتنى أن أشير إلى السيدة الفاضلة التى كتبت إلى مؤكدة أنها سليلة مباشرة للربة عشتروت ولجيوفانى بلزونى.

وأبث شكرى لكل الزملاء والأصدقاء الذين أعانونى بآرائهم أثناء إعدادى للطبعة الثانية من الكتاب، وعلى الأخص عدد من علماء المصريات تابعوا النص وأتحفونى بآرائهم فيه، وإنى لأعتبر أهتمامهم بالكتاب فى حد ذاته تقريظ فكرى لى، وإنى أعتبر أن الكتاب قد صمد فى اختبار الزمن، وقد قمت بإجراء تعديلات طفيفة فى السرد، وبتصحيح هجاء بعض الأسماء المصرية، كذلك أبعدت تحديث الفصل الختامى، كما جددت المصادر بعد الاطلاع على أحدث المؤلفات فى علم المصريات.

يستحق منى «بريت بيل» من مؤسسه مويربل جزيل الشكر لأنه صاحب اقتراح اعادة طبع الكتاب، وكان هو المتولى لتنظيم الإنتاج والنشر.

أما خريطة الكتاب فقد رسمها ستيفن براون، وأود أن أنوه بمساعدى الدائم فيكتور بريور على قوة تحمله ونصائحه الحكيمة التى أسداها إلى، كذلك أحب

أن أشير إلى أن هذا الكتاب لم يكن من المتيسر صدوره لولا المعاونة التى بذلتها لى مكتبة جامعة كليفورنيا.

لا يمكن إلا لمن درس علم الآثار المصرية أن يدرك إلى أى مدى هو مدين لمؤلفات من سبقوه فى علوم المصريات، وإنى لاعترف بفضل المؤلفين الذين كتبوا عن بلزونى وأقرانه، وأخص بالذكر من بينهم «سيرام وجرينر ومايز» وورثام، ثم أذكر أخيرًا مئات غيرهم متخصصين وهواة ممن باشروا العمل الأثرى بأنفسهم فى وادى النيل.

المؤلف

المصـــادر

رجعت إلى المئات من الكتب والمقالات والدوريات لتأليف هذا الكتاب وقد تكون المراجع الأساسية لهذا البحث ذات أهمية لدى من يريد التعمق بدرجة أكبر فى مجال المصريات، وللاختصار التزمت بقدر الإمكان بذكر المصادر الصادرة بالإنجليزية.

GLOSARY

المفـــردات

يركز التوضيح على الآلهة المصرية والمصطلحات والصنايع، ولا ننوى التوسع فى ذلك، ويمكن الرجوع للببلوجرافيا لمن يريد التوسع فى ذلك.

منذ الطبعة الأولى تغير معنى الكلمات المألوفة فى الاستخدام الدارج، وفيما يلى هجاء أهم المصطلحات.

ملحوظة: سنعنى - هنا فقط - بالكلمات المشروحة ونهمل الهجاء بدون شرح لأنه مأخوذ من العربية مباشرة.

المترجم

تميمة. تعويذة. حجاب **Amulet**

تستخدم كرقية أو وسيلة للحماية بطريق السحر سواء فى الحياة أم الممات والتمائم كانت أشكالها متنوعة وعادة توضع بين اللفائف التى تغطى المومياوات.

آمون **Amun**

إله الشمس. ارتفعت عبادته للصدارة فى الدولة الحديثة، وكان فى الأصل إلها محليا فى طيبة، وأصبح كبير الآلهة فى الأسرة١٨، وكان مقره معبد الكرنك الكبير.

عنخ **Ankh**

هو الرمز الهيروغليفى لكلمة «حياة»، وكان الآلهة يحملونه عادة، له تأثير سحرى مهم، تصور على شكل وجه الخف (الصندل)، والسبب أن كلمة صندل فى المصرية القديمة كانت تنطق مثل كلمة حياة، وهذا هو سبب الربط بينهما فى الرسم الهيروغليفى.

آتون (قرص الشمس) **Aten**

الفرعون المارق أخناتون من الدولة الحديثة نادى بعبادة قرص الشمس عبادة وحيدة باعتبارها مصدر قوة الكون.

عجل أبيس **Apis**

العجل المقدس الذى يعتقد أنه يحتوى أوزوريس، وعجل أبيس من آلهة الخصوبة، وانتشرت عبادته فى الدولة الحديثة والعصر المتأخر، وكانت له مواصفات خاصة فيجب أن يكون لونه أسود وله علامات خاصة على أجزاء معينة من جسمه، وكانت عجول أبيس فى العصور القديمة يضحى بها وتذبح فى احتفال مهيب وتدفن باحترام فى السيرابيوم بمنف.

باستت Bastet

إلهة المرح تحمل رأس قطة.

بس Bes

الإله القزم، إله الموسيقى والبهجة والزواج والرقص، وهو إله، منزلى ويعتبر. أيضًا ـ من آلهة الخصوبة.

تل بسطة Bub

مدينة فى الوجه البحرى يعبد سكانها الربة القطة، وبها جبانة خاصة لدفنها، وهذه الجبانات بها مئات من القطط المحنطة.

الأغلفة Cartonnage

أغلفة أقنعة الرأس والتوابيت كانت من الكتان المغطى بالجص الذى كان يطلى بعد ذلك ويموه بالذهب.

الخرطوش Cartouche

إطار رمزى من الحبال يكتب داخله اسم الفرعون، والخرطوش يرمز لسيادة الفرعون على العالم (نعرفه بالخاتم وكان على شكل الحبل).

نصوص التوابيت Coffin texts

أقوال سحرية (أي عبارات لها مفعول سحرى) كانت تنقش داخل التوابيت الخشبية فى الدولة الوسطى، ومفعولها وقاية الميت فى الحياة الآخرة.

القبطية Coptic

آخر أشكال اللغة المصرية القديمة، وتستخدم فى كتابتها الحروف اليونانية وبعض الرموز الجديدة، واستمر استعمال اللغة القبطية حتى العصور الوسطى،

ومازالت تستعملها الكنيسة القبطية، والكلمة منسوبة لها (أى للكنيسة القبطية ومعتنقى مبادئها القبط - المترجم).

المتصل Cursive Scripts

فى الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية المتطورة عن الهيروغليفية، كان يستخدم قلم البسط حيث ينساب الحبر على سطح البردى أو الخزف (أى يتشابك).

الدهبية Dahabiyah

نوع من السفن النهرية كانت تستخدم لنقل المسافرين والبضائع الثقيلة، وكان السياح يؤجرونها (للسفر النيلى) فى القرن ١٩ (وهى تشبه الفندق العائم - المترجم).

الخط الديموطيقى Demotic Script

خط متشابك متصل الحروف تطور عن الهيروغليفية فى القرن السابع الميلادى، كان يستخدم فى المعاملات اليومية الجارية لتسهيل الشئون الإدارية، وكان منتشرا مع الهيراطيقية والهيروغليفية.

الأسرة Dynasty

قسم الكاهن المؤرخ مانيثون تاريخ مصر على أساس أسرى، وهى كلمة لاتمت إلى معنى الأسرة بصلة كبيرة، لكن المشتغلين بالمصريات يستخدمون الاصطلاح حتى الآن للتبسيط وتسهيل الفهم.

خزف مزخرف Faience

نوع خاص من الاوانى المزججة يصنع من الكوارتز المطحون بعد تلوينه، واللون الغالب عليه الأزرق المائل للاخضرار.

الفيوم Fayyum

منخفض على شكل بركة تكون فى العصر الجليدى فى غرب النيل، وكانت تروى أثناء الدولة الحديثة وسكن الفيوم قوم من أوائل من اشتغلوا بالزراعة فى مصر يرجع تاريخهم إلى قبل سنة ٦٠٠٠ ق.م.

حتحور Hat-Hor

إلهة الموسيقى والحب والرقص وتبدو فى الغالب على شكل بقرة، وتعتبر حتحور مربية ملك مصر، كما أنها من إلهات السماء. وكثيرًا ما يربط بينها وبين إيزيس كأم لحورس (لعل المقصود أنها مربية حورس فهى فى مقام أمه - المترجم).

الخط الهيراطيقى Hieratic script

خط متشابك (متصل) متطور عن الهيروغليفية استخدم فى كتابة الوثائق القانونية وفى مجال الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه فى ذلك الخط الديموطيقى.

الهيروغليفية «النقش الهيروغليفى» Hieroglyphs

كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور حولى سنة ٣١٠٠ق.م، ظلت مستخدمة حتى العصر الرومانى وهى مزيج النطق (خواص الصوت أى الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساسا فى كتابة النصوص الدينية والأدبية.

حورس Horus

أطلق هذا الاسم على آلهة كثيرة، وكان هناك إله سماوى - قديمًا على شكل صقر يحمى الفرعون، وحورس (حارويريس) كان زوجا للإلهة حتحور، أما حورس (حرسا إيزة) فكان ابنا لإيزيس وأوزيريس، وحاول أخذ ثأر أبيه الميت

بمحاربة الإله ست، أما حورس السماوى - حرماخيس - فتجسيد لمشرق الشمس، ورمز الحياة الخالدة.

بهو الأساطين Hypostele

كان بالمعابد المصرية القديمة بهو أو أكثر من الأبهاء المعمدة، وأقرب وصف لها أنها كانت مهيأة للتشريفات، وتتميز بكثرة الأساطين التى تدعم السقف، وهذه الأساطين ذات أشكال نباتية عادة.

إيزيس Isis

زوجة أوزوريس، رمز الوفاء للزوج (الزوجة المخلصة)، فهى الزوجة المثالية والأم والإلهة الممثلة للأمومة، كانت أخت زوجها أوزيريس، وابنها حورس الصغير الذى يصور كثيرًا جالسًا فى حجر أمه.

الكا Ka

الروح الحية للإنسان التى تستمر فى الحياة بعد موت الجسد، تتركز فيها روح الإنسان، وترعى نسله بالغذاء والشراب فى المقبرة طويلا بعد الوفاة. وتعتبر المقبرة «بيت الكا».

لازورد Lapis Lazuli

حجر نصف نفيس (شبه كريم) كان المصريون القدماء مغرمين به، كان يستخدم كجوهر فى التطعيم، وكان يستورد من أفغانستان.

مصر السفلى . الوجه البحرى Lower Egypt

الجزء الشمالى من مصر بما فيه الدلتا، وكانت تعرف «بأرض رع»، وكان الفراعنة يلبسون التاج المزدوج الذى يرمز للوجهين البحرى والقبلى.

ماعت Ma'at

إلهة الصدق والعدالة، حاملة ميزان العدل والنظام فى الكون، وهى رمز السلوك السوى للإنسان، وفى يوم الحساب توزن ريشة ماعت مقابل روح الميت لتقييمه.

المقمعة Mace

كانت المقمعة ذات الرأس الحجرية من رموز السلطة فى مصر القديمة.

الملاخيت Malachite

نوع من كربونات النحاس يوجد بسيناء والصحراء الشرقية.

كان يستخدم كصبغة للعين وأغراض التلوين بصفة عامة.

مانيتون Manetho

كاهن من القرن الثالث الميلادى اشتهر بكتابة «تاريخ مصر» لم يصلنا منه سوى مقطتفات/ ويحتوى تاريخه على الثلاثين أسرة فرعونية التى نعرفها الآن.

مصطبة Mastaba

مقبرة مستطيلة جدرانها مائلة ميلا طفيفا، كانت تستخدم كمقابر للنبلاء فى الجيزة وسقارة أثناء الدولة القديمة، تشتهر بزخارف جدرانها.

معبد جنازى Mortuary Temple

معبد مخصص لأداء الطقوس التى تضمن استمرار حياة الفرعون المتوفى وطقوس ترحيب الفراعنة به بينهم، ومساواته بأوزوريس.

وكان كل فرعون له معبد جنازى خاص به - هو فى العادة جزء من مجمعه الجنازى (مجمع الدفن أو المجمع المقبرى)، والهرم أحد أشكال المجمع المقبرى، ثم

انفصل المعبد الجنازى (الجنائزى) بعد ذلك وصار وحدة مستقلة. كما فى وادى الملوك.

موومياء Mummy

اصطلاح يعلق على الجثث المحنطة وكانت أحشاء الميت الداخلية تزال «تحفظ مستقلة»، أما الجسد فكان يجفف بالنطرون هو مركب كيماوى طبيعى من كربونات وبيكربونات الصوديوم، بعد التجفيف كانت الجثة المحنطة تعطر وتغلف بالكتان تغليفا كثيفا.

حضارة نقادة Naqada Culture (Nekadeh)

حضارة زراعية كانت موجودة قبل الأسرات فى منطقة طيبة، انتشرت فى وادى النيل قبل سنة ٣٥٠٠ ق.م.

جبانة Necropolis

كلمة يونانية تعنى «مدينة الموتى» وهى منطقة تكون عادة عند حواف الصحارى بعيدا عن الأرض الخصبة التى تحفظ للميت.

إقليم Nome

الأقاليم أسماء تطلق على المحافظات المصرية القديمة، وكان يحكمها حكام كان لهم نفوذ كبير عندما تضعف السلطة المركزية.

مسلة Obelisk

حجر طويل مستدق يشبه القلم رأسه هرمية الشكل، كانت على علاقة بعبادة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها.

أوزوريس Osiris

أشهر الآلهة المصرية. ويعتقد أن أوزوريس أدخل المدنية إلى مصر، وكان زوج الإلهة إيزيس، واغتاله أخوه ست الذى قطع جسده ودفنه فى أجزاء متفرقة من مصر، جمعت إيزيس أشلاء زوجها وعظامه ثم حملت منه (بطريقة سحرية) وأنجبت حورس الصغير، عندما شب حورس قاتل عمه ست وانتصر لأبيه، وعبادة أوزوريس الأمل فى الحياة بعد الموت.

بردى Papyrus

نبات نيلى كان منتشرًا بالدلتا، وكان يستخدم فى عمل الحبال والأخفاف (الصنادل) والسلال وغيرها، لكن أهم استعمالاته كانت كورق للكتابة، وكان يصنع من اللحاء بفرده ولصقه ليعطى صفحات بيضاء رقيقة.

صدرية Pectoral

حلية صدرية جميلة تعلق على الصدر بسلسلة أو سلك، تقى حاملها بطريقة سحرية.

بتاح Ptah

الزوج الإلهى للإلهة سخمت، راعى الصناع، ارتبط فيما بعد بأوزوريس.

صرح Pylon

برجان يحرسان المدخل الرئيسى للمعبد المصرى القديم.

هريم Pyramedion

الشكل المدبب لطرف المسلة ويشبه الهرم الصغير، وكان - عادة - يغطى بالذهب أوالفضة، وله سطح عاكس لأشعة الشمس عند الشروق وعند الغروب.

متون الأهرام Pyramid Text

أقدم النصوص الدينية فى مصر، منقوشة فى أهرام فراعنة الأسرة السادسة فى سقارة، والمعتقد أنها مستمدة من المعتقدات الدينية التى كانت سائدة قبل عصر الدولة القديمة (ظهرت أول مرة فى هرم أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة - المراجع).

رع Re

الإله الذى يرمز للشمس، أصل الآلهه وملكها، خلق البشر، كانت هليوبوليس مركز عبادته، كان المصريون يعتقدون أن الفرعون الميت يرافق رع فى سفينة يجوب بها السماء.

ساقية Saqiya

آله الرى المعروفة. دخلت مصر فى العصرين اليونانى الرومانى.

تابوت حجرى Sacrophagus

صندوق حجرى يقى المومياء، كان - فى العادة - يطعم بعينين يستعين بهما الميت على رؤية ما بالخارج.

جُعل. جعران Scarab

نوع من الأختام يصنع من الخزف أو الحجر الجيرى أو حجر الحية (الصابونى)، يشكل على شكل خنفساء جناحاها مضمومان يختم به الرسائل والجرار باسم صاحبها، معروف عن الخنافس أنها تدفن بيضها فى الرمال، لذلك فهى تظهر فجأة، لذلك اعتبروها رمز للخلق الذاتى (أى التولد الذاتى)، واعتادوا وضع جعل كبير بين لفائف الميت لاعتقادهم أنه يجدد حياة الميت باستمرار.

سخمت Sekhmet

الإلهة ذات الرأس الأسدية، إلهة الشفاء، زوجة بتاح، الراعية للأطباء والمرضى وهى ـ أيضا ـ سيدة الصحارى والقوة المدمرة لأعداء الفرعون.

سيرابيوم Serapeum

مجمع تحت الأرض يتركب من سراديب طويلة فى سقارة بجوار منف وجد به مرييت ٦٤ من عجول أبيس المقدسة مدفونة هناك.

سيرابيس Serapis

إله مركب يجمع بين أبيس وأوزوريس. اخترعه اليونانيون فى منف فى العصر البطلمى.

ست أخو أوزوريس Seth

إله الشر، هزمه حورس آخذاً بثأر أبيه أوزيريس.

شادوف Shaduf

آله رى معروفة تتركب من جردل مربوط إلى ذراع خشبية يرفعها ثقل مناسب من الخلف للرى، من أقدم وسائل الرى بمصر ومزال يستخدم حتى الآن.

شوابتى. أو شابتى Shawabty (ushabti)

معناها «المجيب» أى حاضر السمع والطاعة، وهى تماثيل خشبية أو خزفية توضع فى المقبرة لتقوم مقام العبيد فى خدمة السيد صاحب المقبرة «فى حقول أوزوريس» فى الحياة الأخرة.

أبو الهول Sphinx

اصطلاح مأخوذ من التعبير المصرى شسب عنخ Shesep ankh ومعناه «الصورة

الحية» تمثل قوة وسلطة الفرعون، تمثال رأسه بشرية وجسده جسم أسد ضخم رابض، وهو حامى الخير وطارد الشر.

قرص الشمس Sun disk

هو مصدر الحياة للمصريين، والشمس الكاملة هى «رع».

تحوت Thoth

إله برأس أبو منجل، راعى الكتابة (إله الكتابة) والقراءة والحساب والكتبة، وهو كاتب الآلهة وله دور كبير يوم البعث والحساب.

وزير Vizier

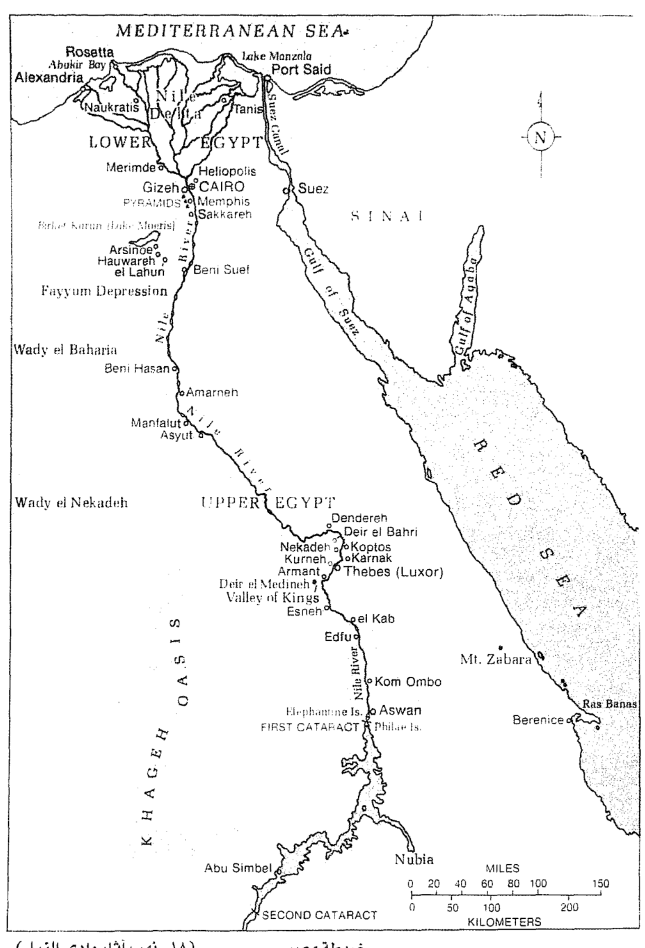
حاكم مصر كلها (نيابة عن الفرعون)، فهو الشخص التالى فى الأهمية للفرعون، كان فى العادة من الأسرة المالكة ووظيفته إدارة المملكة.

انتهى

ملحوظة

ليس هناك اتفاق مطلق على نطق الأسماء الفرعونية بين علماء المصريات. وقد استقر رأينا على استخدام طريقة وليام هايز W. Hayes كما وردت فى صولجان مصر The Scepter of Egypt، بمتحف المتروبولتيان بنيويورك سنة ١٩٥٣، وذلك لذيوع أسلوبه فى التهجى.

ملحق الصور

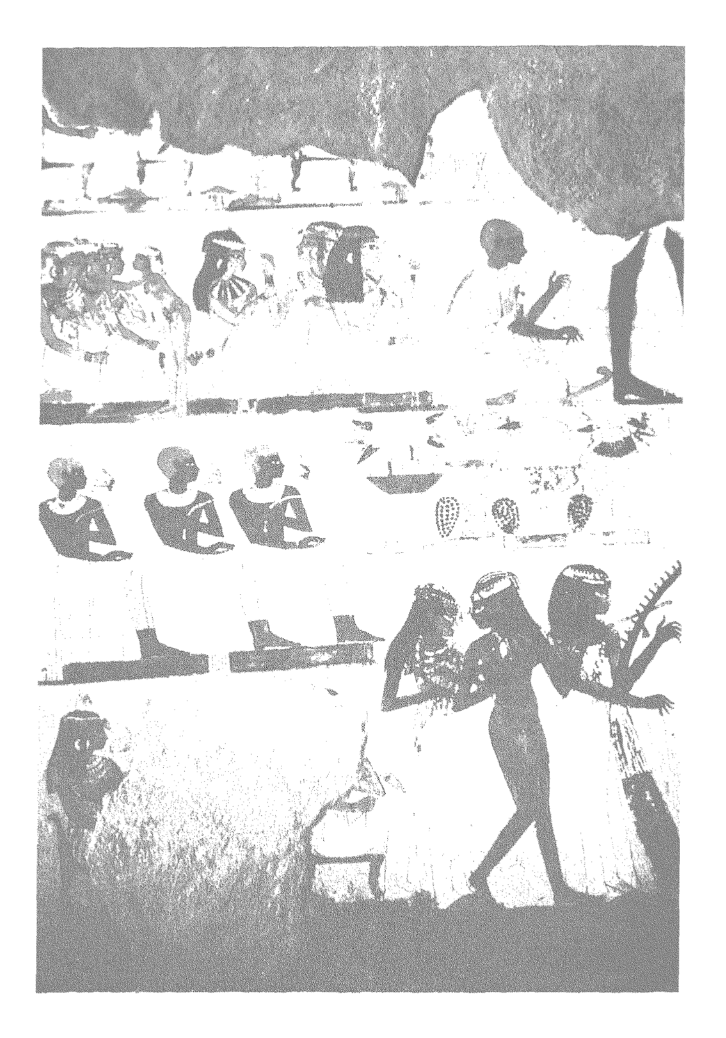


MEDITERRANEAN SEA
Rosetta
Abukir Bay
Alexandria
Lake Manzala
Port Said
Naukratis
Nile Delta
Tanis
Suez Canal
LOWER EGYPT
Merimde
Heliopolis
Gizeh
CAIRO
PYRAMIDS
Memphis
Sakkareh
Arsinoe
Hauwareh
el Lahun
Beni Suef
Fayyum Depression
Suez
SINAI
Gulf of Suez
Gulf of Aqaba
Nile
River
Wady el Baharia
Beni Hasan
Amarneh
Manfalut
Asyut
Nile River
Wady el Nekadeh
UPPER EGYPT
Dendereh
Deir el Bahri
Nekadeh
Koptos
Kurneh
Karnak
Armant
Thebes (Luxor)
Deir el Medineh
Valley of Kings
Esneh
el Kab
Edfu
Nile River
Kom Ombo
Elephantine Is.
Aswan
FIRST CATARACT
Philae Is.
RED SEA
Mt. Zabara
Ras Banas
Berenice
KHAGEH OASIS
Nubia
Abu Simbel
SECOND CATARACT
MILES
0 20 40 60 80 100 150
0 50 100 200
KILOMETERS
N

خريطة مصر.



وادى الملوك.





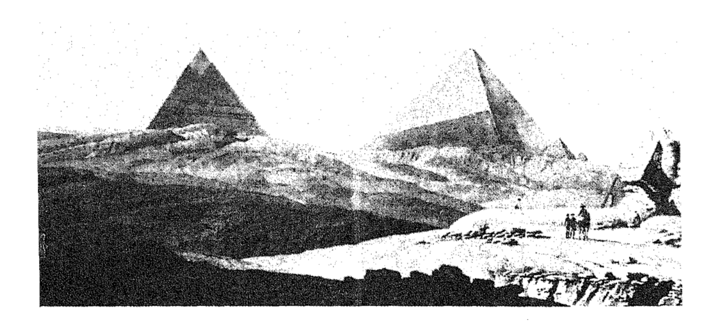
منظر لاحتفال تظهر به عازفات مقبرة نخت.

مومياء ملكية

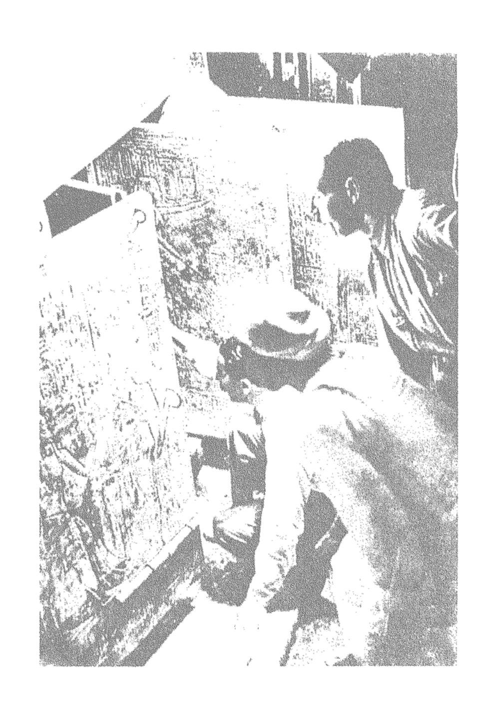
التابوت الداخلى لتوت عنخ أمون.



رمسيس الثانى
(تمثال بمتحف تورين).



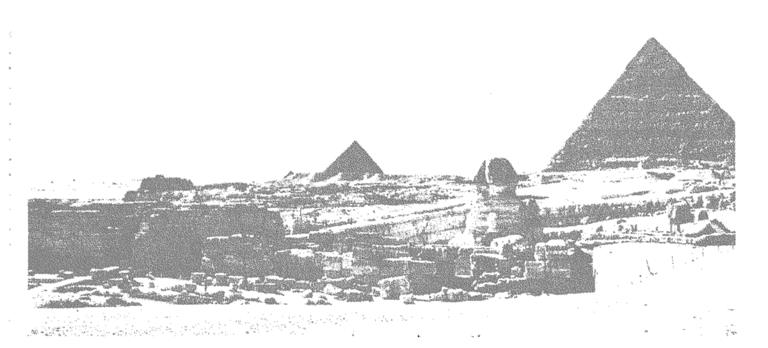
أهرام الجيزة وأبو الهول عند الغروب، عن وصف مصر.



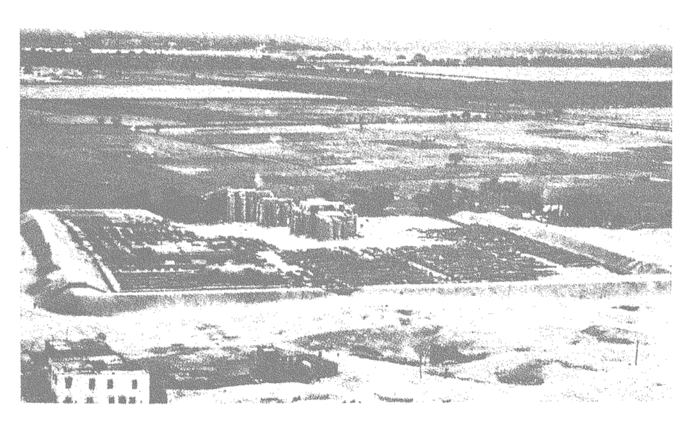
هوارد كارتر يشرف على افتتاح غرفة دفن توت عنخ آمون.

صخور نيلية.

نقش جدارى بارز بمعبد سيتى الأول بأبيدوس: بالصورة رمسيس الثانى، وأحد الأمراء يقيدان ثورا.



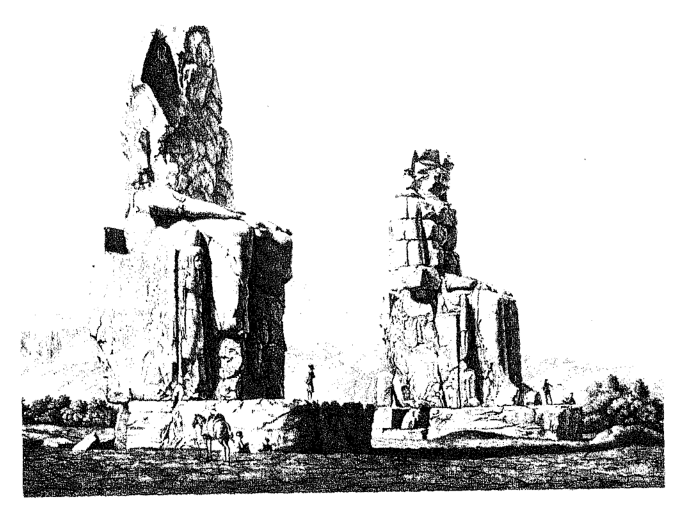
أهرام الجيزة وأبو الهول فى العصور الحديثة.



معبد الرمسيوم بطيبة.

تماسيح نيلية: «مخلوقات جبانه وخجولة، ويقال إنه يمكن إبعادها بصفير البواخر المزعج».

الكرنك : بهو الأساطين: بهو استقبال للملكين سيتى الأول، ورمسيس الثانى.



تمثالا ممنون الضخمان بطيبة، عن وصف مصر.

ΒΗΧΕϹΕΦΩΝΗΕΝΤΑΘΕΑ ΡΟΔΟΔΟΔΑΚΤΥΛΟϹΗΩϹ

ϹΗΜΗΤΕΙΡΚΛΥΤΕΜΕΜΝΟΝΕΕΑΔΟΜΕΝΩΜΟΙΑΚΟΥϹΑΙ

ϹΗΕΦΩΝ — ΥΚΑΒΑΝΤΙΠΕΡΙΚΛΥΤΟΥΑΝΤΩΝΕΙΝΟΥ

ΡΚΑΤΩ ΚΑΜΕΝΙΠΑΧΩΚΤΡΙϹΚΑΙΔΕΚΛΕΧΟΝΤΙ

ΤΑΔΙΕΠΔΑΜΟΝΤΕϹΕΚΛΥΟΝΑΥΔΗϹΑΝΤΟϹ

ΚΑΜΕΑΡΕΙΘΕΜΙΠΩΝΤΟϹ

ΟΛΙΗϹΒΑϹΙΑΝΑΒΑΘΗΚΕΚΡΟΝΕ,

ΟΥΦΩΝΗΝΔΑΠΟΠΕΤΕΟΤΕ

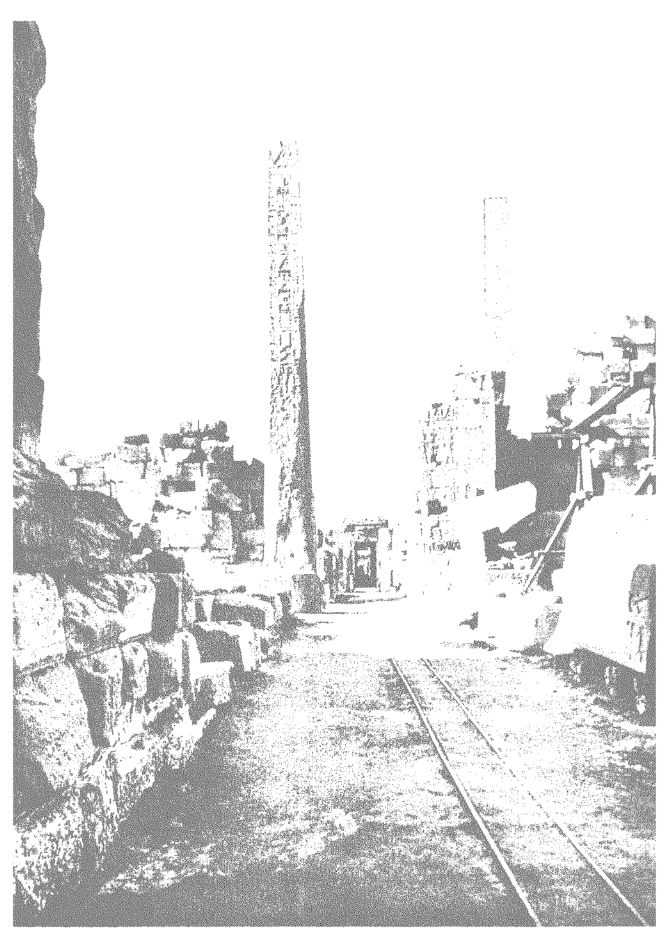
ΟΕΑΜΟΙΒΑΔΙϹΕΝ

ϹΕ

ΑΛΟΧΩΕΥ

ΕΥΤΥΧΩ

Girard del.



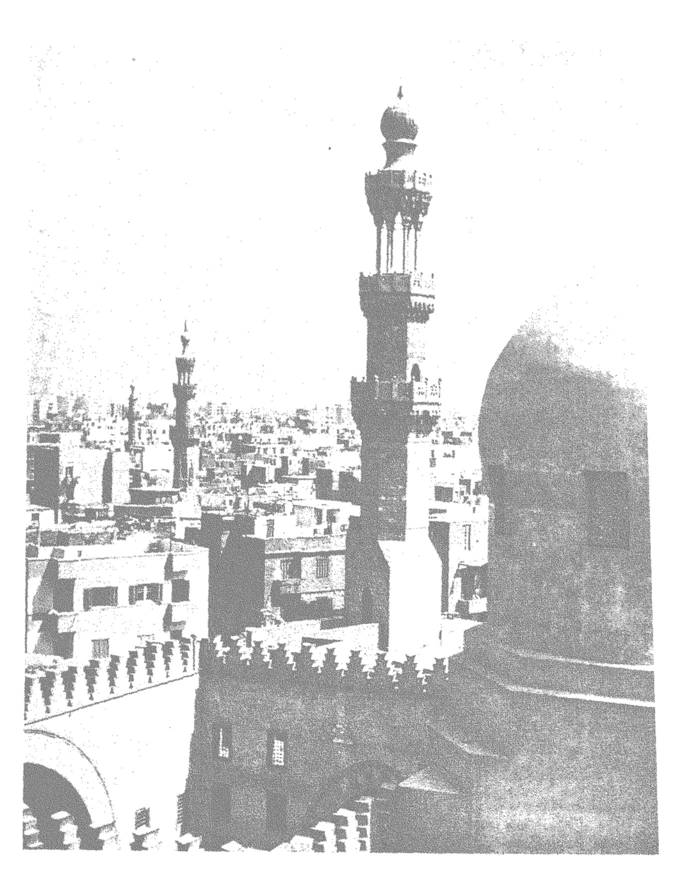
مسلتا تحتمس الأول، والملكة حتشبسوت بالكرنك.



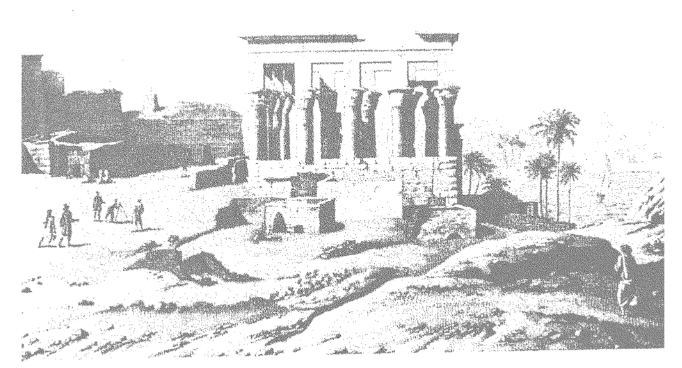
الإمبراطور هدريان.



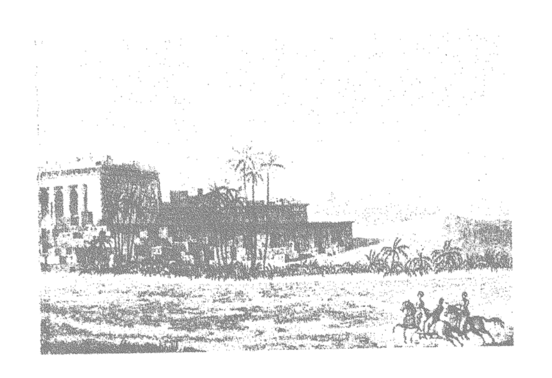
رأس منحوت من حجر الديوريت للملك أمنحتب الثالث،
من الأسرة ١٨.

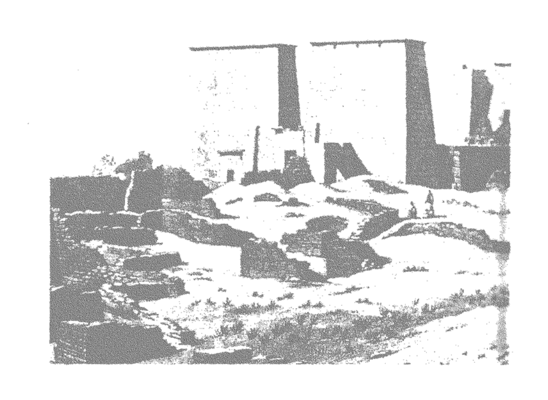


مدرسة ضرغتمش بجوار جامع ابن طولون بالقاهرة، تأسس فى القرن التاسع الميلادى.

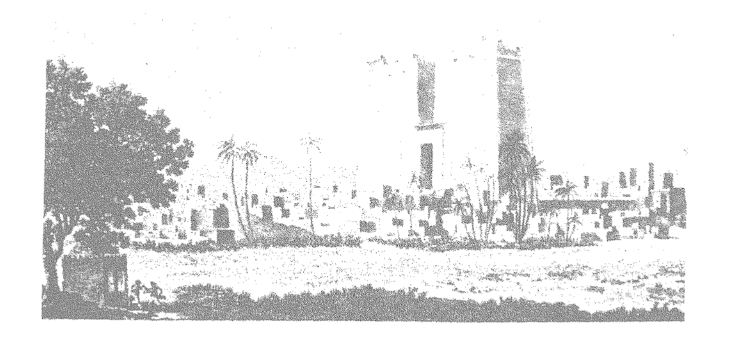


«جزيرة فيله: منظر لبعض معالمها الأثرية» «عن وصف مصر».





«منظر عام لإدفو» عن وصف مصر.





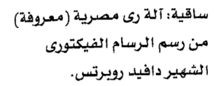
تمثال جالس لأمنحتب الثالث
منحوت من الجرانيت الأسود؛
من الأقصر، الأسرة الثامنة عشرة.



عمود بومبى بالإسكندرية.



أبو الهول.

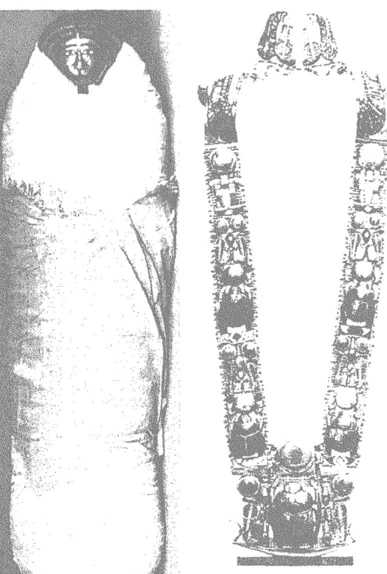


ساقية: آلة رى مصرية (معروفة) من رسم الرسام الفيكتورى الشهير دافيد روبرتس.

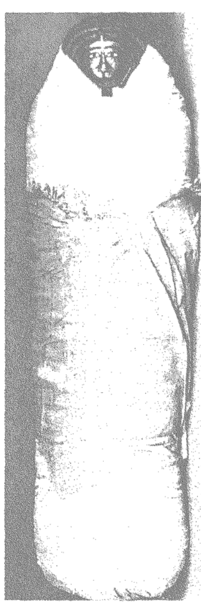




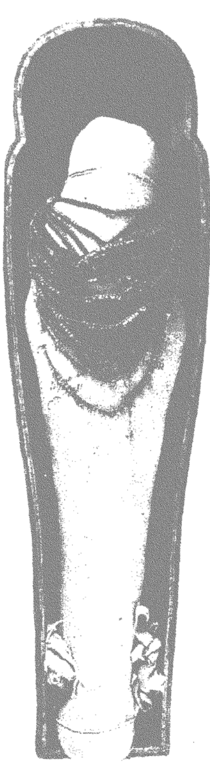
تمثالان من الخشب الملون يمثلان فنانين على رأسيهما سلتان بهما نبيذ ولحم وبط حى، من مقبرة مكت رع بطيبة، الأسرة الحادية عشرة.



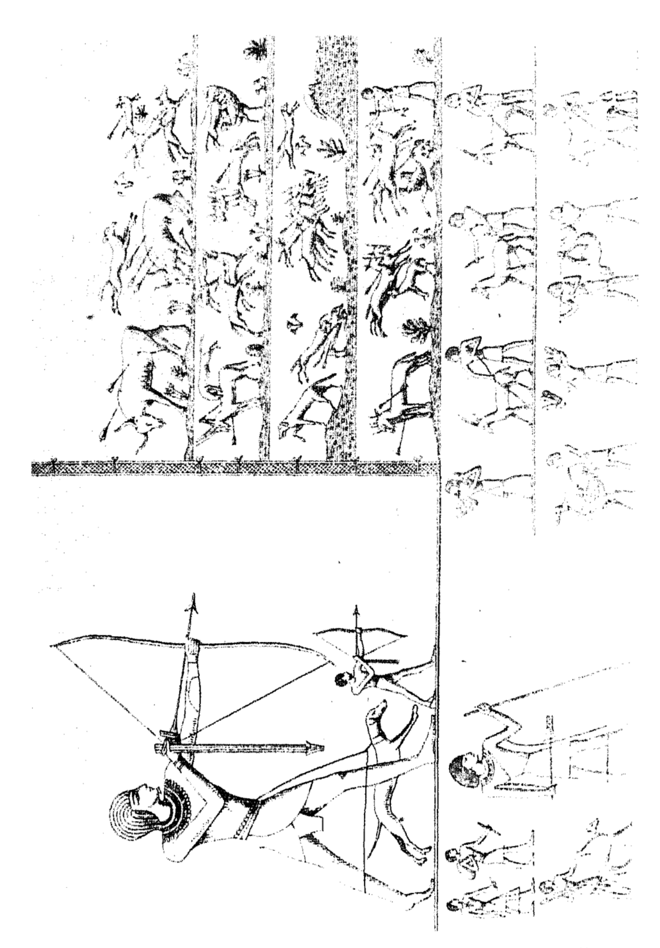
عقد مطعم بالجواهر ويه مشبك،
من مقبرة توت عنخ آمون.



مومياء من الأسرة
الحادية عشرة، مع القناع.

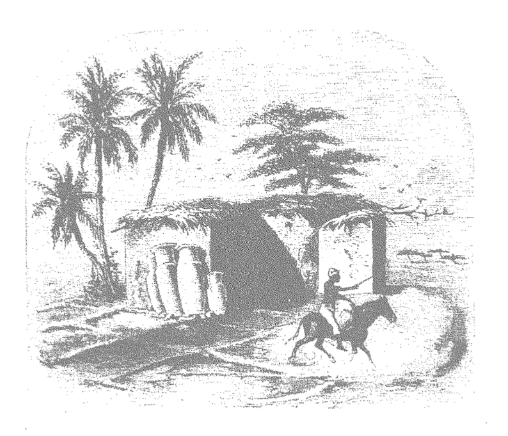


مومياء مريت آمون.



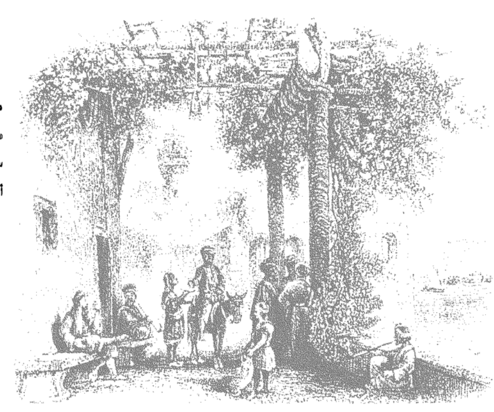


راقصات بالقاهرة من رسم المصور دافيد روبرتس فى منتصف القرن التاسع عشر، «هم عادة فى منتهى الوسامة، كما كتب (الرسام)». ومنهن أرق بنات مصر وأجملهن، لكنهن ممنوعات من الالتحاق بالحريم المحترم، لأنهن أكثر الفئات المنبوذة بين المحظيات.



كوخ فلاحى وسط أرض مقسمة إلى أحواض (رى بالحياض).

مقهى بأحد ضواحى القاهرة، «الزبائن تعودوا الجلوس (فيه) ساعات طويلة، يحتسون القهوة أو المشروبات، على أنغام الربابة.



بنوا دى مييه (١٦٥٦ . ١٧٣٨) . هذا البورتريه ظهر فى كتابه المسمى وصف مصر (١٧٣٥) (وهو غير كتاب حملة نابليون).



دكان لبيع الكعك فى سوق القاهرة رسم لآمليا إدواردز بعنوان «صلى على النبى . كعك».





أبو الهول كما صوره ريتشارد بوكوك سنة ١٧٤٣



تمثال أمنمحات الثالث، الأسرة الثانية عشرة.

فريدريك نوردن (١٧٠٨ - ١٧٤٢) «سوف يصحب القارئ المؤلف فى رحلته، ويشاطره جميع المتع دون أن يتعب أو يواجه المخاطر». مقتبس من نوردن - الطبعة الإنجليزية - مقدمة الناشر.



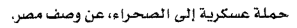
نابليون بونابرت.
تصوير جورين.



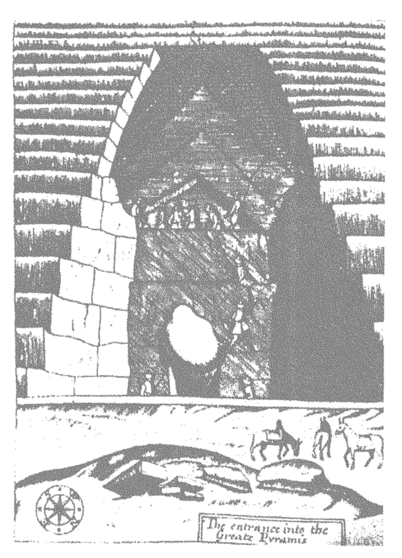
مونج.



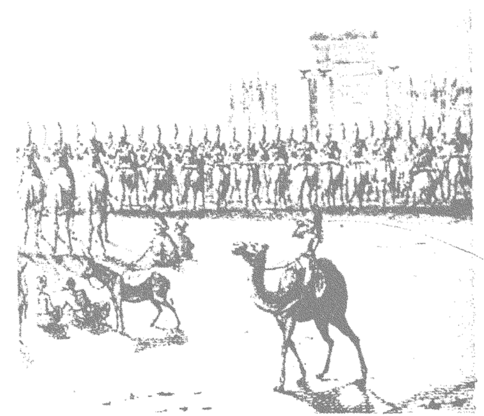
فيفان دينون.



حملة عسكرية إلى الصحراء، عن وصف مصر.



مدخل الهرم الأكبر
كما صوره نوردن.

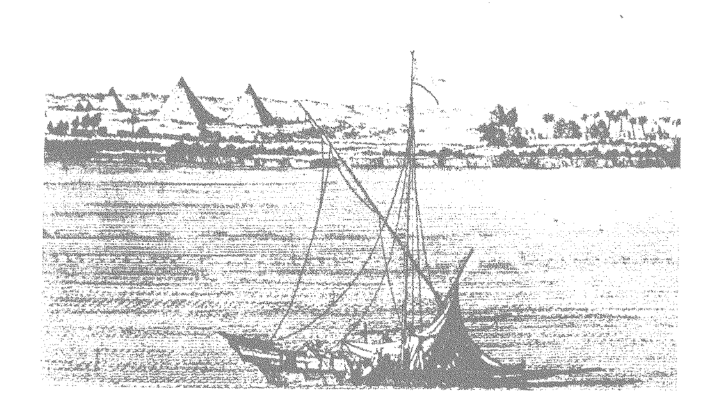


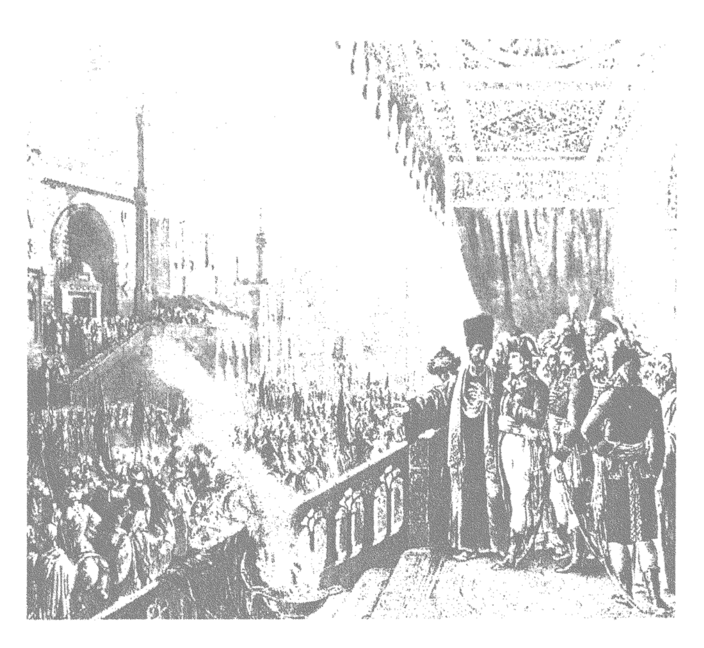


أبو الهول

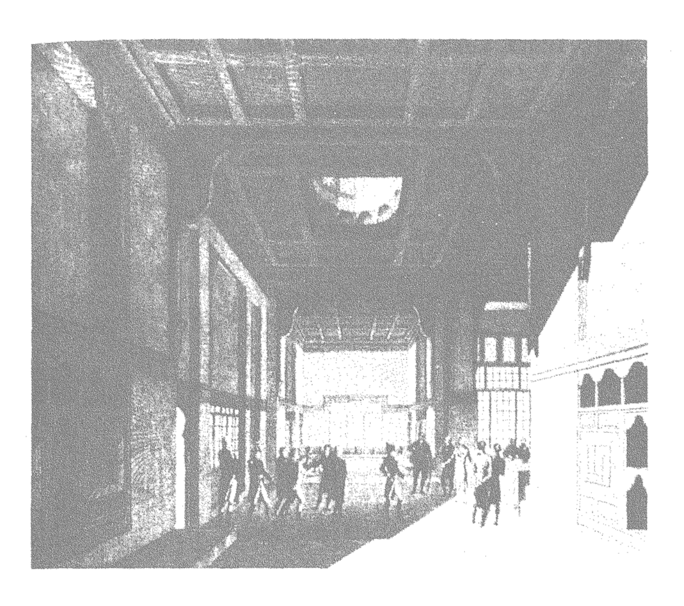
كما صوره نوردن سنة ١٧٥٥.

نوردن فى رحلة عبر الأهرام.





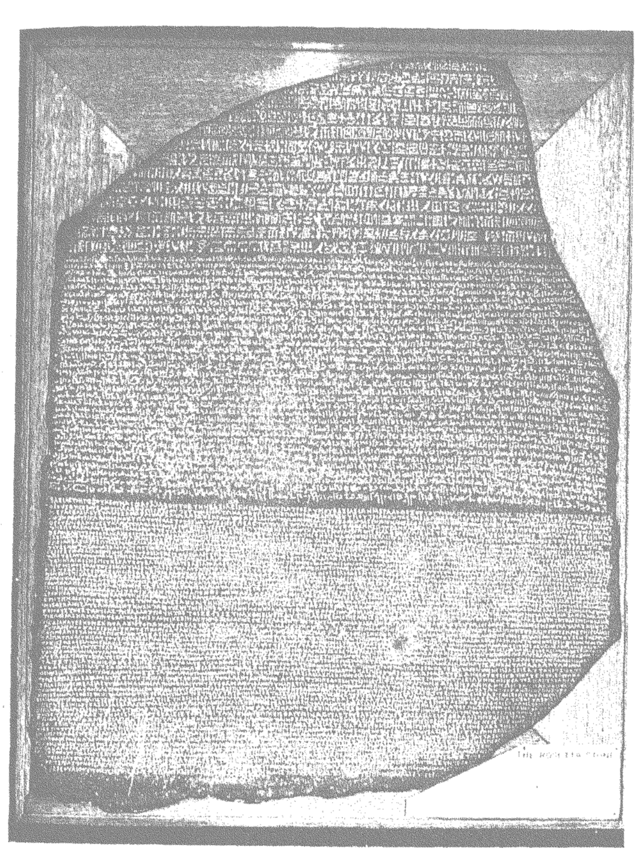
نابليون فى القاهرة.



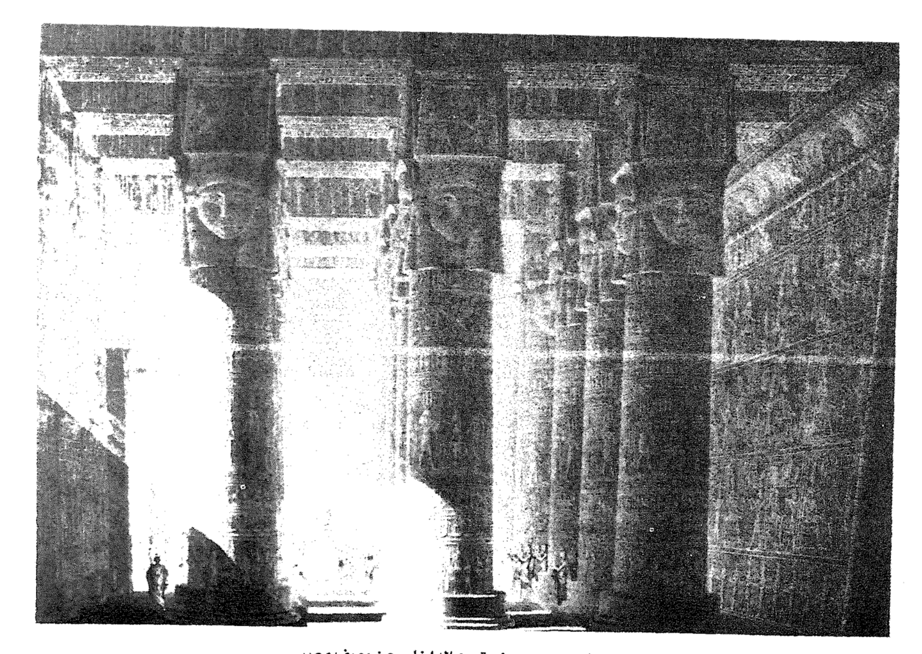
المقر الرئيسى للمؤسسة المصرية (العلمية) بالقاهرة، عن وصف مصر.

رفع ماء النيل (للرى)، مجموعة
اسكتشات توضيحية عن وصف مصر.





حجر رشيد المحفوظ بالمتحف البريطانى.



«انطباعات الفنان عن معبد دندرة من الداخل»، عن وصف مصر.

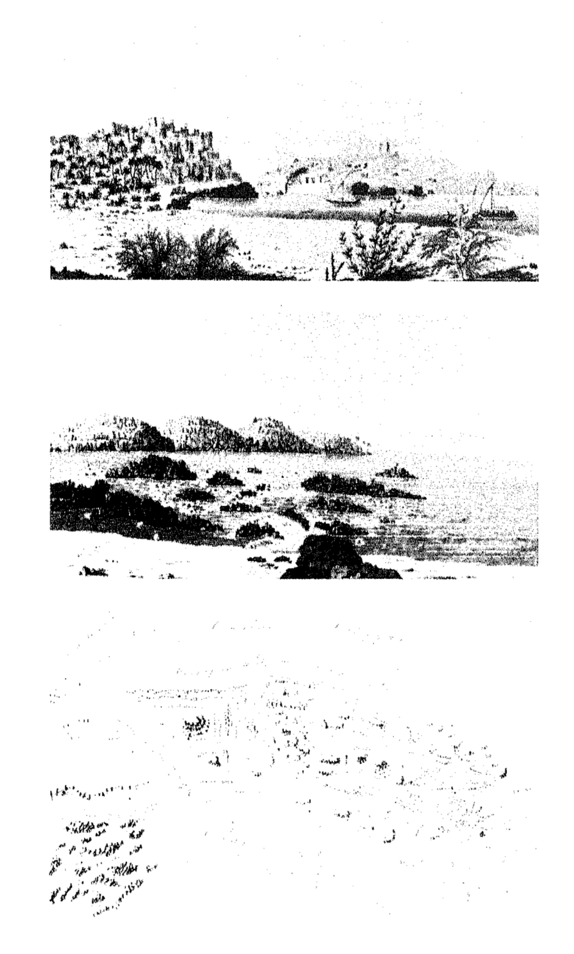


العلماء يقومون بمسح أبو الهول، تصوير فيفان دينون.

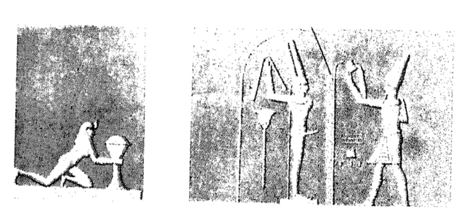
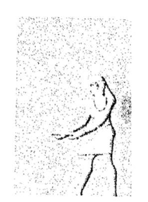
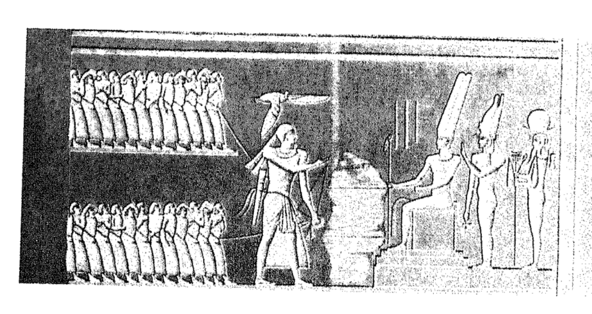
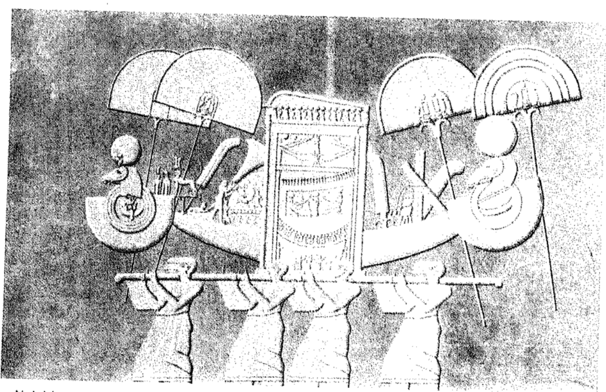
«الكرنك: منظر البوابة والمعابد من الجنوب»، عن وصف مصر.



الجنرال ديزيه.

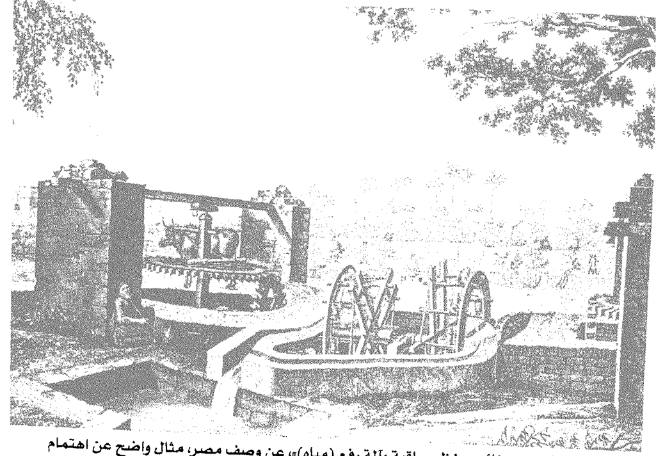


«جزيرة الفنتين وما حولها» اسكتشات وخريطة عن وصف مصر.

نقوش بارزة منخفضة (ضئيلة البروز)، ممتازة التنفيذ، عن وصف مصر.

صورة منسوخة تمثل بردية من أحد مقابر طيبة، تبدو فيها محاولة لنسخ الكتابة الهيروغليفية، عن وصف مصر.

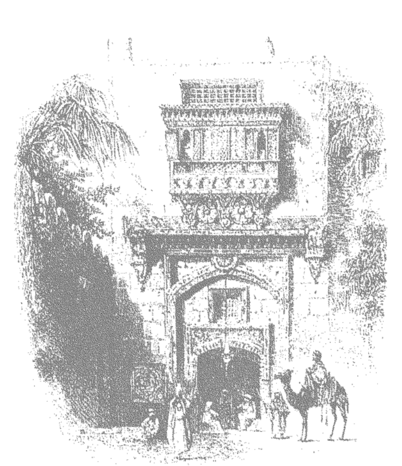


«فنون وصنائع، منظر ساقية وآلة رفع (مياه)»، عن وصف مصر، مثال واضح عن اهتمام العلماء فى الحملة بالحياة العامة.



محمد على والى مصر (١٨١٨).

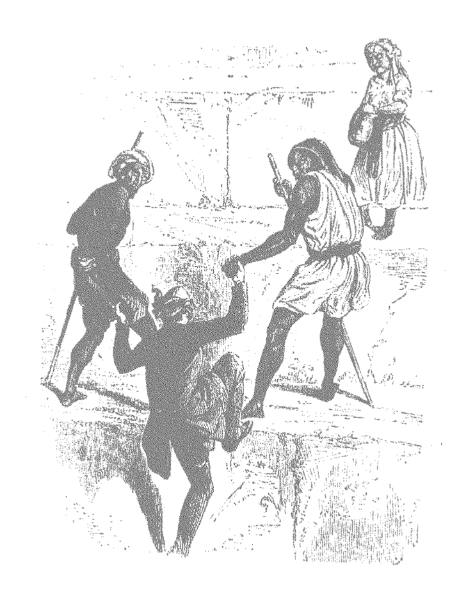
برنار دينو دروفيتى.



قصر حاكم منفلوط.

هنرى سولت قنصل بريطانيا العام فى مصر.
بورتريه تصوير هولز.

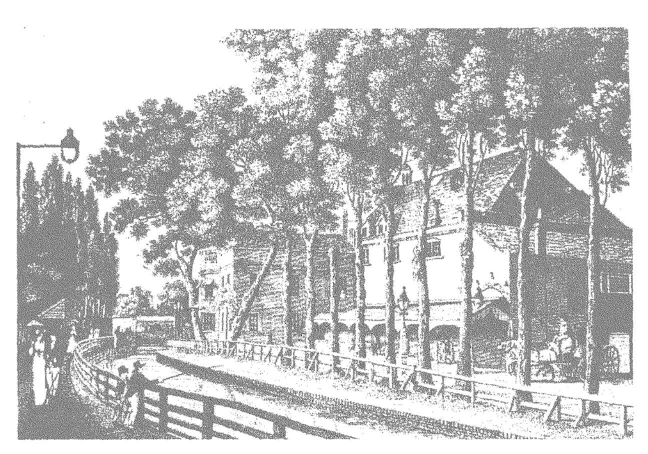
الجيش الفرنسى يرسو فى الاسكندرية، عن وصف مصر.



«كان صعود الهرم الأكبر مغامرة صعبة».



استعراض بلزونى فى مسرح سادلرز ويلز.



«مسرح الاكواتيك». صورة تاريخها سنة ١٨١٣.



شمشون البنتاجونى.

RIL 10, 1803.

SADLER'S WELLS.

Under the Patronage of His Royal Highness the DUKE of CLARENCE.

The Public are respectfully informed, that this Theatre having been transferred to new Proprietors, has undergone a thorough alteration, been materially improved, decorated in a style entirely new, and will open

TO-MORROW, Easter Monday, April 11, 1803, With a new Musical Prelude, called NEW BROOMS. Principal Characters, Mr. Grimaldi, Mr. Smith (his first appearance here), Master Menage (his first appearance), Mr. Jacobs (his first appearance), and Mr. Davis; Miss Smith, and Mrs. Davis. After which a new Serio-Comic Pantomime, called JACK THE GIANT-KILLER. Principal Characters, Mr. Bologna, jun. Mr. Grimaldi, Master Menage, Signor Belzoni (his first appearance in England), and Mad. St. Amand. In the course of the piece, various Combats by Messrs. Bologna, jun. Grimaldi, &c. a Combat Dance, composed by Mr. Bologna, jun. A new Burletta Spectacle, called EDWARD and SUSAN. Principal Characters, Mr. King (his first appearance these five years), Mr. Smith, Mr. Townsend, late of the Theatre Royal, in Covent-Garden, (his first appearance at this Theatre,) and Mrs. C. Dibdin. In the course of the piece an incidental Ballet, (composed by Mr. King,) in which Mr. King and Mad. St. Amand will dance a Pas Deux, accompanied on the Harp; Mr. L. Bologna and Mr. Banks will dance a comic Pas Deux, accompanied on the Union Pipes by Mr. Fitzmaurice (his first appearance in London), and Miss Gayton, pupil of Mr. Jackson, late of Covent-Garden Theatre, only nine years of age, will dance a Hornpipe with a skipping-rope (her first appearance in public). Signor Giovanni Baptista Belzoni, the Patagonian Sampson, will present most extraordinary Specimens of the Gymnastic Art, perfectly foreign to any former exhibition (his first appearance in England.) The Evening's Entertainments to conclude with a new Comic Pantomime, called FIRE AND SPIRIT; or, A HARLEQUIN. Including, among other views, the following scenes of holiday resort, viz. Chalk Farm, Horns at Kennington, Paddington Canal and Passage-boat, Hornsey House, Blackwall Wet Docks, Richmond Hill and Bridge, Greenwich Park and Hospital, &c. beginning with the Bower of Spring and concluding with a Magical Cataract. Harlequin, Mr. King; Clown, Mr. Cipriani, (his first appearance at this Theatre); Pantaloon, Mr. Hartland; Marquis, Mr. Powers; Old Woman, Mr. Smith; and Columbine, Mad. St. Amand; other numerous characters incidental to Pantomime, by the rest of the Company. The Entertainments, music, scenery, dresses, and decorations of the evening entirely new. Leader of the Band, Mr. T. Ware. The Prelude, Burletta, Spectacle, Serio-Comic, and Comic Pantomime, written, invented, and produced by Mr. C. Dibdin, jun. the Overture and Music composed by Mr. Reeve, who superintends the musical department, and will preside at the piano-forte. The scenery and decorations designed by Mr. Andrews, and painted by him with assistants; the machinery executed by Mr. Garland, the dresses by Mr. Smythies, Mrs. Robinson, and assistants. The Theatre will be entirely lighted with wax.

The Public are respectfully informed, that any person admitted to the performance, on paying 1s only, will receive a Pint of White or Red Foreign UNADULTERATED WINE, which custom the new Proprietors have revived for the accommodation of the Public, as they will lose considerably upon every pipe of Wine thus consumed.

N. B. The private boxes in the lower part of the Theatre have been totally altered from last season, and are now perfectly calculated to accommodate the Nobility, Gentry, and families in the most eligible manner; and for the convenience of the Public, the Proprietors have put on additional Patrols in the field leading from the Wells to town also a quantity of additional lamps in the said field, and in the avenues to the Theatre, by permission of the New River Company.

Boxes 4s. Pit 2s, Gallery 1s. Doors to be opened at half past five, to begin at half past six. Places to be kept till seven. Places for the boxes may be taken of Mr. D'Cleve, at the Box-office of the Wells every day from eleven till two, who will give every information to the repeated inquiries for free admission for the season.

Shortly after the opening, the Proprietors mean to give a Benefit, the profits of which will be appropriated towards the Subscription for the Relief of Watermen. Particulars in a few days.

SADLERS WELLS.—Under the patronage of His Royal Highness the Duke of CLARENCE.—On MONDAY next, July 4, and five following Evenings, a Comic Dance, composed by Mr. King, called HEY FOR THE HIGHLANDS, Music by Mr. Reeve. Principal Dancers, Mr. King, Mr. Capriani, and Mad. St. Amand. The PATAGONIAN SAMPSON will perform (being positively the last week of his appearing). Mr. Bologna, jun. will present a Grand Hydraulical Exhibition, called, FIRE AND WATER. Also will be performed the favourite Burletta of THE RECRUITING SERJEANT, Music by Mr. Dibdin, sen. Serjeant, Mr. Townsend, who will sing (for the last week the song of Mammoth and Bonaparte, written by Mr. C. Dibdin, jun. Miss Degnet will sing an admired harp song called The Welch Harper, accompanied on the Harp by Mr. Platts. The Serious Pantomime of PHILIP QUARLL, Music by Mr. Reeve; and the New Harlequinade of GOODY TWO SHOES, Music by Mr. Reeve; with a touch at French Ballooning, or Aerial Invasion. The serious and comic Pantomimes written and produced by Mr. C. Dibdin, jun. and the Scenery of the whole designed and executed by Mr. Andrews with Assistants.

Boxes 4s. Pit 2s. Gal. 1s. with unadulterated Wine 2s. 6d. per bottle. Doors open at half past five, and begin at half past six. Places kept till half past seven. Places to be taken of Mr. De Cleve, at the Box-Office, from Eleven till Two. Books of the Songs to be had at the Wells.

Various playbills and advertisements for Sadler's Wells that feature Belzoni's appearances

برامج وإعلانات متنوعة صادرة من أحد المسارح.

SADLER's WELLS.

Under Patronage of his *Royal HIGHNESS* the Duke of Clarence,

The Public are respectfully informed that this Theatre having been transferred to

NEW PROPRIETORS;

Has undergone a thorough alteration, been materially improved, decorated in a style entirely new, and will open on

EASTER MONDAY, APRIL, 11th, 1803.

With a new *Musical Prelude* called

N E W B R O O M S.

Principal Characters, Mr. GRIMALDI, Mr. SMITH, (his first Appearance here) Master MENAGE, (his first Appearance) Mr. JACOBS, (his first Appearance) and Mr. DAVIS, Miss SMITH, and Mrs. DAVIS,

After which a new Serio Comic Pantomime called

Fee! Faw! Fum!

Or, JACK the GIANT KILLER.

Principal Characters Mr. BOLOGNA, Junr. Mr. GRIMALDI, Master MENAGE, Signor BELZONI, (his first Appearance in ENGLAND) And Mad. St. AMAND.

In the course of the Piece various Combats by Messrs BOLOGNA, Junr. GRIMALDI, &c. a Combat Dance composed by Mr. BOLOGNA, Junr.

A new Burletta Spectacle called

EDWARD AND SUSAN;

O R T H E

VILLAGE FETE.

Principal Characters, Mr. KING, (his first Appearance here these [illegible] Years) Mr. SMITH,

Mr. TOWNSEND,

Late of the Theatre Royal Covent Garden,

(His first Appearance at this Theatre) and Mrs. C. DIBDIN.

In the course of the Piece an incidental Ballet (composed by Mr. KING,) in which Mr. KING and Mad. St. AMAND, will Dance a Pas Deux, accompanied on the Harp—Mr. L. BOLOGNA, and Mr. BANKS, will Dance a Comic Pas Deux, accompanied on the Union Pipes, by Mr. FITZMAURICE, (his first Appearance in LONDON) And Miss GAYTON, Pupil of Mr. Jackson, late of Covent Garden Theatre, only 9 Years of Age, will Dance a Hornpipe, with a Skipping Rope, (Her first Appearance in Public)

Signor Giovanni Batista Belzoni,

T H E

PATAGONIAN SAMPSON;

Will present most extraordinary Specimens of the GYMNASTIC Art, perfectly Foreign to any former exhibition (His first Appearance in England)

The Evening's Entertainments to conclude with a new Comic Pantomime called

FIRE and SPIRIT;

O R, A

H O L I D A Y H A R L E Q U I N.

Including, among other views, the following Scenes of Holiday Resort, viz. Chalk Farm—Horns at Kennington—Paddington Canal and Passage Boat—Hornsey House—Blackwall Wet Docks—Richmond Hill and Bridge—Greenwich Park and Hospital, &c.—beginning with the Bower of Spring, and concluding with a Magical

C A T A R A C T,

Harlequin, Mr. KING—Clown, Mr. CIPRIANI (His first Appearance at this Theatre) Pantaloon, Mr. HARTLAND, Marquis, Mr. POWERS, Old Woman, Mr. SMITH, and Columbine, Mad. St. AMAND, other numerous Characters incidental to Pantomime, by the rest of the Company.

The Entertainments, Music, Scenery, Dresses, and Decorations, of the Evening entirely new. Leader of the Band Mr. T. WARE. The Prelude, Burletta, Spectacle, Serio Comic, and Comic Pantomime, written, invented and produced by Mr. C. Dibdin Junr. the Overture and Music composed by Mr. Reeve, who superintends the Musical department, and will preside at the Piano Forte. The Scenery and Decorations designed by Mr. Andrews, and painted by him with Assistants, the Machinery executed by Mr. Garland, the Dresses by Mr. Smythies, Mrs. Robinson, and Assistants.—The Theatre will be entirely lighted with Wax.

The Public are respectfully informed that any Person admitted to the Performance, on paying [illegible] only will receive a Pint of White or Red Foreign

Unadulterated Wine,

Which custom the New Proprietors have revived for the accommodation of the Public, as they will lose considerably upon every Pipe of Wine thus consumed.

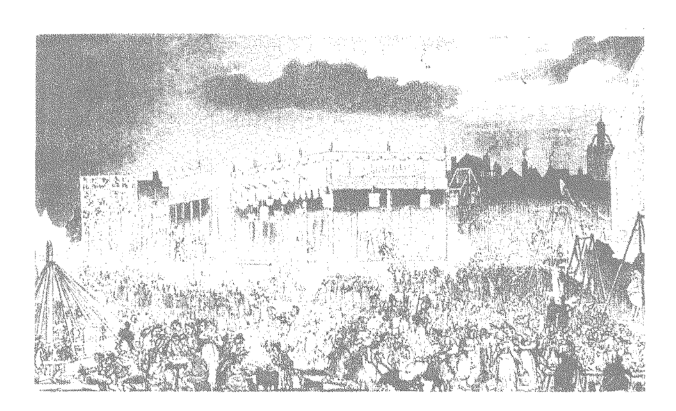
N. B. The Private Boxes in the lower part of the Theatre have been totally altered from last Season, and are now perfectly calculated to accommodate the Nobility, Gentry, and Families in the most eligible manner.

And for the convenience of the Public, the Proprietors have put on additional Patrols in the Field leading from the Wells to Town, also a quantity of additional Lamps in the said Field, and in the Avenues to the Theatre by Permission of the NEW RIVER COMPANY.

Boxes [illegible]—Pit [illegible]—Gallery [illegible]—Doors to be opened at half past Five—to begin at half past Six—Places to be kept till Seven—Places for the Boxes may be taken of Mr. D'Clere, at the Box Office of the Wells every Day from 11 till 3, who will give every Information to the repeated Inquiries for free Admissions for the Season.

Shortly after the opening, the Proprietors mean to give a BENEFIT, the profits of which will be appropriated towards the Subscription for the BEAUTY of BUTTERMERE, Particulars advertised in a few Days.

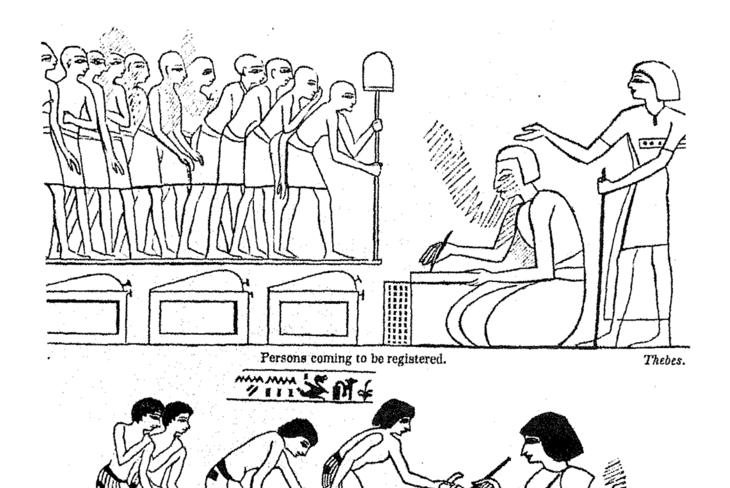
H. HUGHES, Printer, 116 White-Cross-Street, St. Lukes.



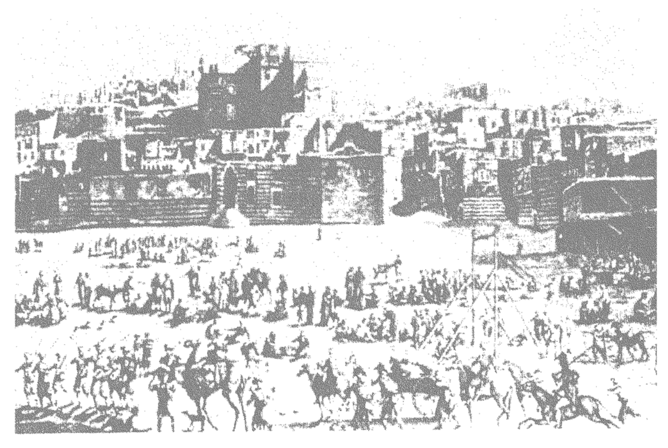
سوق بارثولوميو. عن رولاند سون سنة ١٨٠٩.

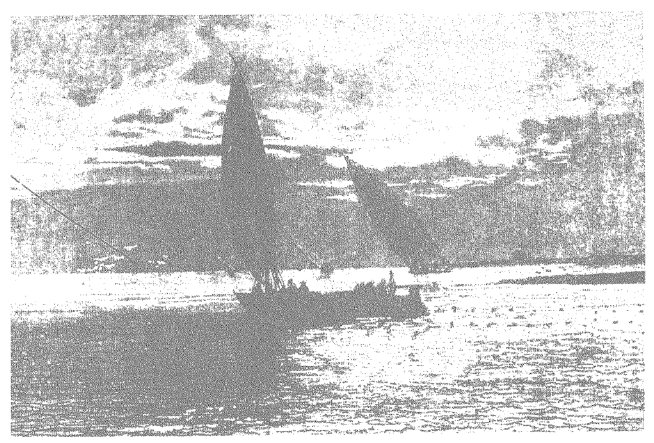


لوحة من تصوير كريكشانك
لأحد عروض بلزونى فى
بارثلوميو.

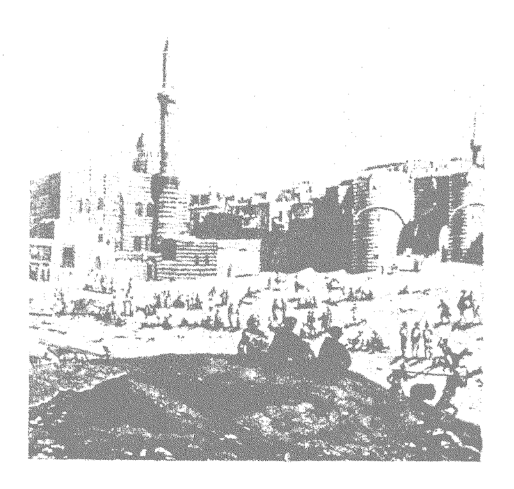


البيروقراطية المصرية، لوحة منقولة من كتاب جون جاردنر ويلكنسن «عادات وسلوكيات المصريين القدماء» (١٨٣٥).

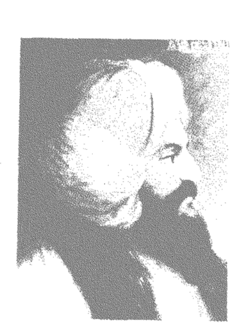




مراكب تسير فى النيل فى رحلة إلى الصعيد.

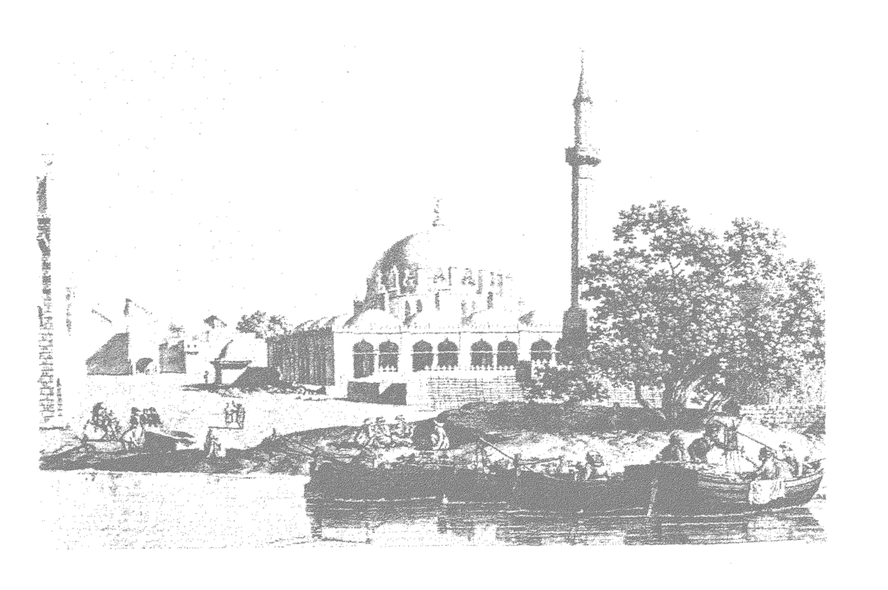


القاهرة فى أوائل القرن التاسع عشر، عن وصف مصر.



جيوفانى بلزونى،

تصوير بروكيندون (مجهولة التاريخ).



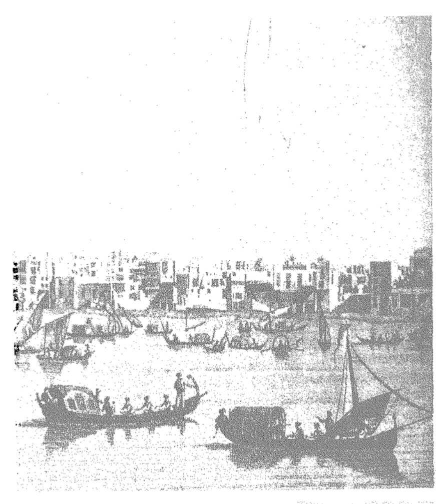
«القاهرة: المرفأ والمسجد الكبير ببولاق»، عن وصف مصر.



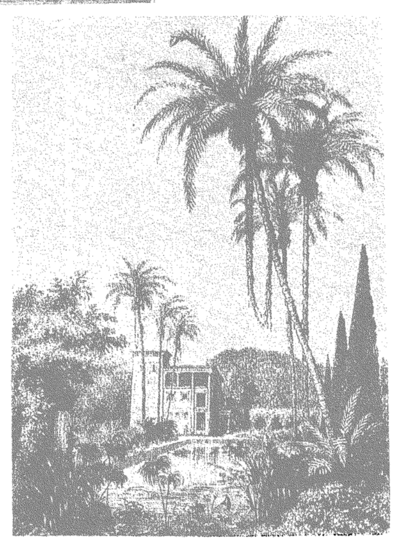
خريطة القاهرة: إعداد المعهد المصرى، عن وصف مصر.

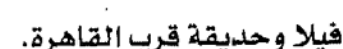


«على مدى أربعمائة ميل من الشمال إلى الجنوب تصطف الشواديف ومعها الرجال والنساء والصبية... يقضون حياتهم كلها فى رفع المياه من النهر لرى حقولهم».

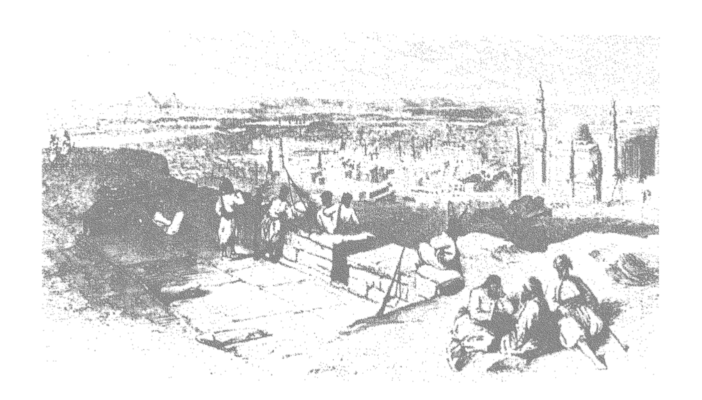


ميدان الأزبكية الكبير بالقاهرة،
عن وصف مصر.

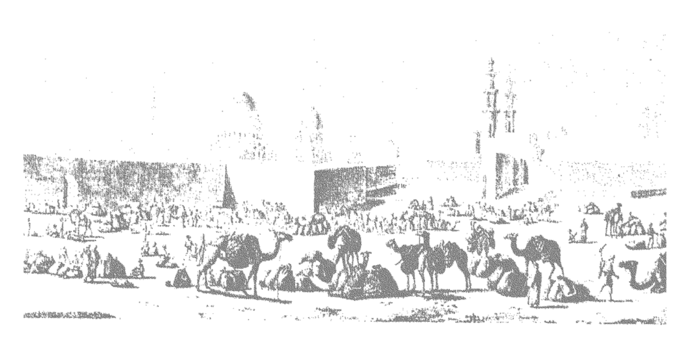




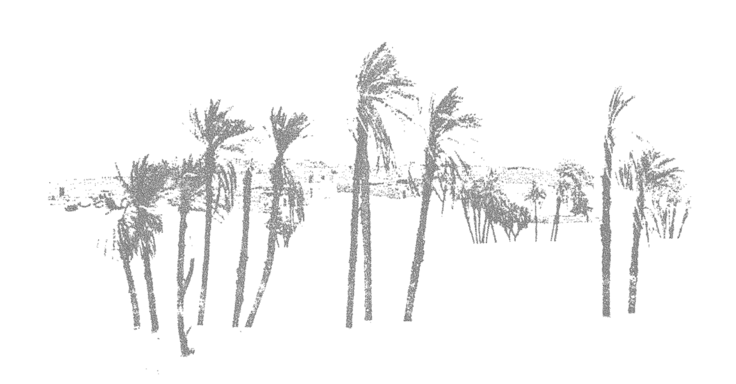
فيلا وحديقة قرب القاهرة.



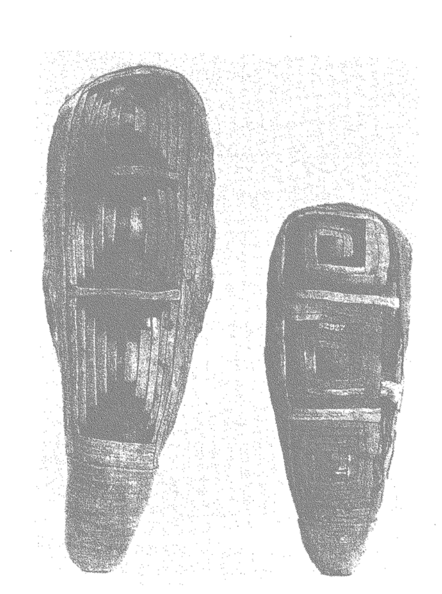
منظر القاهرة من القلعة، ويظهر بالصورة عساكر أتراك.



منظر لمكان تجمع القوافل بالقاهرة، تظهر به قافلة فى طريق التكوين، عن وصف مصر.



النيل فى الفيضان.



مومياوان لأبيس.

جون لويس بورخارت فى زى عربى.

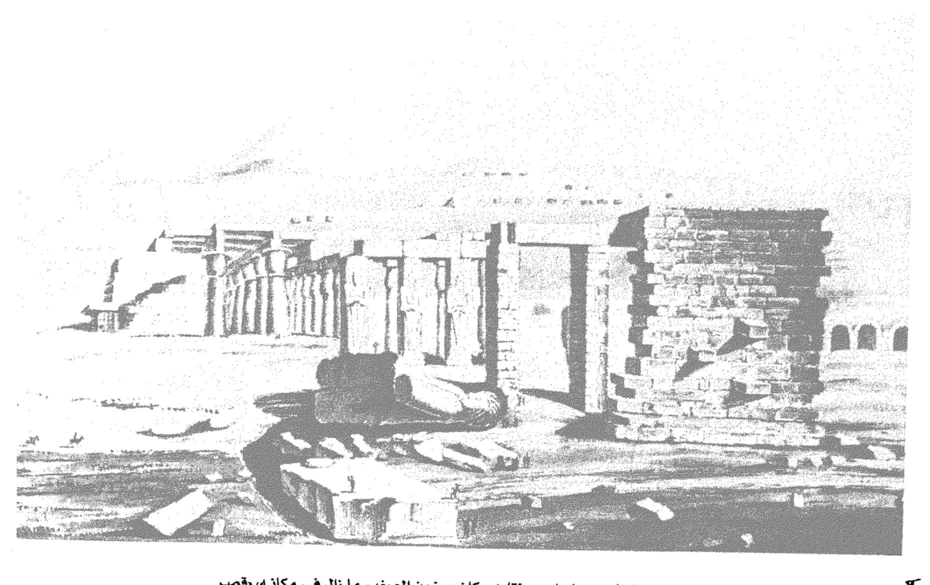
أحد شوارع القاهرة «القاهرة مدينة كبيرة، وإمكانات تطويرها كبيرة أيضا». من أقوال سائح أمريكى.

قصر بالقاهرة، عن وصف مصر.



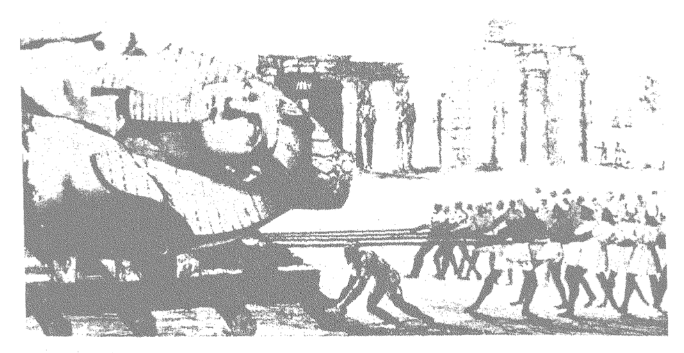
واجهة أبو سنبل كما رسمها المصور الفرنسى فرانز جو سنة ١٨٢٢.
هذا المنظر يبين المعبد والتماثيل عقب تنظيفه وإخلائه من العوائق.

معبد الرمسيوم حيث نرى التمثال الضخم قبل أن يحركه بلزونى، عن وصف مصر.

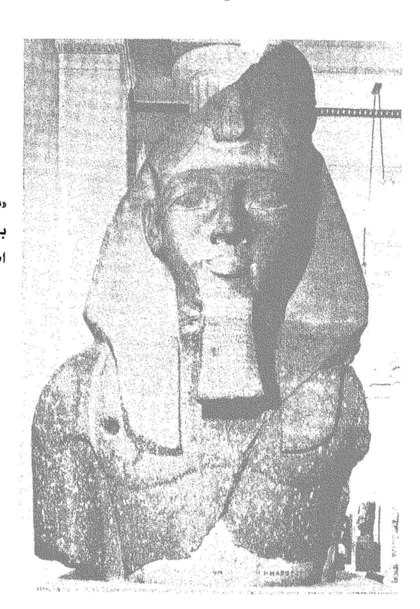


قصر ممنونيوم كما رسمه إدوارد مونتليه، وكان ممنون الصغير ما زال فى مكانه، «قصر ممنون أثر ضخم جدا، تدعمه الأساطين، ولكنه متهدم، والتناسق بين الوحدات مفقود».

معبد آمون بالكرنك. تفاصيل الأساطين واضحة.

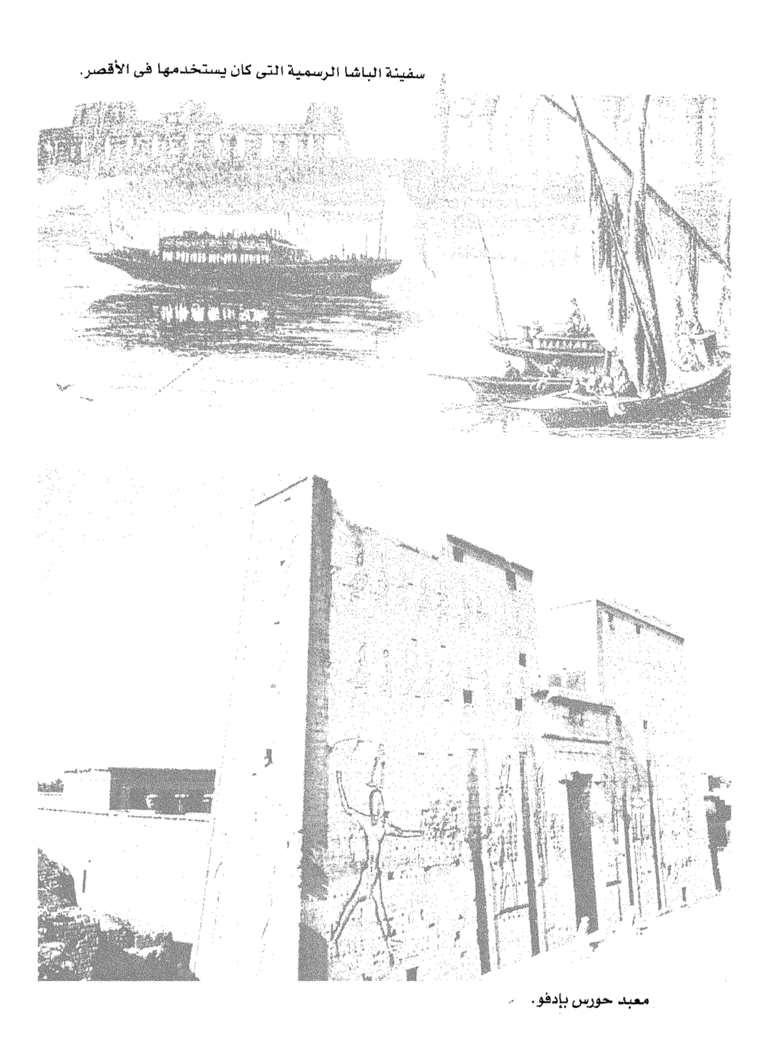


نجاح نقل ممنون، صورة بالألوان المائية رسم جيوفانى بلزونى.



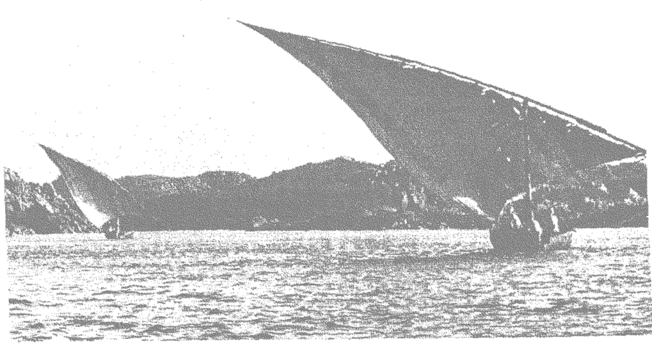
«ممنون الصغير» معروض فى القاعة المصرية بالمتحف البريطانى، ولا يوجد على قاعدته اسم بلزونى كمهدى للتمثال.

سفينة الباشا الرسمية التى كان يستخدمها فى الأقصر.



معبد حورس بإدفو.

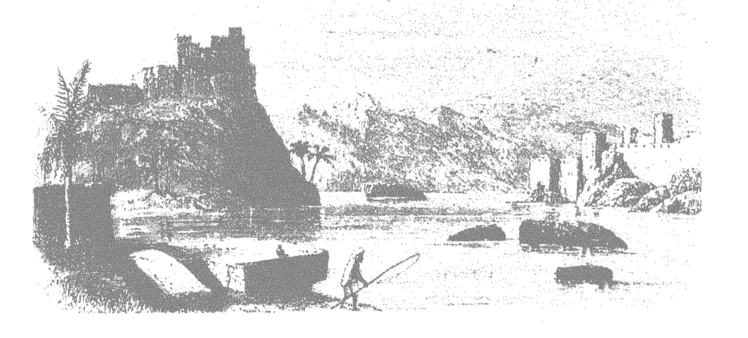
جزيرة فيله وتشاهد ذهبية فى مرسى السياح.

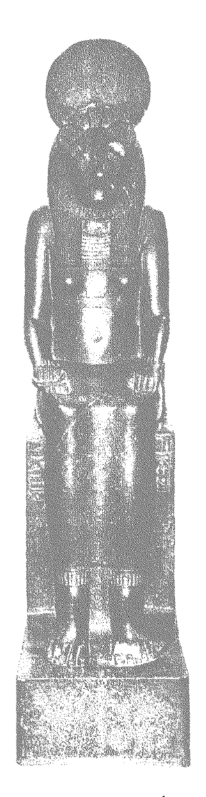


الإبحار فى النوبة.

ابو سنبل: صورة بالألوان المائية لبلزونى، «إذا أمكن لإزالة الرمال. فسيظهر معبد ضخم.

الاقتراب من أسوان.

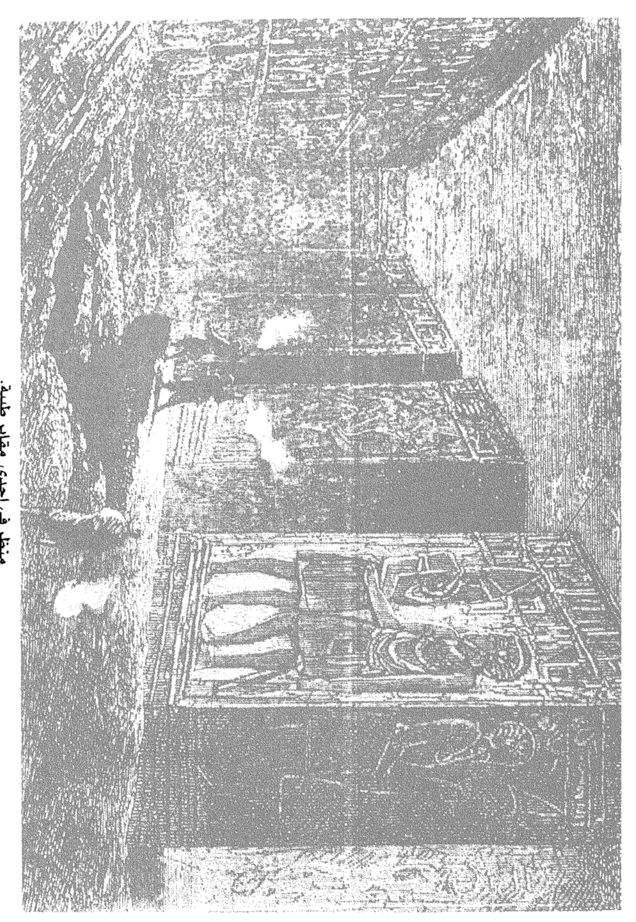




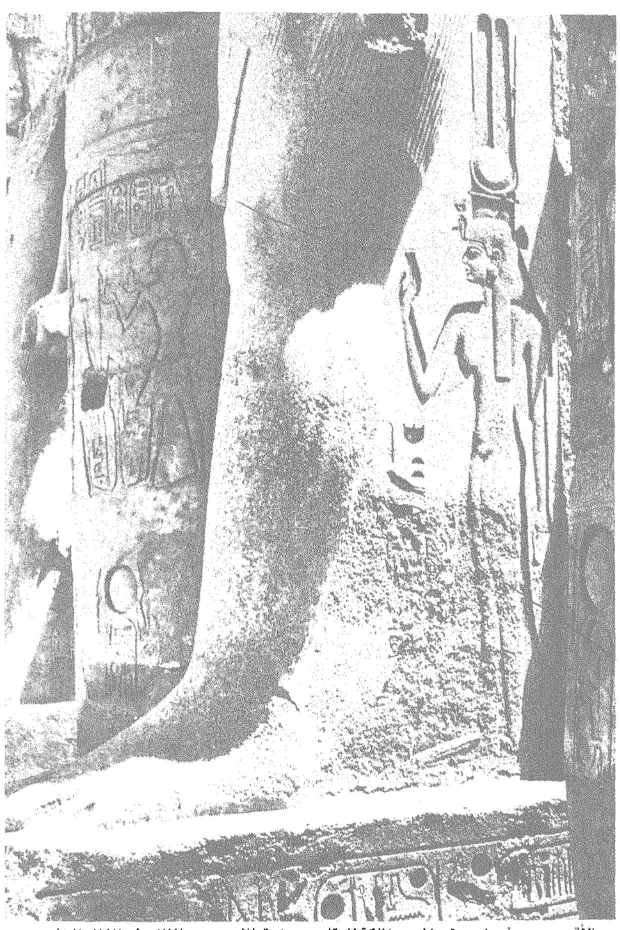
تمثال جالس للألهة سخمت صاحبة الرأس الأسدية، منحوتة من الجرانيت الأسود، اكتشفها بلزونى فى معبد موت، وهى الآن. بالمتحف البريطانى.

طريق الكباش بمعبد آمون بالكرنك.

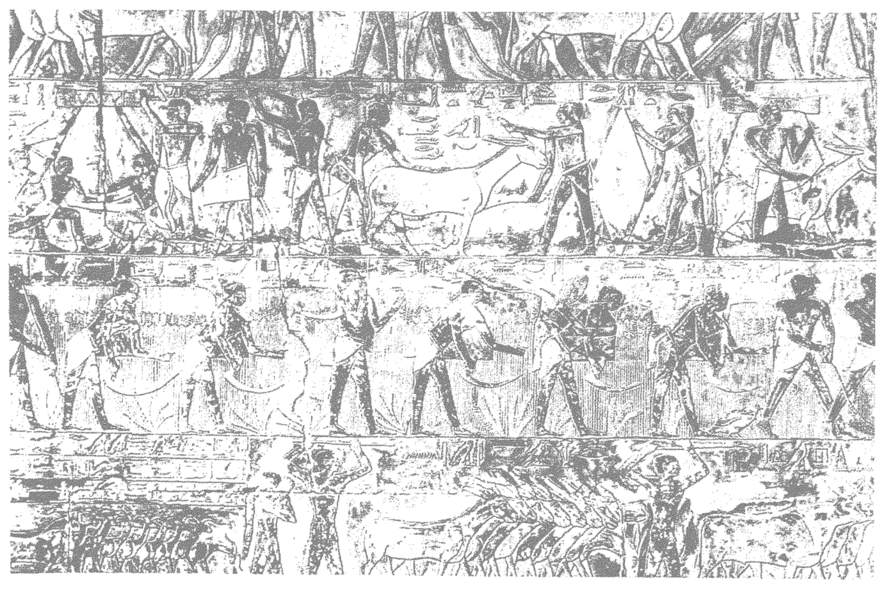
منظر آخر للكباش بالكرنك.



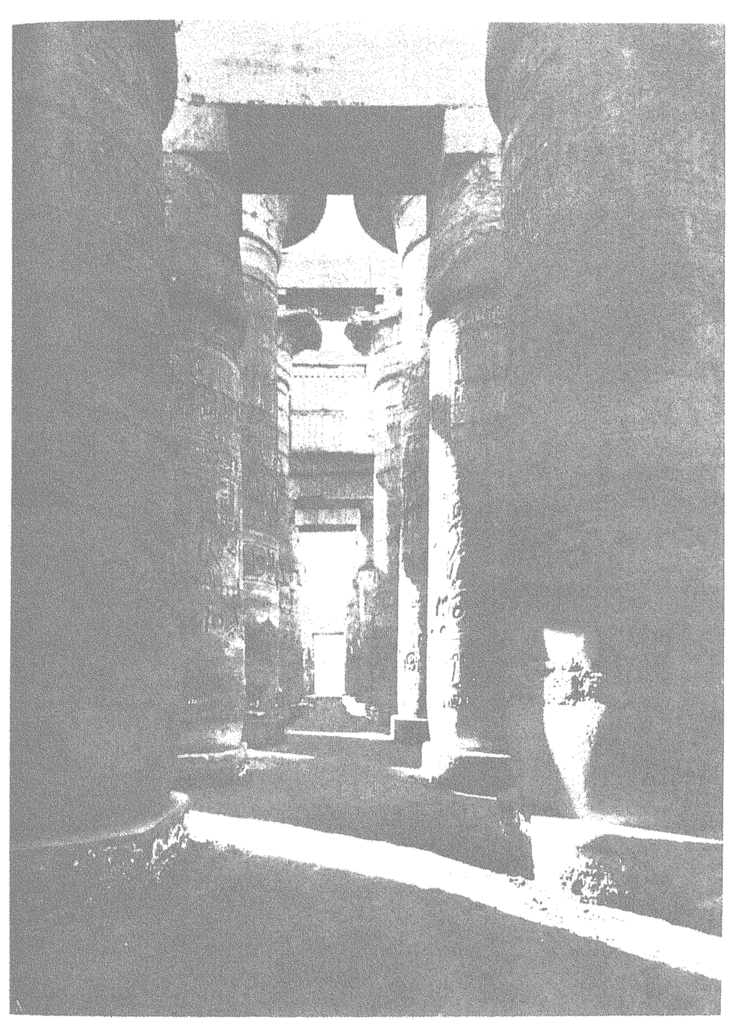
منظر فى إحدى مقابر طيبة.



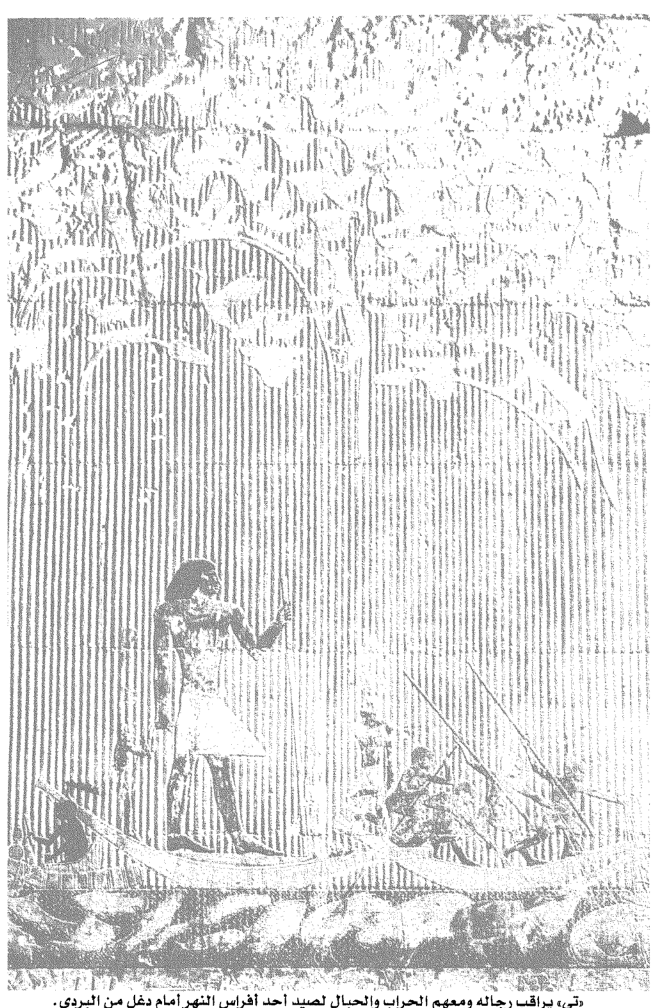
الأقصر: معبد آمون . موت . خنسو . الملكة نفرتارى بجوار تمثال رمسيس الثانى فى الفناء الخارجى.



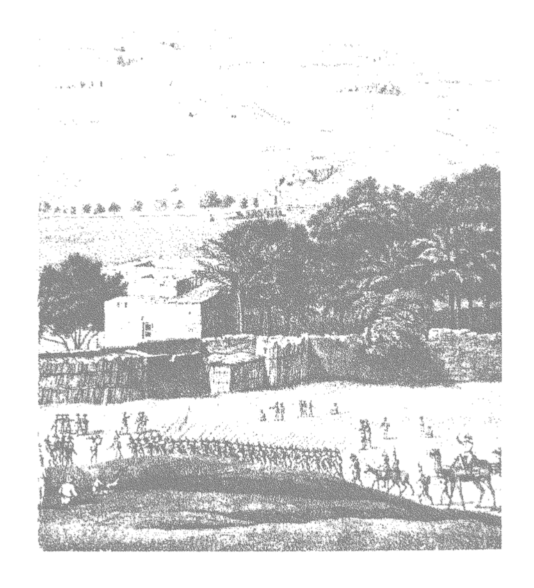
منظر الحصاد من مقبرة مريروكا.



معبد آمون بالكرنك: «أحيانا لا أشعر بأننى على الأرض».

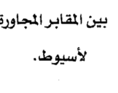


«تى» يراقب رجاله ومعهم الحراب والحبال لصيد أحد أفراس النهر أمام دغل من البردى.
عن مقبرة بسقارة من الأسرة الخامسة.

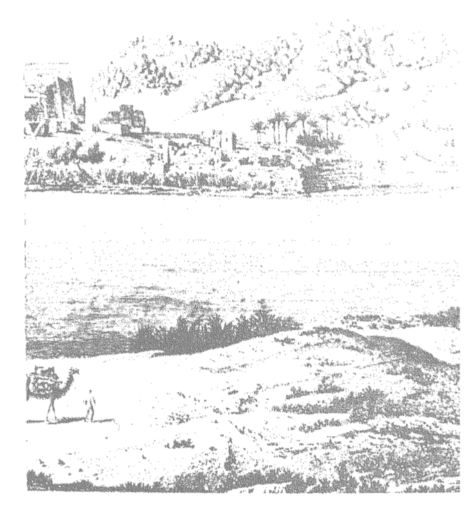


مدينة أسيوط، عن وصف مصر.





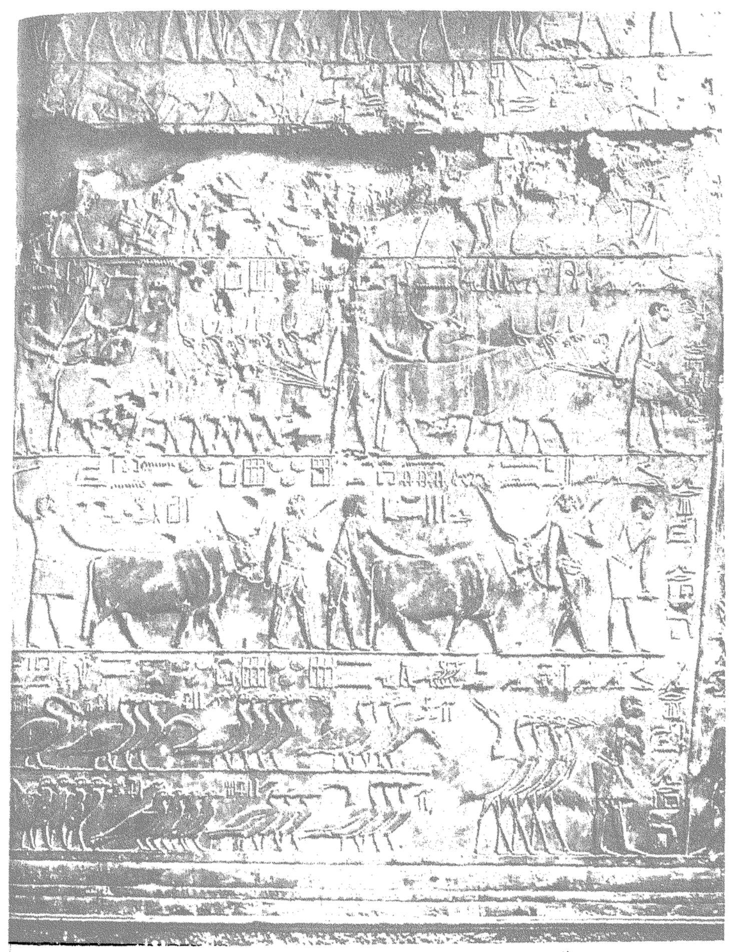
بين المقابر المجاورة
لأسيوط.



صورة بالألوان المائية صورها بلزونى لمعبد أبو سنبل من الداخل.

منظر لجزيرة فيله من الشمال الغربى. عن وصف مصر.

معبد أبو سنبل من الداخل فى سبعينيات القرن التاسع عشر.

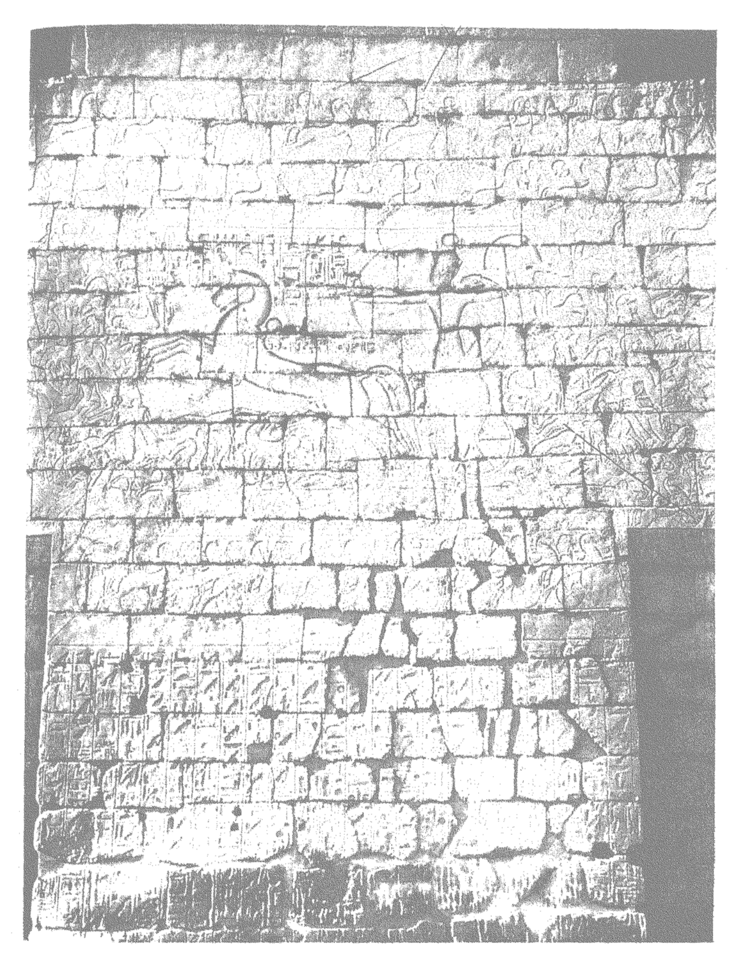


فلاحون يسوقون مواشى وطيور أليفة، من مقبرة بتاح حتب، من الأسرة الحادية عشرة بسقارة



تمثال جالس لباسر حاكم النوبة
فى عهد رمسيس الثانى . اكتشفه
بلزونى فى معبد أبو سنبل.

منظر سياحى لوادى الملوك فى القرن التاسع عشر.



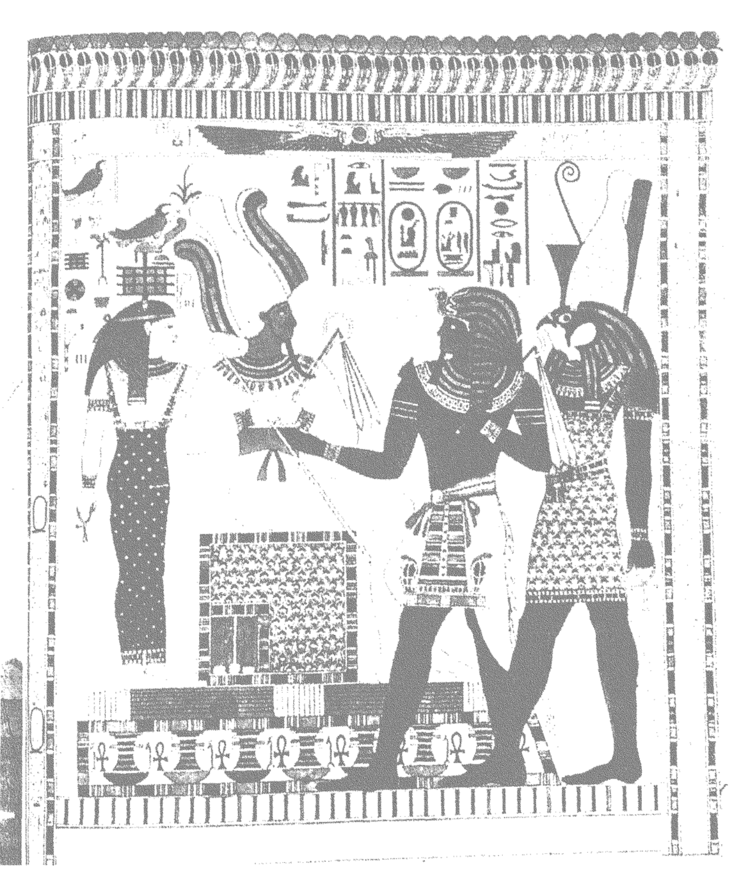
رمسيس الثانى فى عربته الحربية فى موقعة قادش.



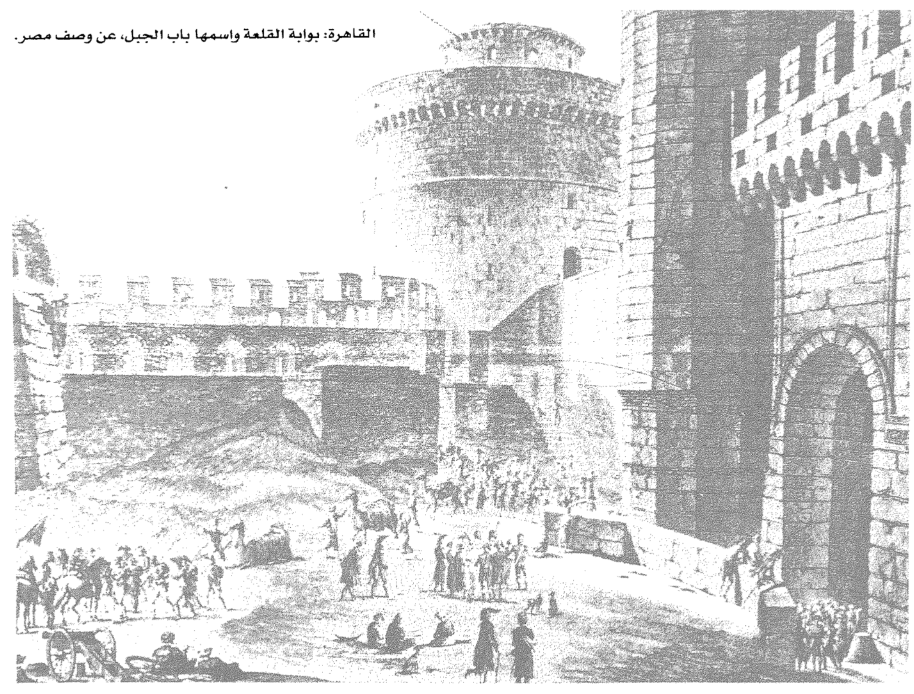
تمثال خشبى للكا الخاصة برمسيس الأول
عثر عليه بلزونى فى مقبرته سنة ١٨١٧.

معبد الكرنك:صورة فوتوغرافية تصوير مكسيم دى كامب

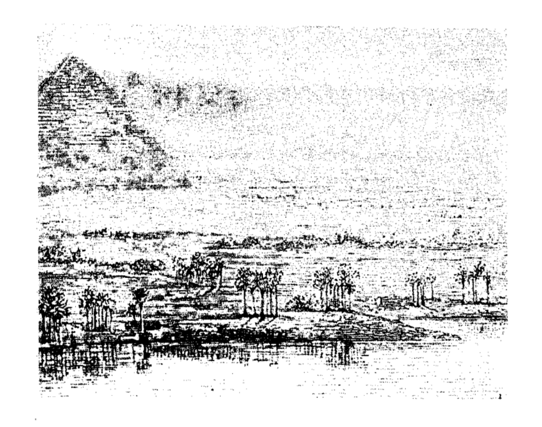


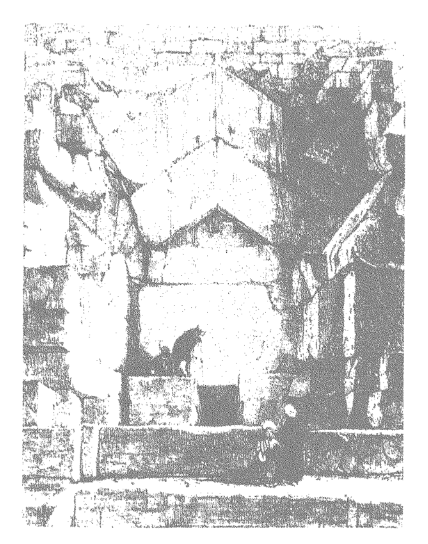


تخطيط (سكتش) لبلزونى يمثل سيتى فى حضرة الآلهة
منسوخ عن منظر بالألوان فى المقبرة التى اكتشفها بلزونى.



القاهرة: بوابة القلعة واسمها باب الجبل، عن وصف مصر.

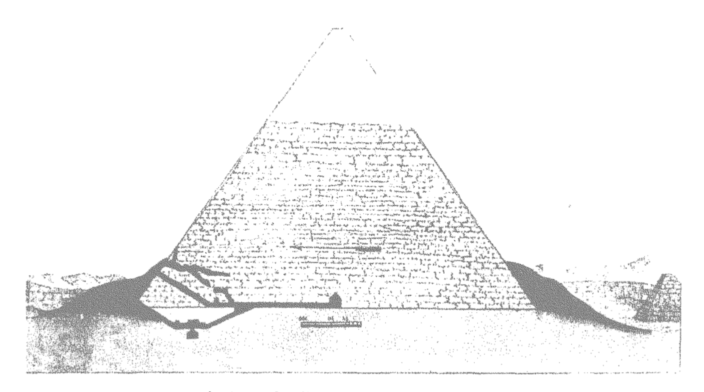




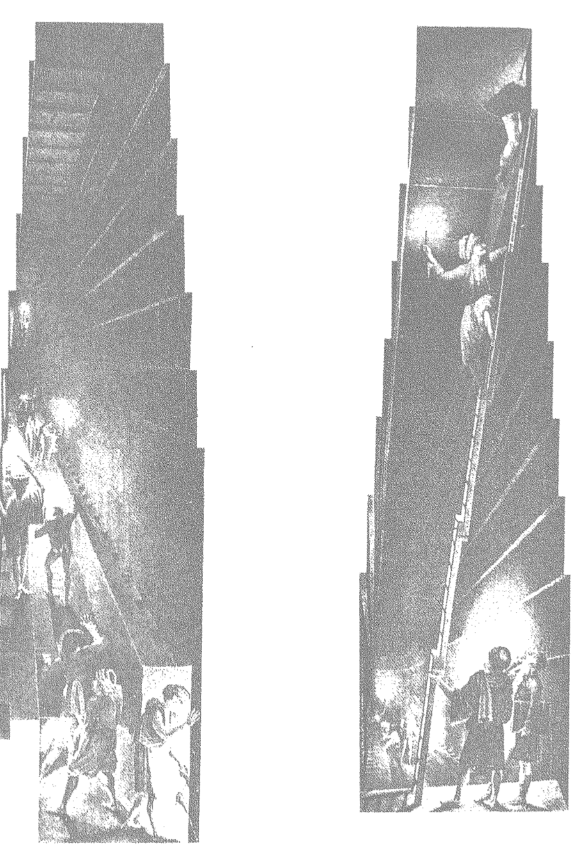
مدخل الهرم (الأوسط).



أهرام الجيزة.



تخطيط لبلزونى يمثل الهرم الثانى (هرم خفرع).



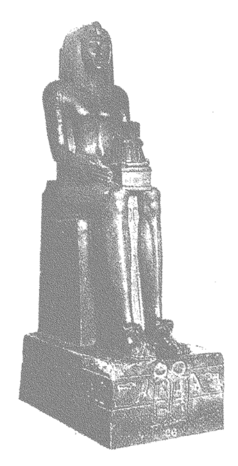
علماء من حملة نابليون
يتجولون داخل الهرم.

باقى جولة الهرم

تخطيط من رسم بلزونى للمدخل نفسه.

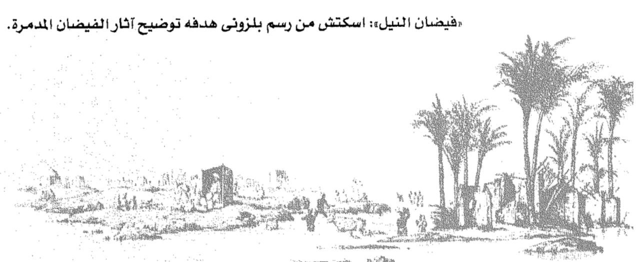
زورق تجارى فى النيل.

مدينة هابو: الصرح الأول للمعبد، منقوش عليه منظر يمثل رمسيس الثانى يصيد العجول.



تمثال جالس لسيتى الثانى يحمل مقصورة
يعلوها رأس كبش، اكتشفه بلزونى فى طيبة.

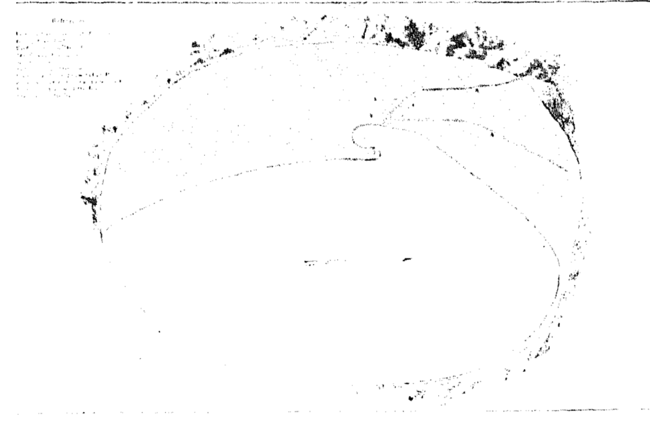
«فيضان النيل»: اسكتش من رسم بلزونى هدفه توضيح آثار الفيضان المدمرة.



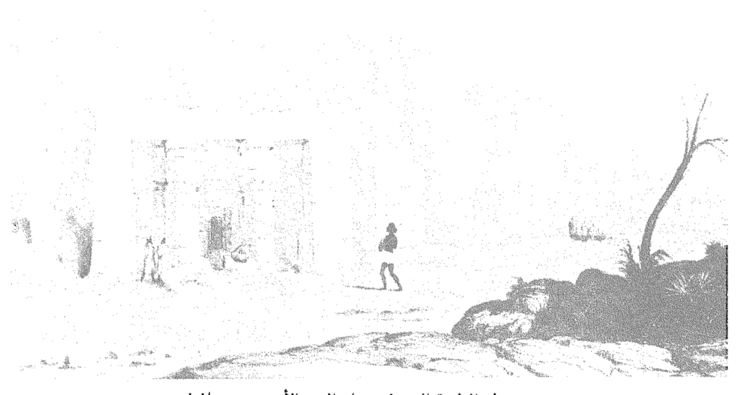
خيمة بدوية، رسم بلزونى.



عبور الصحراء.



خريطة برنيس كما رسمها بلزونى.



«معبد فى الطريق إلى برنيس على البحر الأحمر». رسم بلزونى.

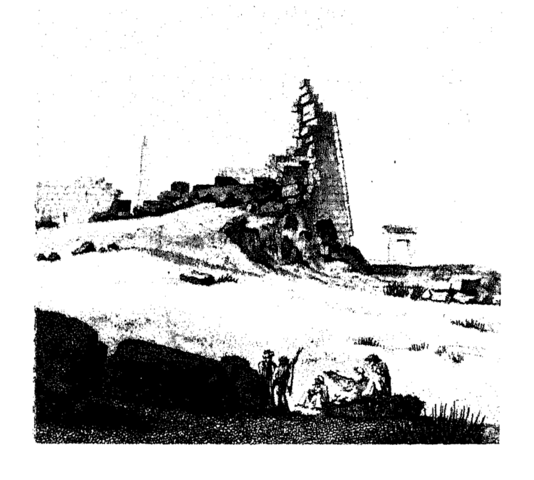
برناردينو دروفيتى وأعوانه.

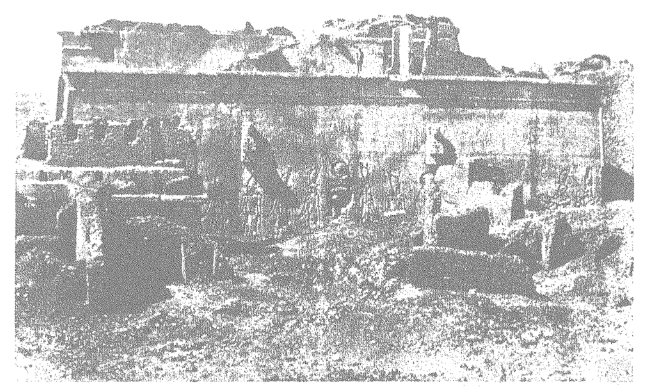
«مدينة باخوس على بحيرة موريس، رسم بلزوني.



قنطرة قرب الاسكندرية، عن وصف مصر.

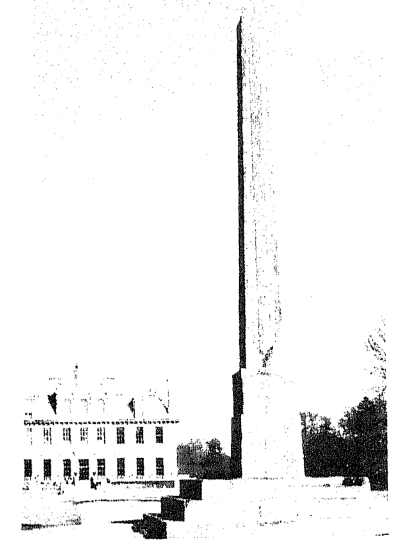






صورة قديمة لمعبد دندرة. تصوير مكسيم دى كامب.

الصرح الخارجى لمعبد الكرنك من الجنوب. عن وصف مصر.



مسلة فيله فى مكانها النهائى
فى حديقة بيت كنجستون لاسى
بضاحية دورست بلندن، وموقع المسلة
اختاره (القائد المعروف) دون ولينتجون.

عمود بومبى كما صوره علماء بعثة نابليون مع اسكتشات (كروكيات) لبعض التفاصيل (عن وصف مصر).


دنف: منظر اطلال المدنية من الجنوب الشرقى، عن وصف مصر.

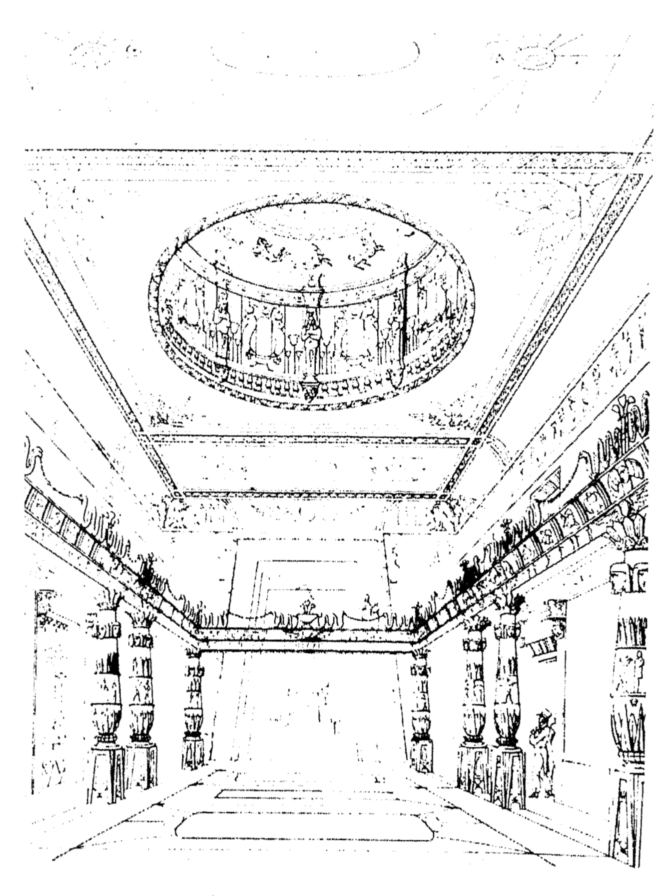


جيوفانى باتستا بلزونى
صورة لسيرته الذاتية.



إعلان عن القاعة المصرية الجديدة الرائعة.

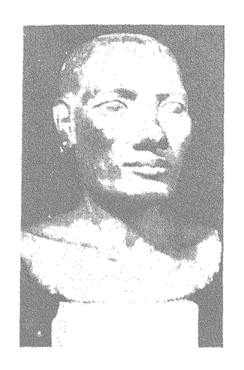
القاعة المصرية بيكادللى. لندن.



الجزء الرئيسي لصالة معرض بلزوني.

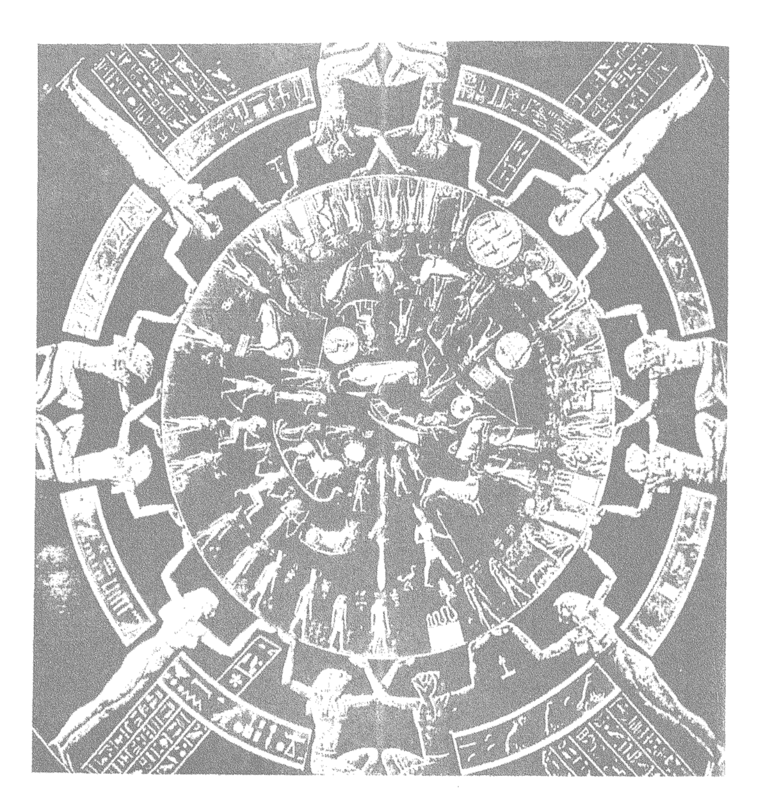
الصالة المصرية بالمتحف البريطانى.

التابوت المرمرى بمقبرة سيتى الأول معروض بمنزل السير جون سونى بلندن.



رأس رجل فرعونى مجهول. من مكتشافات سولت.

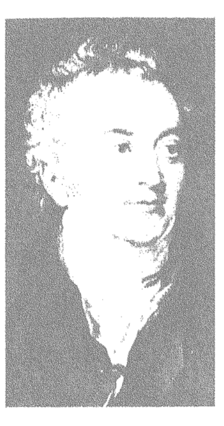
معبد حتحور بدندرة. من الجنوب الغربى .



الأبراج السماوية كما رسمها بعثة نابليون. عن وصف مصر.

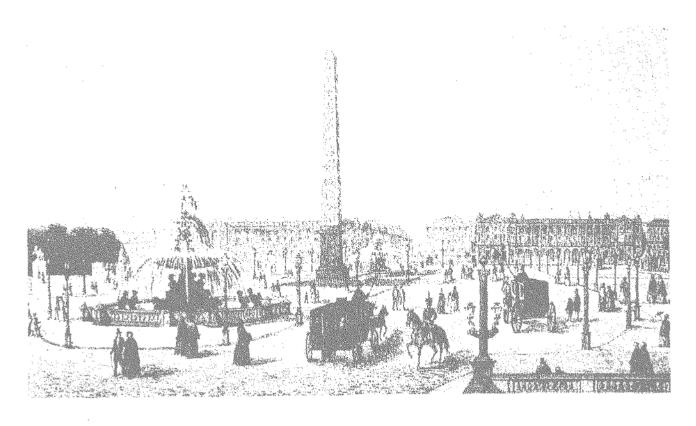


جان فرانسوا شمبليون، تصوير ليون كونييه.



توماس يونج (١٧٧٣ . ١٨٢٩).

لوحة للرسام نيكولو روسيللنى تمثل المركبة الحربية للملك رمسيس الثانى، منسوخة من معبد أبو سنبل.



مسلة من معبد الأقصر مقامة . حاليا . فى ميدان الكنوكورد بباريس.

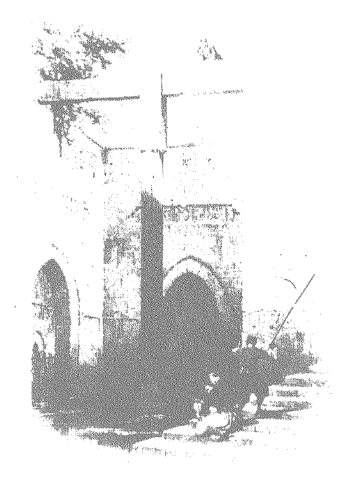


السير جون جاردنر ويلكنسون (١٧٩٧ . ١٤٣٧).



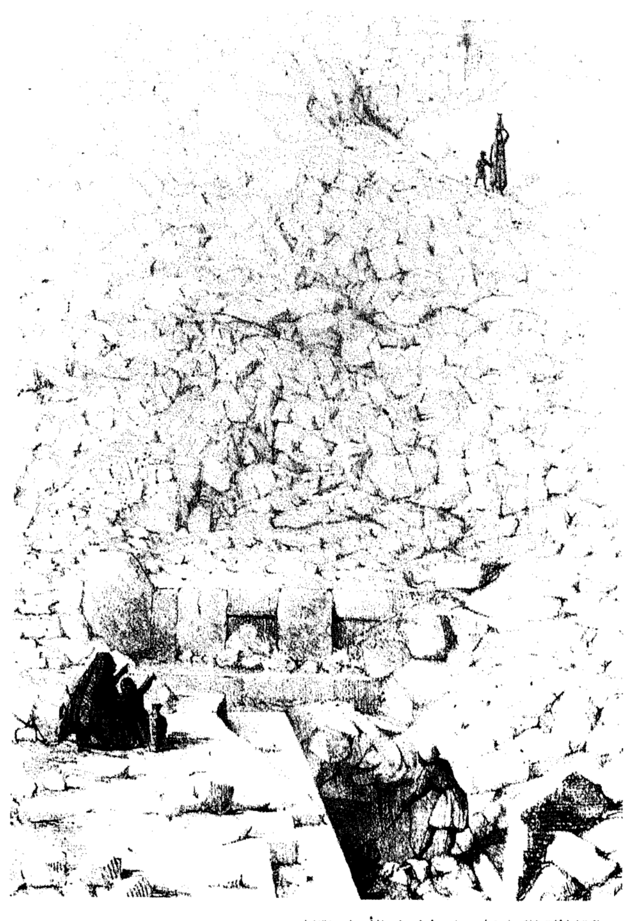
ريتشارد لبسيوس فى شيخوخته (١٨١٠ . ١٨٨٤).

مومياوات: رسوم توضيحية من كتاب ويلكنسون «لسلوكيات وعادات المصريين القدماء (١٨٣٧)».



مقياس النيل.

تصوير دافيد روبرتس سنة ١٨٤٦.



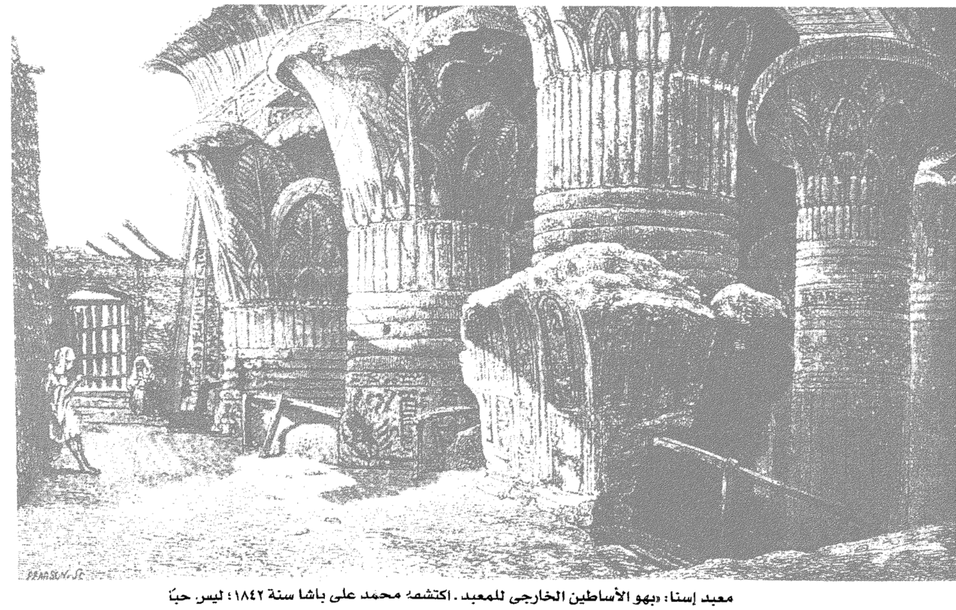
اكتشافات الكولونيل هوارد فيز عند الأهرام، ١٨٣٥.



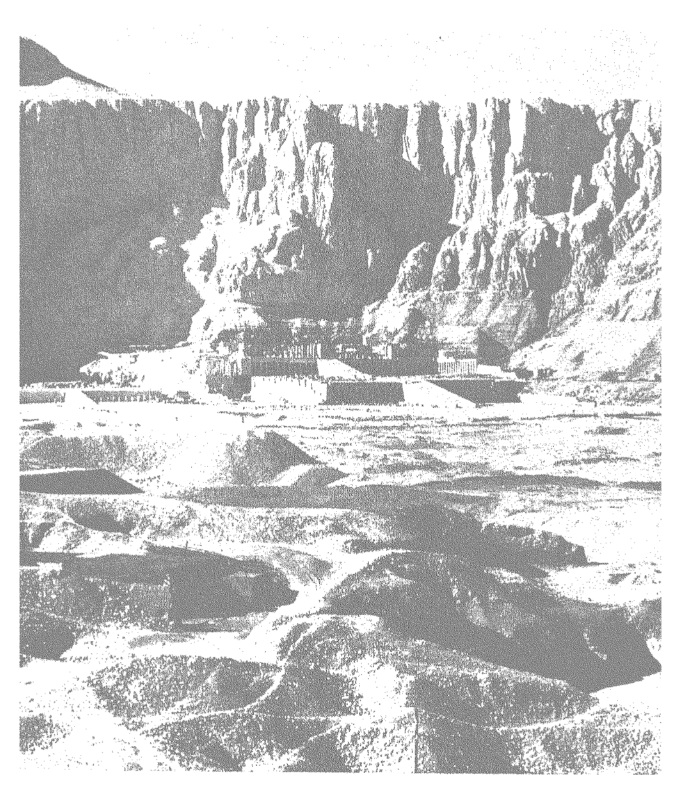
إميل بريس دافن فى زمن استكشافاته بالكرنك.



الكاتب الجالس القرفصاء:
تمثال مشهور عثر عليه مرييت فى السرابيوم،
وهذه الصورة مأخوذة من مؤلف له بعنوان
«مختارات أثرية» (١٨٥٦).



معبد إسنا: «بهو الأساطين الخارجى للمعبد. اكتشفه محمد على باشا سنة ١٨٤٢؛ ليس حبًا فى الآثار ولكن أثناء البحث عن مستودع مناسب تحت الأرض لحفظ البارود». أميليا إدواردز.



معبد حتشبسوت الجنائزى بالدير البحرى.

حفائر مرييت بالموقع (الدير البحرى).



الخديوى إسماعيل (١٨٣٠ . ١٨٩٥) مع ابنه توفيق.

«المسجد التركى وسراى وإلى مصر». صورة تم عرضها فى معرض باريس الدولى، ١٨٦٧ سراى عابدين.

«دار الأوبرا (القديمة) بالقاهرة وتمثال إبراهيم باشا».

افتتاح قناة السويس.



مشهد من أوبرا عايدة، حوالى سنة ١٨٧٨.

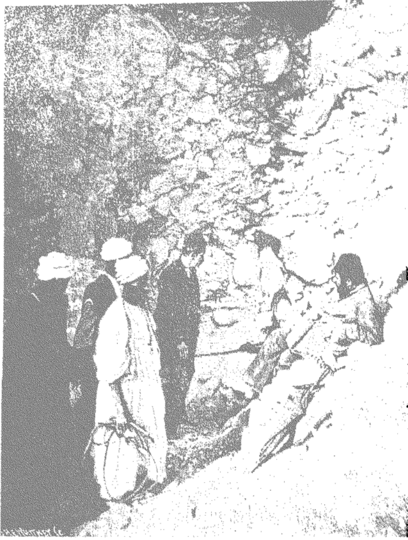


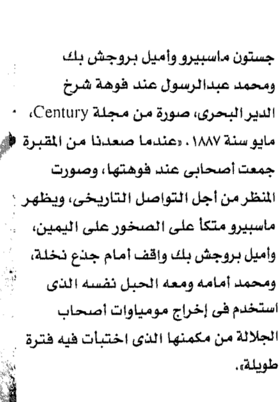
السير إفلين بارنج

(لورد كرومر) (١٨٤١ ـ ١٩١٧).



أوجست مرييت سنة ١٨٦١.





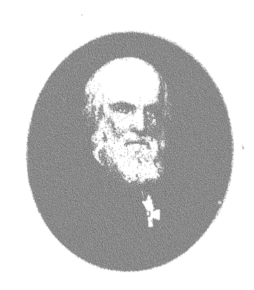
جستون ماسبيرو وأميل بروجش بك ومحمد عبدالرسول عند فوهة شرخ الدير البحرى، صورة من مجلة Century، مايو سنة ١٨٨٧. «عندما صعدنا من المقبرة جمعت أصحابى عند فوهتها، وصورت المنظر من أجل التواصل التاريخى، ويظهر ماسبيرو متكأ على الصخور على اليمين، وأميل بروجش بك واقف أمام جذع نخلة، ومحمد أمامه ومعه الحبل نفسه الذى استخدم فى إخراج مومياوات أصحاب الجلالة من مكمنها الذى اختبأت فيه فترة طويلة».



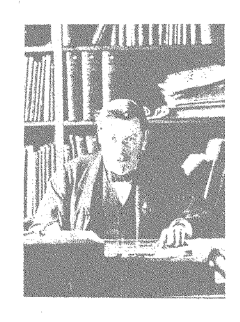
«منظر تخيلى لمعبد الأقصر كما كان أيام الفراعنة من عمل جاستون ماسبيرو إرشادى «وهنا دعنا تضيف، كما كتب مربيت فى دليل إرشادى عن الآثار، «أن الأقصر كانت فى قديم الزمان مركز من مراكز التنوير والثقافة». والأقصر الآن بها مصانع تنتج التماثيل واللوحات والجعارين الأثرية المقلدة تقليداً متقناً كثيراً ما يخدع حتى المتخصصين فى الآثار».



رأس سيتى الأول، الأسرة التاسعة عشرة.



صمويل بيرش.

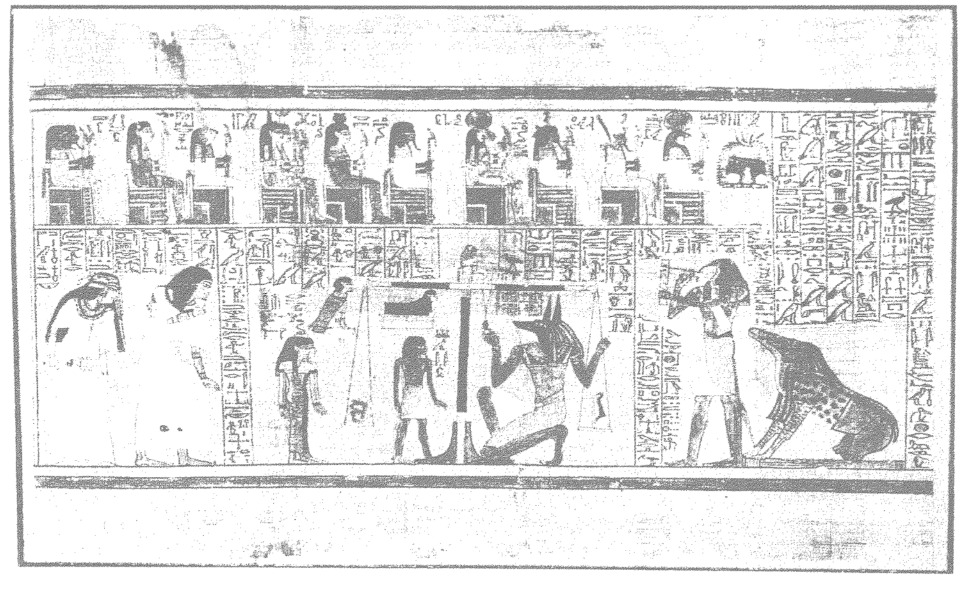


واليس بادج.

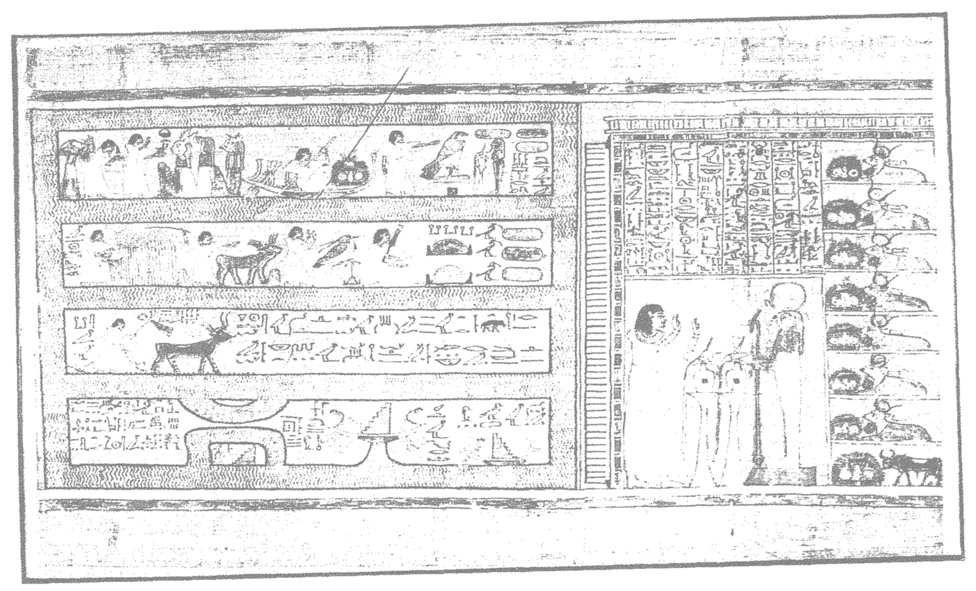
هرم زوسر المدرج بسقارة.



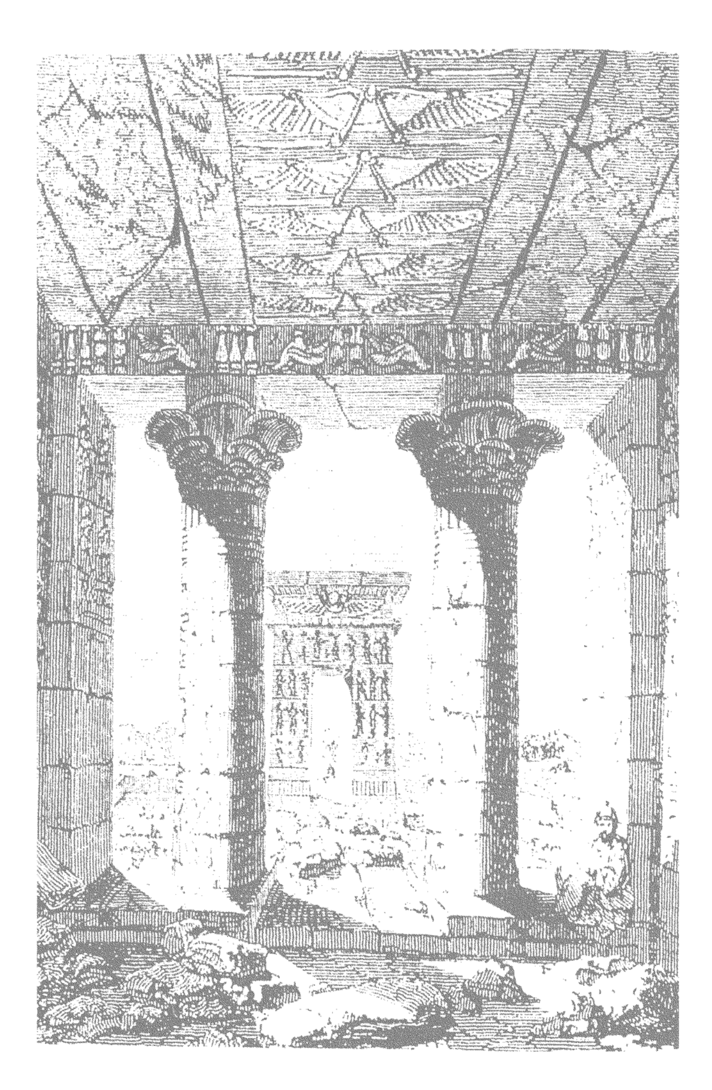
دكان حلاق بالقاهرة.



كتاب الموتى . بردية آنى . وزن قلب آنى مقابل الماعت.



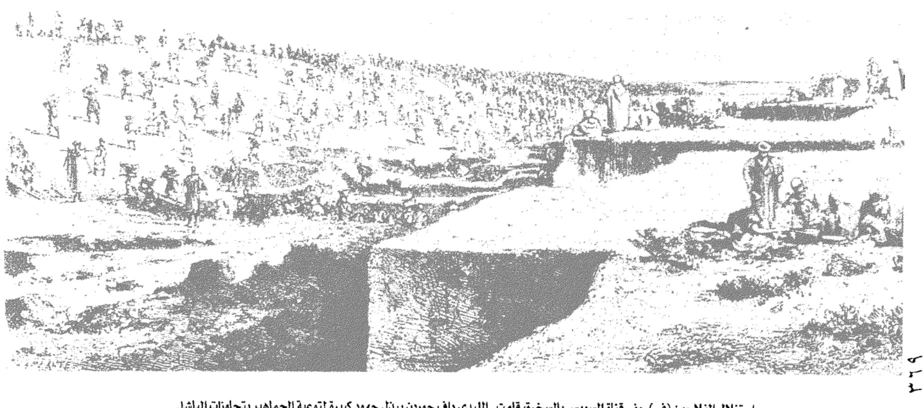
مناظر أخرى من نفس البردية الشهيرة (بردية آنى».





ليدى لوسى داف . جوردن (١٨٢١ . ١٨٦٩).

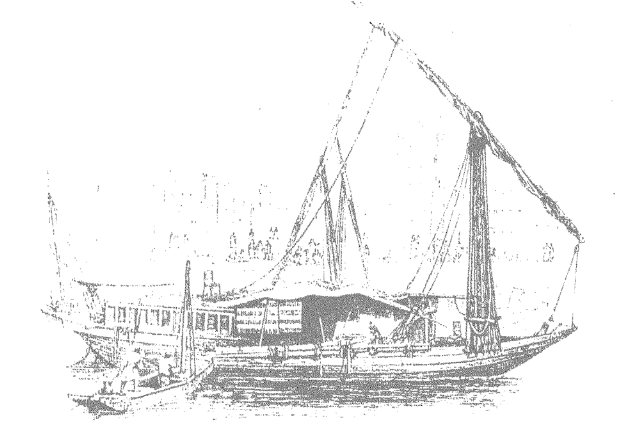
«بيت السيدة داف . جوردن فوق سطح معبد الأقصر قبل استكشافه».

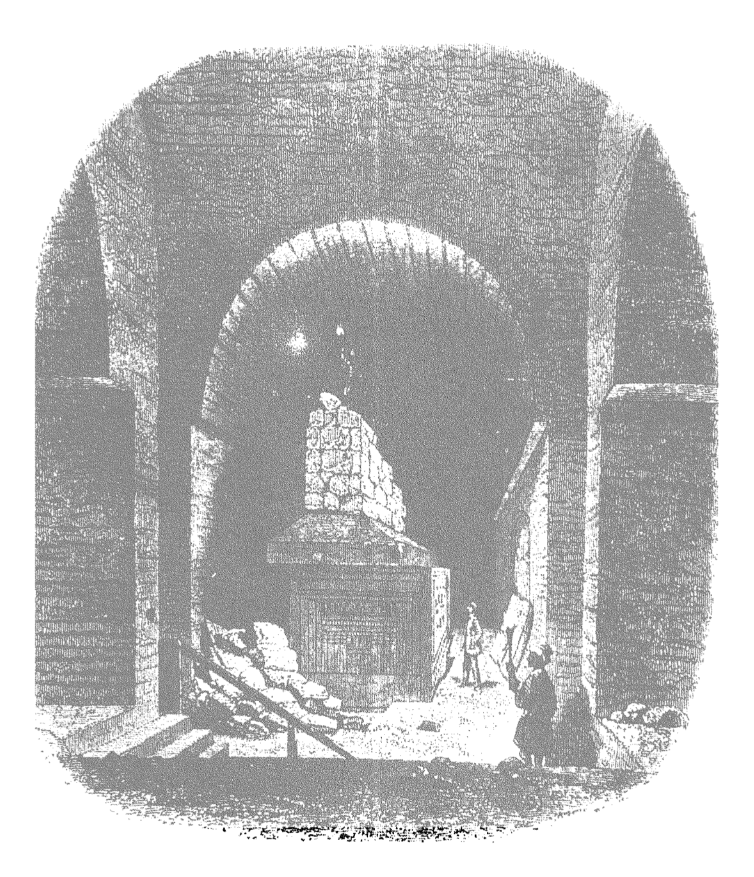


استغلال الفلاحين (فى) حفر قناة السويس بالسخرة، قامت   الليدى داف جوردن ببذل جهود كبيرة لتوعية الجماهير بتجاوزات الباشا.

فندق شبرد (القديم) بالقاهرة.

ذهبية. «بعضها كان فاخر لرياش، وبها مكان يسمح بوضع بيانو».





السياح يتجولون فى حجرة دفن (عجول أبيس) فى السيرابيوم فى ضوء المشاعل.



آميليا إدواردز (١٨٣١ . ١٨٩٢).

صخرة أبو صير. «عثرنا على اسم بلزونى»، كما كتبت آميليا إدواردز، «ولكن فشلنا فى العثور على إمضاءات بورخات وشمبليون ولبسيوس وامبير».

مرسى فى أسوان.

قطر ذهبية.

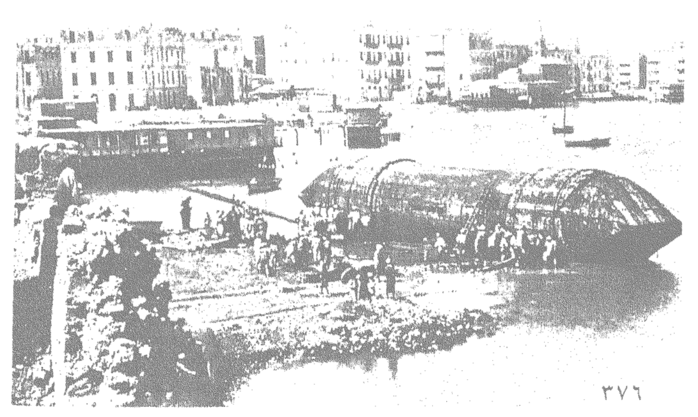


السياح يتجولون. «فى أحد الشوارع المصرية».



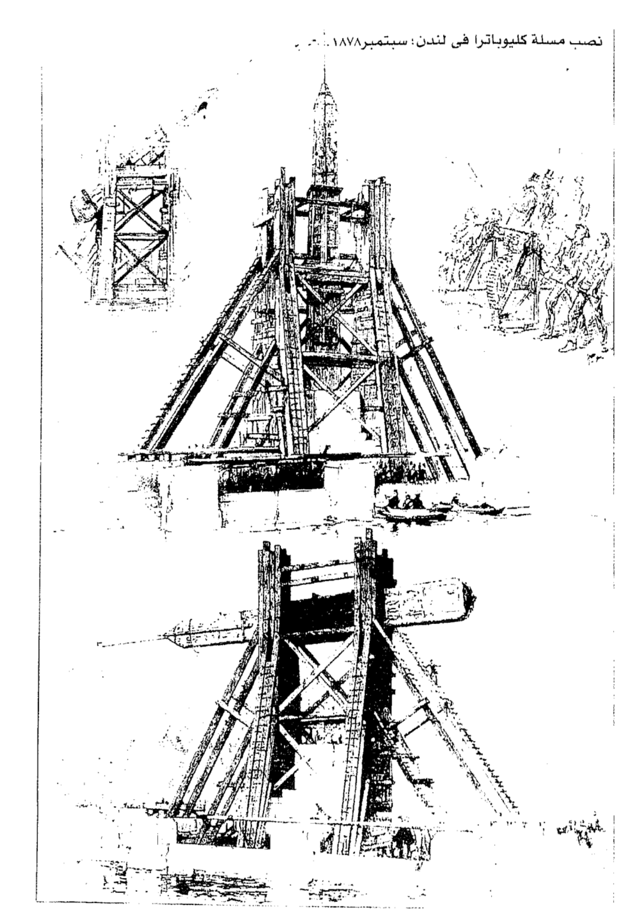
«الحفر بحثا عن المومياوات»، وتلفت آميليا إدواردز الأنظار إلى أن «رؤيتها (المومياوات)وهى راقدة كما لو كانت النائحات قد تركتها توا تسبب (للمشاهد) هزة (عصبية). خصوصا. وأن الأيدى العابثة ترفعها بخشونة، حيث تفحص (انتهاك آخر!)، وتزال أغلفتها (أى تكشف) وربما تتكسر فتصبح غير صالحة لشغل ركن فى متحف بولاق».

بحارة ذهبية يعزفون الموسيقى، «لم يكن بالدهبيات مكان مهيأ لنوم البحارة، لذلك كان البحارة يلفون أنفسهم فى برانسهم (جمع برنس. رداء معروف) ويستلقون على ظهر السفينة مثل أثواب القماش، وكثيراً ما التبس على الأمر بينهما (البحارة وأثواب الأقمشة)».



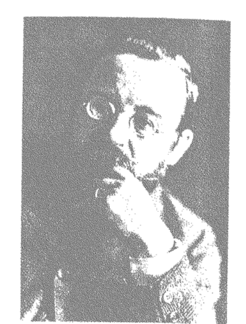
شحن مسلة كليوباترا بالإسكندرية؛ ١٨٧٨.

نصب مسلة كليوباترا فى لندن: سبتمبر ١٨٧٨

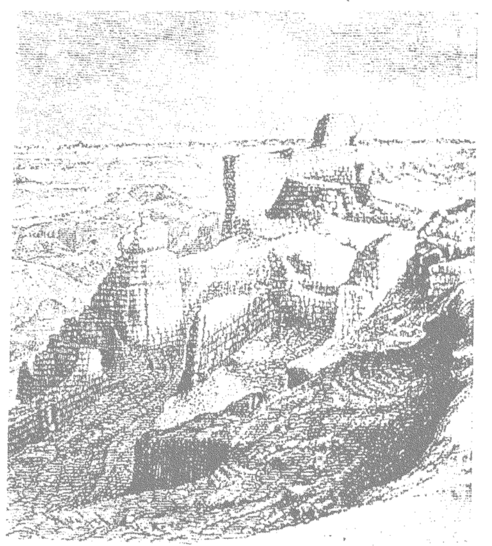


١. المسلة فى ١١ من سبتمبر.
٢. الونش يقوم بخفض قاعدة المسلة.
٣. إقامة المسلة فى وضع عمودى فى ١٢ من سبتمبر.
٤. نصب المسلة على منصة العرض الحجرية.

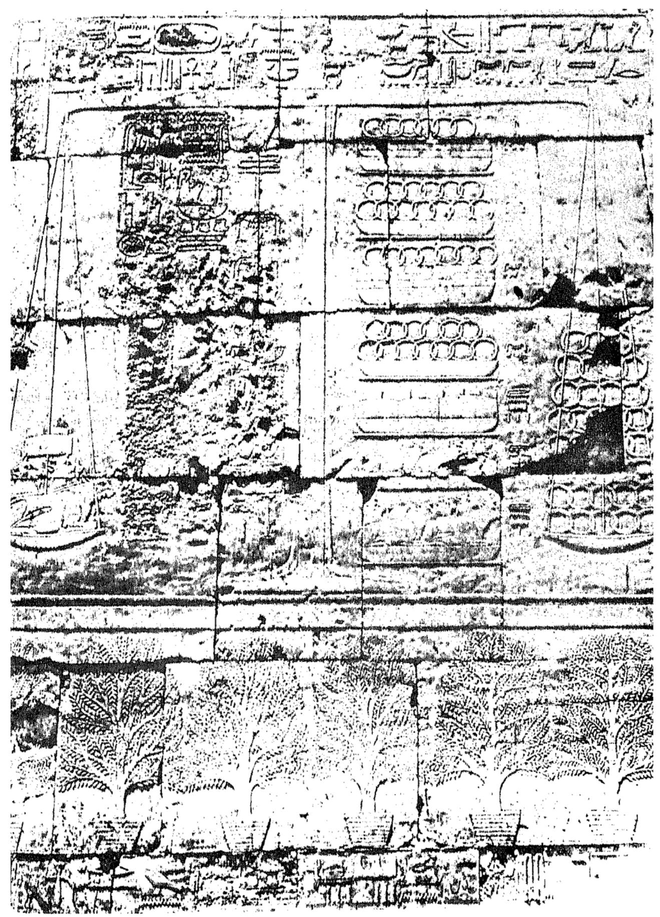
الفناء الخارجى لمعبد سيتى الأول بأبيدوس.



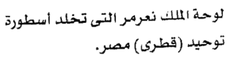
آدولف إرمان (١٨٥٤ ـ ١٩٣٧).



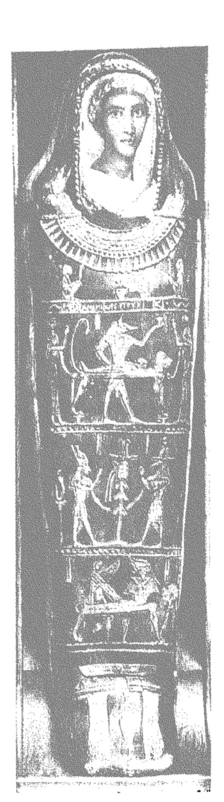
احد مواقع حفائر مريبيت. «فى كل مكان ينبعث صوت المزامير والأصوات العالية».



نقش بارز عثرت عليه بعثة فلندرز بترى سنة ١٨٩٤. وزن المعادن النفسية . اشجار البخور فى اصص،



لوحة الملك نعرمر التى تخلد أسطورة توحيد (قطرى) مصر.



تمثال قط جالس.

مومياء أرتميدورس، من الجالية اليونانية.



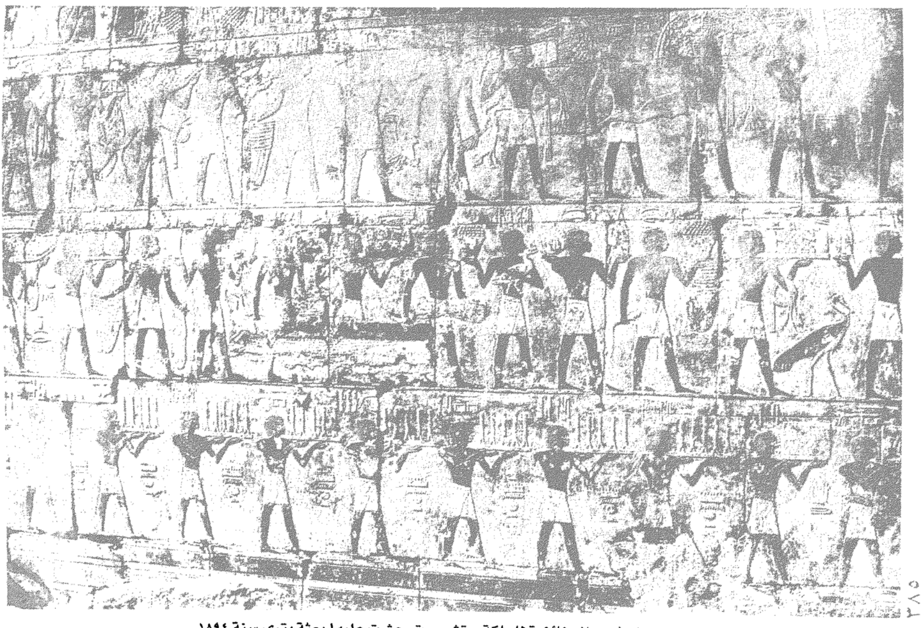
قاعة عرض مصرية من العصر الفيكتورى، أصابها بعض الخلل ، لكن الأثريين مستمرين فى استعمالها.



رأسى الملكة نفرتيتى من الحجر الجيرى. الأسرة الثامنة
عشرة (١٣٥٥ ق. م)، عثر على هذه الرأس الشهيرة
فى العمارنة.



تمثال من المرمر لأبى الهول من عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. من مكتشفات بترى.



تقديم القرابين الجنائزية للملكة حتشبسوت. عثرت عليها بعثة بترى سنة ١٨٩٤.

مبنى مخنوظات العمارنة أثناء الحفر والاستكشاف.



أساطين فى معبد سيتى الأول بأبيدوس.

السير فلندرز بيترى ينظم معرض الخزفيات الفلسطينية فى لندن.

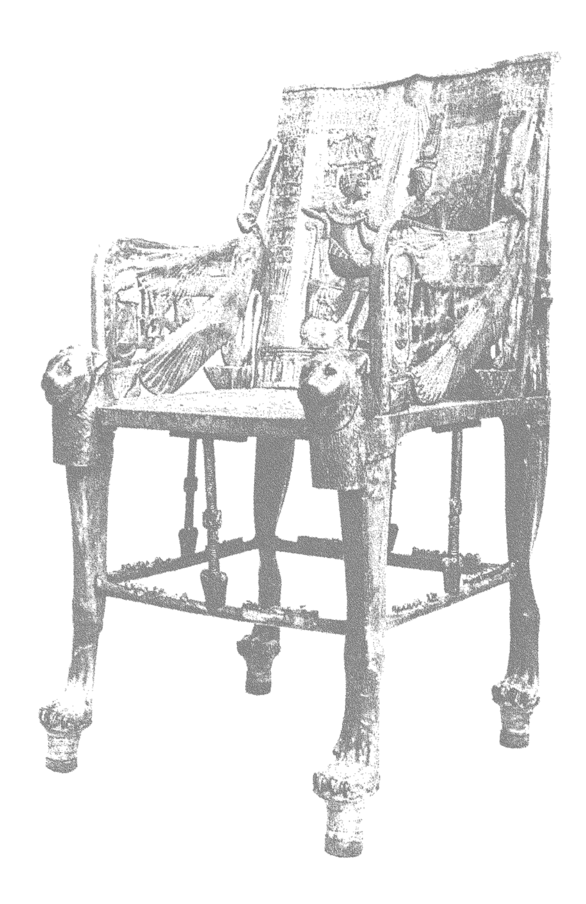
السير فلندرز بيترى يجوب فلسطين فى سن الثالثة والثمانين، يظهر بترى وزوجته وقد اكملا رحلة طولها ١٢٠٠ ميلا فى حافلتهما العتيقة الخضراء الظاهرة فى خلفية الصورة.



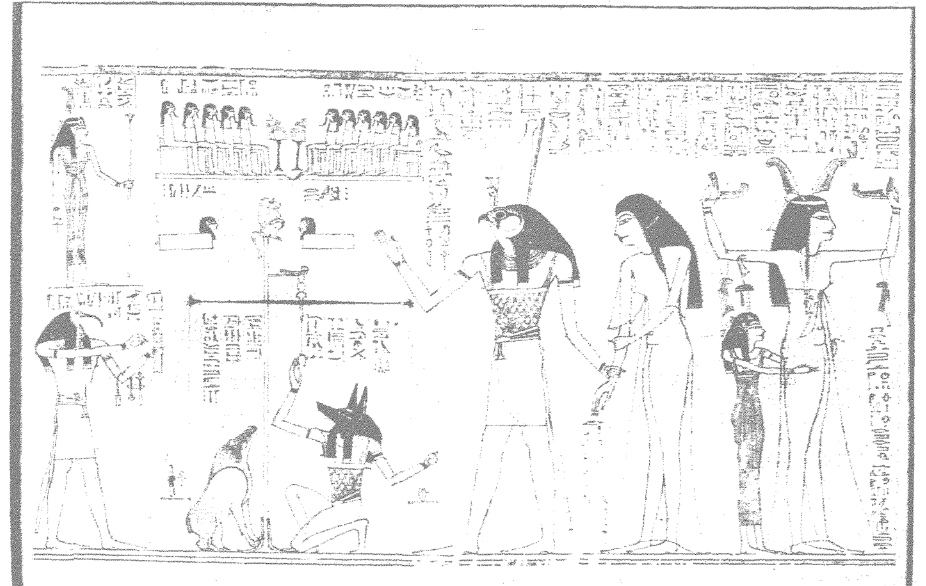
شاهد قبر من باب مقصورة قبطية بإدفو.



كنوز توت عنخ آمون المكتشفة تنقل بعناية من وادى الملوك تحت الحراسة،
مثل هذه الاحتياطات مطلوبة دائما. حتى فى وقتنا الحالى.



كرسى عرش من مقبرة توت عنخ آمون.



وزن قلب الأميرة عنخ آى أمام الماعت. بردية فى المتحف البريطانى.

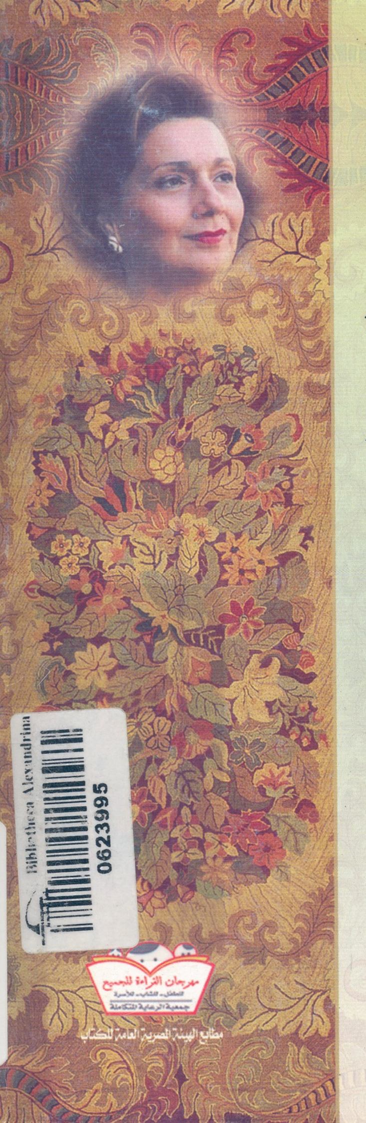
الفهرس

رقم الإيداع

٢٠٠٢/١٦٣٧٢

I.S.B.N. 977-01-8406-3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة، وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق في القراءة يماثل تماماً الحق فى التعليم والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٤٠٠ قرش